التربيـــة

فى حضارات الشرق القديم

دكتـور

سعيد إسماعيل على

أستاذ أصول التربية

كلية التربية - جامعة عين شمس

القاهـرة

١٩٩٩



٣٨ شارع عبد الخالق ثروت القاهرة ت ٣٩٢٦٤٠١

مقدمـــــــة

الصورة الحالية من الكتاب الذى بين يدى القارىء تشكل المرحلة الثالثة للتطور الذى مر به موضوع التربية فى حضارات الشرق القديم ، فقد كانت الصورة الأولى تتخذ شكل ما يمكن أن نسميه بالمصطلح الشائع فى جامعاتنا " مذكرة " أعدت للتدريس لطلاب الدبلوم الخاصة فى التربية ، الذين يختارون مادة تاريخ التربية ، وكان ذلك فى العام الدراسى ١٩٩٣/٩٢ . فلما جاء العام التالى جرى تطوير لهذه " المذكرة " فخرجت فى شكل كتيب مطبوع من القطع الصغير ، يقع فى ١٥٨ صفحة .

ومنذ أن خرج هذا الكتيب عام ١٩٩٤ ، شغلت باستكمال سلسلة التأريخ للتربية والحضارة فى العالم ، إلى أن أتيحت لى الفرصة فى العام الحالى أن أعيد النظر فى هذا الكتيب بعد أن توافرت لى مادة علمية أكثر ، ورؤى ، وزوايا ، وقضايا ، واهتمامات أكثر مما توافر لى عام ١٩٩٤ ، فخرج الكتاب فى الشكل الحالى الذى يعتبر تطويرا كبيرا للكتيب السابق ، لا من حيث الحجم فقط وإنما كذلك من حيث المضمون والمحتوى ، فعلى سبيل المثال ، كان لابد أن يخرج الفصل الذى يتناول التربية عند بنى إسرائيل ، ما دام قد استقل بكتاب خاص ، وقد استحدثت فصلا خاصا بالتربية فى الحضارة الفارسية .

وعبارة " حضارات الشرق القديم " تشمل حضارات أخرى لم يجىء ذكرها فى الكتاب ، وهذا ما يحتاج توضيحا ، فالحضارة المصرية القديمة ، لأهميتها وضخامة عطائها الحضارى كان لابد أن تستقل بدراسة خاصة ، أما شبه الجزيرة العربية ، فقد رأيت أيضا أن تستقل بدراسة خاصة خرجت بعنوان " التربية العربية فى العصر الجاهلى " ، وإن كانت لم تضم جزءا عن حضارة اليمن القديم آمل - إذا كان فى العمر بقية - عند إعادة طبع الكتاب أن تضمه . وقد كنت أود أن أكتب جزءا فى الكتاب الحالى عن الحضارة الفينيقية ، لكن ما توافر لدى من مادة علمية لم يعنى على ذلك ، إذ هو على درجة من الشح بما لا يساعد على تحقيق المأمول .

ولابد أن أصارح القارىء بأن التربية فى هذه العصور القديمـــة كـانت تتمثـل بـالفعل فى المقولة المعروفة والتى تذهب إلى أنهـا مرادفـة للحيـاة ، ومـن هنـا سـوف يلمـس القارىء تركيزا واضحا علـى أمـور مجتمعيـة عامـة ، باعتبارهـا تشـكل ظواهـر وقـوى مربية إلى حد كبير ، حيث لـم يكـن التعليم فـى شـكله النظـامى بـارزا ومنتشـرا وقويـا بالدرجة والشكل الذين نراهما فى عصورنا الحديثة .

وليس معنـى قولـى أن الكتـاب الحـالى يمثـل المرحلـة الثالثـة مـن تطــور دراسـتى لموضوع التربية فى حضارات الشرق القديم ، أننى بذلك قد بلغت ما أتمنــى ، إذ يظـل " الحلم " دائما بعيدا حتى نظل فى حالة ركض دائم إلـى أمـام ، ونبـذل المزيـد مـن الجـهد سعيا فى الاقتراب منه .

نسأل الله العلى القدير أن يوفقنا إلى إلى مزيد من الجهد العلمى الذى يشكل لبنــات فى صرح الفكر التربوى ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

د/ سعيد إسماعيل على

العباسية فى ١٩٩٩/٦/١٩

الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمـــة	٣
الفصل الأول : البدايات	٧
المسرح : ١٠- نشأة الحياة :١٣- نشأة الإنسان :١٧-التوجه التطورى :٢٣- التحقيب الحضارى :٣١- نشأة الثقافة : ٣٥- رؤية دينية : ٤٠- الهوامش : ٤٤	
الفصل الثانى : التربية البدائية	٤٩
مفهوم البدائية :٤٩- البنية الأساسية :٥٤- الثقافة البدائية : ٦٠- التنظيم الاجتماعى :٦٧- دور الأسطورة والدين:٧٣- اللغة:٧٧- العقلية البدائية:٨٢- الوضع التربوى:٨٨ - الهوامش:٩٥	
الفصل الثالث : بلاد الرافدين	١٠١
مدخل:١٠١- فجر الحضارة العراقية:١٠٦- السياق الزمنى:١٠٨- صناع حضارة بلاد الرافدين:١١٠- اللغة والكتابة:١٢٠- المدرسة العراقية القديمة:١٢٨- تربية الأسرة:١٣٥- الكتب والمكتبات:١٣٩ - العلوم والفنون:١٤٣- المضمون التربوى للأساطير العراقية:١٤٩ - الأبعاد التربوية للتفكير الدينى:١٥٥- الهوامش:١٦٠	
الفصل الرابع : التربية الهندية	١٦٧
أبعاد الحضارة الهندية:١٦٧- الطابع التربوى للفكر الفلسفى الهندى :١٧٣- الفيدا:١٧٦- اليوبانشادات :١٧٨- اليوجا:١٨٢- التربية	

البوذية:١٨٤- اللغة والكتابة:١٩٠- صور من التعليم:١٩٢-
المربون:١٩٧- الهوامش:٢٠٠

الفصل الخامس: التربية الصينية ٢٠٣
الإطار الحضارى:٢٠٣- الحكمة التاوية:٢٠٨- الكونفوشيوسية:
٢١٤- اللغة والاكتابة:٢٢٥- معالم فكر تربوى:٢٢٧- تنظيم
التعليم:٢٣٢- الهوامش:٢٣٧
الفصل السادس : التربية الفارسية ٢٤١
مقدمة:٢٤١- الأصول الطبيعية:٢٤٢- التطور الاجتماعى
والسياسى:٢٤٥- التربية الدينية:٢٥١- حركة الثقافة:٢٥٦
- التربية العامة:٢٦٤- اللغة والكتابة:٢٧٣- التعليم النظامى
:٢٧٦- الهوامش:٢٧٩

الفصل الأول

البـــدايــــات

تمهـــيد :

من الناحية الزمنية ، فإن الفصلين الأول والثانى يختصان بدراسة ما اصطلــح علـى تسميته بما قبل التاريخ ، إشارة إلى أن الفترة المقصودة هــى تلـك التـى تسبق تسـجيل الإنسان لأعماله وآرائه فى سجلات مكتوبة ، سواء كانت نقشا على الحجر أو اللبـن أو القراطيس أو البردى أو قطع الفخار إلى آخره ، فمنذ ذلك الحيـن تركـت لتلـك السـجلات مهمة رواية قصة الإنسان ، أما قبل هذا فعصر طويل ليس لدينا عنه سجل مكتوب ، بل آثار أخرى صامتة ، ولكنها – فى نظر كثير من العلماء – أكثر إفصاحا من المكتـوب ، لأنها تبرأ من كثير من الزيف الذى يتعمده الإنسان أحيانا فى تاريخه المكتوب (١).

وتحديد بداية عصر ما قبل التاريخ أمر يقع فى نطاق المجهول ، ولكن من الممكـن معرفة نهايته ، وإن كانت هذه البداية تختلـف بـاختلاف أنحـاء كثـيرة فـى العـالم ، فـإذا كانت نهايته هى بدء معرفة الإنسان الكتابة ، فإن الأمم والدول اختلفت فى هـذا البـدء ، لكن يمكن القول أن عصر ما قبل التاريخ بـدأ فـى عصـر البلايستوسـين ، وبـدأ بظهـور الأشكال الإنسانية الأولى (٢).

وعصر البلايستوسين هو الفترة التى شهدت فيها أجزاء العالم المختلفة تغيرات فــى بيئتها الجغرافية فشهد النطـاق الصحـراوى العربـى فترات مطـيرة ، بينمـا دهـم الجليـد معظم أوربا شمال الألب ، ذلك بالإضافة إلى أن القارات اتخذت شكلها النهائى ، وتطـور الجنس البشـرى إلـى النـوع الـذى يعيـش فـى الوقـت الحـاضر والـذى نطلـق عليـه اسـم الإنسان العاقل Home Sapiens تمييزا عن الأنواع الأخرى البائدة من الإنسـان (٣) ، كما يذهب إلى ذلك علماء .

وكان حلم علماء الأنثروبولوجيا أن يكتشف أحد خاصية معينة للعظام تعتبر بمثابة تعتبر بمثابة آلة للتوقيت يعرف بها الزمن الذى انقضى منذ دفنت هذه العظام أو واراها التراب . وقد تحقق هذا الحلم على يد عالم إيطالى من علماء الكيمياء يدعى " مورشينى " الذى وجد أن عنصر " الفولر " يتحد مع العظام ببعد دفنها فى التربة إذا ما تعرضت للمياه الطبيعية المتسربة فى الأرض والتى تحتوى على هذا العنصر (٤). لكن أحدا لم يعر هذا الكشف أهمية ، إلى أن جاء عالمان فرنسيان آخران برأى له قيمته العلمية ، فقد أثبتا أن هذا العنصر له أهمية اكتساب الأسنان لصلابتها وحفظها من التسوس ، وعزيا هذا الأمر إلى وجود " الفلور " فى مياه الشرب فى بعض المناطق ، واستطاع علماء آخرون أن يزيدوا الأمر وضوحا وتأكيدا.

ومن هنا فإن البحوث الأركيولجية لم تعد تقتنع بالحفر والتنقيب فى الأرض للبحث عن الشواهد التى تساعد على معرفة تاريخ الجنس البشرى وحضارته وإنجازاته ، وإنما بدأت تتخذ أساليب ووسائل أخرى مساعدة أو إضافية ، وتستعين ببعض العلوم الأخرى للوصول إلى نتائج أكثر دقة ، كما هو الحال فى استخدام طريقة الكربون المشع لتحديد التواريخ القديم ، فمن المعلوم أن ذرات عنصر الكربون المشع الذى يرمز له بالرمز الكيميائى ك-١٤ تفقد نشاطها الإشعاعى ببطء وبمعدل ثابت ، فلو أمكن تقدير النشاط الإشعاعى للكربون المتبقى الآن فى مخلفات الأثرية القديمة - وهو ما يمكن عمله فى معامل الكيمياء اليوم بدقة كبيرة جدا - لأمكن حساب الزمن الذى انقضى على هذه المخلفات بخطأ حسابى بسيط وذلك فى الخمسة والعشرين ألف سنة الأخيرة على الأقل (٥) .

وهكذا أدى استخدام هذه الطريقة إلى ظهور الاتجاه بين عدد من علماء الأركيولوجيا Archaeology إلى أن أصول الزراعة ترجع إلى ما قبل ٧٠٠٠ق.م ، أى أنها ظهرت فى تاريخ أسبق بكثير جدا مما كان الكثيرون يعتقدون ، وبذلك ساعدت هذه الوسائل الجديدة المستمدة من العلوم الأخرى على ملء كثير جدا من الفجوات التى كانت تعيب معرفتنا بمراحل وفترات هامة من تاريخ الإنسانية ، وبخاصة المراحل الأولى المبكرة من التطور الحضارى (٦) .

وفى نفس الوقت ، من المستحسن أن نضع حدودا للتأريخ بالكربون المشع (٧) :

– أن علماء ما قبل التاريخ لهم اتجاه عند التحدث عن قانون انكسارات الأشعة التى تصاحب تأريخ الكربون ١٤ كحدود مطلقة ، وفى الحقيقة أن تاريخا معينا مثلا أشير إليه ١٣٠٠–+٥٠٠ يعبر فقط عن ٩٥٪ من فرصة وقوعه بين عام ١٢٠٠ و ١٤٠٠ق٠م ٠

– أن التاريخ فقط لا زال مقبولا مثل العينة التى اقتبس منها ، فسوف يؤرخ الفحم البلدى الذى عثر عليه فى أطلال موقع حرق من الوقت الذى قطعت فيه الشجرة وليس من تاريخ ما حدث من حريق فى المنطقة ، بالإضافة إلى ذلك ، فلابد أن الحلقة الخارجية للشجرة فى توازن تام مع جو الإشعاع الكربونى الخاص بالسنة التى قطعت فيها الشجرة ، وعلى هذا فمن المرجح الاتجاه نحو التواريخ المتقدمة التى بنيت على طريقة التأريخ بالكربون المشع ، وأخيرا لم يتضح بعد تاريخ تقلبات كربون ١٤ الجوية ٠

– هناك جهود تدفعنا إلى ألا نعتمد على الكربون المشع ، فهناك احتمال التوصل إلى التأريخ بالحرارة المضيئة Thermoluminescent مما سوف يساعدنا على مراجعة الطبقات التى يوجد فيها فخار ، كذلك بدأ فهم القوة الكافية فى الفنون المغناطيسية الأثرية Archaeomagnetic Techniques ٠

وهكذا فإن أهم ما أسهمت به هذه الوسائل والأساليب التى يلجأ إليها علماء الأركيولوجيا الآن ، أنها أتاحت لهم الفرصة لأن يتعرفوا قصة التطور الإنسانى من البدايات الأولى حتى العصور التاريخية ، وأن يصلوا إلى سجل كامل دقيق عن الفترات التى اصطلح على تسميتها بعصور (ما قبل التاريخ) ، دون أن يضطروا إلى الالتجاء إلى أسلوب الظن والتخمين الذى كان يلجأ إليه علماء القرن التاسع عشر الذين كانوا يعتمدون إلى حد كبير على المعلومات الإثنوجرافية المتاحة حينذاك عن الشعوب البدائية (٨)٠

ومن المعلوم أن العلوم التى يستعان بها فى دراسة عصر ما قبل التاريخ ، الجيولوجيا ، فحتى عهد قريب كان عصر ما قبل التاريخ يعتبر أحد فروع جيولوجية الزمن الرابع أو جيولوجية عصر البلايستوسين ، ويعتمد أيضا على الأنثروبولوجيا

التى تدرس تطور الإنسان من بداياته حتى الآن ، والأجناس البشرية البائدة التى عاشت عصر ما قبل التاريخ ، وذلك بالإضافة إلى أن الأنثروبولوجيا تساعد الباحث على مقارنة بعض أساليب الحياة لبعض الجماعات التى تعيش فى الوقت الحاضر بالجماعات التى عاشت فى العصور الحجرية القديمة حتى يمكن أن تأخذ صورة واضحة عن حياتها الفكرية والحضارية ، وبعبارة أخرى إن دراسة المجتمعات البدائية تلقى ضوءا على إنسان ما قبل التاريخ وأسلوب حياته . ومن العلوم الأخرى التى يستعان بها فى مجال دراسة ما قبل التاريخ علم تتابع الطبقات Stratigraphy ، والحفريات القديمة Palaentology وغيرها من العلوم التى تساعد على تفهم المسرح البيئى الذى نشأ عليه الإنسان فى عصر البلايستوسين (٩) .

المسرح :

ذهب البعض إلى أن الكون أزلى ، أى موجود منذ القدم ، بيد أن هذا القول لم يلق قبولا فى معظم عصور التاريخ ، ذلك أن الجمهرة الكبرى من الناس كانوا ولا يزالون يؤمنون بفكرة الخلق ، وحديث الخلق فى ستة أيام معروف لدى كثيرين . وقد تصور قدماء المصريين - فيما تصوروا - أن الأرض إنما انفصلت عن السماء بواسطة آله كانوا يسمونه " شو " الذى كان أيضا آله الجو ، فهى بذلك حدث تم بفعل الآلهة (١٠).

وإذا فكرنا فى هذا الكون (١١) ، يوم لم تكن هناك سموات ولا أرضين ، ولا نجوم ولا شموس ، فإنه يمكن أن نتصور الفضاء الفسيح فى صورته الطبيعية ، أى منذ الأزل وقبل حدوث الحوادث وبدء الخليقة ، على النحو الذى نرى أجزاء خاصة منه الآن ، تلك الأجزاء التى لم تمسها ببعد معاول الخليقة ولم تبدأ فيها الحوادث الكونية . إن هذا الفضاء الكونى ينتشر فيه غاز خفيف رقيق بدرجة لا تكاد تلمس ، وهو أشبه ما يكون بالدخان غير المرئى من خفته . وللغاز خاصية الانتشار ، فهو دائما يملأ الفراغ المعرض له ، والفراغ الكونى يمكن أن يملأ بالغاز مهما قلت درجة تركيزه ، ولم يكن ذلك الغاز أو الدخان الأول سوى الإيدروجين ، الذى يتكتل - لسبب من الأسباب كحدوث الدوامات مثلا - فى مناطق عظيمة الحجوم ، مكونا مجاميع من السحب التى تفوق

حجومها حد الوصف والخيال ، وتمخضت كل سحابة عن سديم برمته " ثم استوى إلى السماء وهى دخان "(١٢)٠

وقد لعب غاز الإيدروجين ، وهو أبسط أنواع المادة تركيبا وأهمها فى تكوين الماء ، دورا هاما فى تكوين السديم ، وما تمخض عنه بعد ذلك من تكوين المجرة ، إذ انقشع الغاز عن بعض الأجزاء وتراكم فى بؤرات خاصة ولدت النجوم والشموس ، فشمسنا مثلا يتكون نحو ٩٩٪ منها من غاز الإيدروجين ، ورماده الهيليوم ٠ ومعنى ذلك أن الكون بدأ فى صورة غاز الإيدروجين ، أما العناصر الأخرى فتولدت بعد ذلك تحت

وقد حدث أن كان نجم أصله من العمالقة أو مارد جبار من النجوم فوق البراقة يكون زوجا مع الشمس ويدور فى فلكه معها وهى فى أوائل عهدها بالوجود ، ثم انفجر هذا النجم بشدة وعنف شديدين وتناثرت أجزاؤه ولم يبق منه شىء ، وانتشر نتاج الانفجار فى كل مكان ، ومنه ما فقد فى أبعاد سحيقة فى الفضاء ، بينما تكاثفت بعض الغازات الناجمة من الانفجار رويدا رويدا عن كثب من الشمس ، وتجمعت فى ظل جاذبيتها فى مراكز الكواكب السيارة التى نعرفها اليوم (١٤)٠

ولقد ولدت الأرض وأخواتها من المجموعة الشمسية نتيجة تكاثف غازات وسحب ملتهبة لكثير من العناصر التى تكونت داخل النجم البراق الذى كان يتبع الشمس ثم انفجر ، وتماسكت أطراف تلك الغازات والسحب وكونت شيئا أشبه بغلاف قرصى الشكل تركز على كثب من الشمس وأخذ يدور حولها ٠ ومعنى ذلك أن الأم الحقيقية للأرض ليست هى الشمس التى نراها اليوم ، وإنما هى نجم تفجر منذ القدم ولم نره ولم نعرف عنه شيئا (١٥) ٠

وعلى الرغم من أننا لسنا من هواة التأويل العلمى لآيات القرآن الكريم ، لكننا لا نستطيع إلا أن نستحضر على الفور إلى أذهاننا قول المولى عز وجل فى محكم تنزيله : " أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون " (١٦) ٠

والذى يستقرىء العديد من الكتابات التى تناولت موضوعنا الحالى . يستطيع أن يلاحظ بكل وضوح أن هناك تنازعا فى الرأى بصفة مستمرة بين " مؤمنين " و " ملحدين " . ومن الذين تناولوا هذه المسألة الأب " بيير تايار دوشاردان " فى كتاب مهم له صدر عام ١٩٣٨ بعنوان : " La phenomene humain " – الظاهرة الإنسانية – ، فقد رأى أن هناك – على المستوى العلمى – نزاعا لا زال مستمرا بين الماديين والمؤمنين بالتفسير الروحى ، بيين الغائيين والحتميين . ورغم انقضاء ما يزيد على قرن ونصف من الزمان ، فلا زال كل فريق منهما قابعا فى موقعه متمسكا بموقفه يكيل لمناوئه مبررات تمسكه بهذا الموقف (١٧).

ويدلى دو شاردان برأيه الخاص فى الموضوع فى هذا النزاع ، وهنا يبدو لنا موقفه التوليفى الواضح الذى يميز نسقه الفكرى كله ، فيقول بأن استمرار هذا النزاع لا يرجع فى الحقيقة إلى الصعوبة التى يجدها العقل البشرى فى التوفيق بين التناقضات الظاهرة فى الطبيعة ، كالانتظام والحرية ، أو الموت والخلود ، بقدر ما يرجع إلى صعوبة اتفاق هاتين المدرستين الفكريتين المتصارعتين على أرضية مشتركة . فالماديون من ناحية يصرون على تناول الأشياء كما تتكون فقط من أفعال خارجية تربط بينها علاقات عابرة ، بينما يصر أصحاب التفسير الروحى ، من ناحية أخرى ، على عدم تجاوز نوع من الاستبطان المتوحد لمكنون هذه الأفعال الصادرة عن الأشياء ، فكلا الفريقين يحارب على مستويين مختلفين ، ولذلك لايلتقيان ، إذ أن كلا منهما لا يرى من المشكلة سوى نصفها فقط .

والرأى عند دوشاردان أن كلا الرأيين بحاجة إلى الاتحاد والترابط ، وسوف يأتى عن قريب الوقت الذى يتحدان فيه فى نوع من الفينومينولوجيا أو الفيزياء العامة تأخذ فى اعتبارها الجانب الداخلى للأشياء وكذلك الجانب الخارجى للعالم سواء بسواء ، وبدون هذا سيكون من المستحيل علينا أن نغطى الظاهرة الكونية فى عموميتها وكليتها بتفسير واحد متماسك كذلك الذى يحاول العلم أن يقدمه (١٨).

ولقد حاول الباحثون منذ زمن طويل تقدير عمر الأرض ، وفى الماضى قدر عمر الأرض من ٤٠ مليونا إلى ١٠٠ مليون سنة ، ومنذ وقت قريب اعتمدت أكثر الطرق

الطرق دقة لتقدير عمر الأرض على النشاط الإشعاعى ، حيث أن المواد ذات النشاط الإشعاعى الموجودة فى المعادن داخل قشرة الكرة الأرضية تتفتت فى الطبيعة بسرعة ثابتة ، ومن ثم قدر عمر أقدم الصخور الموجودة بالقشرة الأرضية بحوالى ٢٠٠٠ مليون سنة (١٩) ٠

ولكننا حين نحسب عمر أقدم الصخور ، فإن هذا لا يعنى أننا قد حسبنا عمر الأرض نفسها منذ أن انفصلت عن النجم المشار إليه سابقا فى الكون ، والسبب فى هذا أن زمنا طويلا جدا يجب أن يكون قد مر كانت خلاله الأرض تتكون من كتلة ملتهبة من الغازات والسوائل تدور فى الفضاء مبتعدة عن الشمس ، ثم بدأت تبرد تدريجيا وابتدأت بعض الصخور تتكون فى قشرتها ، لذلك قدر حديثا علماء جيولوجيا ، عمر الأرض بحوالى ٣٠٠٠ مليون سنة ، وبعضهم بحوالى ٥٠٠٠ مليون سنة والبعض الآخر قال أن عمرها بين ٥٠٠٠ – ١٠٠٠ مليون سنة (٢٠) ٠

نشـــأة الحـــياة :

الحق أن مشكلة نشأة الحياة قد شغلت بال المفكرين والعلماء والفلاسفة فى شتى أقطار الأرض منذ الزمن القديم ، والمتتبع لجملة ما سيق فى هذا الشأن يجد أن فكرة " التولد الذاتى " أو نشأة الحياة من مادة غير حية abiogenesis ، هى فكرة قديمة لها أصول فى تعاليم مصر القديمة وبابل والهند ، فقد اعتقد المصريون القدماء بأن الضفادع والثعابين والجرذان والتماسيح تنشأ فجأة من طمى النيل ، كما اعتقد غيرهم بأن الديدان والذباب والخنافس تنشأ هى الأخرى من الأسمدة العضوية والقاذورات ، كما أن القمل ينشأ من عرق الإنسان (٢١) ٠

واعتقد فيلسوف الإغريق أرسطو ، وكثير من مفكرى الإغريق من قبله ومن بعده فى النشوء الذاتى بقوله إن جميع الكائنات الحية قد خلقت باتحاد مصدرين : المادة ، وهى عنصر غير فعال ، و " الشكل " ، أو الهيولى " ، وهو المصدر الفعال ٠ وعلى ذلك فالمادة فى حد ذاتها لا تملك الحياة ، ولكنها قد تؤويها وتعتبر لها مستقرا ٠ وقد كان لتعاليم أرسطو أثر كبير على تفكير الأجيال التى تعاقبت من بعده ٠

والواقع أن فكرة " التولد الذاتي " أو نشوء الحي من غير الحي كان الدافع القوي لها على مر العصور هو ظهور الديدان والحشرات في اللحم الميت وماء المطر ، بيد أن العالم " باستير " قضى على هذا الاعتقاد بالتجربة المحكمة بأن عقم الأواني التي تحتوي على ماء كانت تعيش فيه كائنات حية وعزلها عن الهواء ، وأثبت أن الميكروبات هي سبب التحلل والتعفن وليست نتيجة له (٢٢) ٠

وهناك نظريات وآراء حديثة سعت إلى تفسير نشأة الحياة ، منها ، على سبيل المثال نظرية " التطور البيوكيميائي للمادة " للعالم السوفيتي " سابقا " ألكساندر ايفانوفتش أوبارين A.I.Oparin الذي كان مديرا لمعهد باخ للكيمياء بموسكو ٠ والحياة في نظر أوبارين ، هي حالة من أحوال المادة ، وقد نشأت الحياة على الأرض من تطور المادة غير العضوية تحت الظروف الطبيعية التي سادت جو الأرض القديم ، وبعد أن هبطت درجة حرارتها إلى الحد الملائم لقيام الحياة ٠ وأولى هذه الخطوات وأعمقها أثرا في نظر أوبارين ، هي تكوين المواد العضوية البسيطة من المواد غير العضوية ، ثم تعقيد هذه المواد لتكوين أشباه البروتينات ، ثم نشأة التكوينات الغروانية ، فنشأة البروتوبلازم الحي (٢٣) ٠

كذلك قال أوبارين أن أبسط الكائنات الحية الأولى التي تكونت كانت بمثابة " قفزة " كبرى في تطور المادة من اللاحياة إلى الحياة ، وكان تركيب مثل هذه الكائنات أرقى بكثير من تركيب النقاط التجمعية ، بيد أنه في نفس الوقت أدنى بكثير من تركيب أبسط الكائنات المعروفة اليوم ، فقد كان يعوزها التركيب الخلوي المعروف ، وكانت تلك الكائنات الحية الأولى تعيش على جزئيات المواد العضوية الأخرى الموجودة في الماء ، وبمرور الوقت قلت تلك المواد العضوية ، وكان على هذه الكائنات البسيطة إما أن تندثر وتفنى ، أو تجد طريقة لبناء المواد العضوية من المواد غير العضوية أي من ثاني أكسيد الكربون والماء ، وامتصت بعض هذه الكائنات الطاقة من الشمس ، ومن ثم نشأت عملية البناء الضوئي ، ثم تميزت أبسط النباتات المعروفة وهي الطحالب الزرقاء ، وعلى هذه النباتات عاشت الكائنات الحيوانية الأولى التي ظهرت بعد ذلك (٢٤)٠

وكان كل من النباتات والحيوانات القديمة التى ظهرت فى فجر الحياة بسيطة التركيب وحيدة الخلية قريبة الشبه بالبكتريا والأميبا والطحالب وحيدة الخلية المعروفة اليوم . وقد استمرت الحياة على هذا الحال ملايين السنين الطويلة فى البحار والمحيطات الأولى .

والحق أنه من العسير علينا أن نوفى هذه القضية حقها من البحث والدراسة ، فآراء العلماء فيها كثيرة ومعقدة ولا تهمنا هنا تفصيلاتها ، فهى قد تخرجنا عن الموضوع ، ولكن كل ما يمكن قوله هنا هو أن حالة البحار البدائية من حيث درجة الحرارة والإشعاع والتركيب الكيميائى شجعت على تكوين وبقاء عدد كبير جدا من مركبات الكربون المختلفة ، ثم بواسطة عدد لا يحصى من اتحادات هذه المركبات بعضها ببعض (ليس بالصدفة كما يقول بعض العلماء وإنما هى " صدفة موجهة " من الخالق سبحانه وتعالى) تكونت أجهزة فيزيائية كيميائية لها طبيعة ثابتة نسبيا وتتميز بالصفات الأساسية للحياة (٢٥).

ويعتقد بعض العلماء أن هذه الكائنات البدائية أو الأولية كانت تشبه فى أولى مراحلها " الجين " (والجين هو الذى يحمل الصفات الوراثية ويوجد على الكروموزومات داخل " النواة " فى خلايا جميع الكائنات الحية) ، ثم مجموعة من الجينات ، أى يمكن اعتبارها كروموزوما يعيش معيشة مستقلة ، بينما يعتقد علماء آخرون أنه يمكن مقارنتها ب " فيروس " يعيش معيشة حرة . وعلى أية حال فكل ما يمكن تأكيده أن أول الأشياء الحية التى ظهرت على الأرض لم تظهر على هيئة خلايا وإنما بصورة أشياء أبسط من الخلايا بكثير يمكن تسميتها " جزئيات حية " ، بل يمكننا القول بأن التقدم من مرحلة الجزئى الحى إلى مرحلة الخلية الواحدة (مثل حيوان الأميبا) يساوى على الأقل التقدم من مرحلة الأميبا إلى الإنسان (٢٦).

ذلك أنه عند الوصول إلى مرحلة تكون الحيوانات الأولية وحيدة الخلية أصبح فى مقدور الخلايا أن تتجمع فى مجموعات ذات خلايا متشابهة ، ثم تحولت بعد ذلك إلى أنسجة ذات وظائف متعددة كما هو الحال فى الحيوانات الراقية . وهذه النظرية لنشأة الحياة التى يطلق عليها النظريية الطبيعية ، تؤيدها الدراسات الحديثة للفيروسات ،

وهى كائنات دقيقة لا يمكن رؤيتها بالمجهر الضوئى العادى ، ولكن من الممكن رؤية صورها بالمجهر الإلكترونى وفى مقدورها المرور من خلال المرشحات التى لا تسمح بمرور معظم البكتريا ٠ وتعتبر الفيروسات نقطة اتصال بين المادة الحية والجماد ، فهى لا تدب فيها الحياة إلا عند وجودها داخل خلايا الكائن الحى حيث تسلك مسلك الكائنات الحية ، وفى نفس الوقت فإن عديدا منها أمكن الحصول عليها على هيئة بلورات مثل المواد غير العضوية تماما ٠ وإذا أمكن الحصول على فيروس به خصائص الحياة وهو خارج الخلايا النباتية أو الحيوانية ، فإن مثل هذا الفيروس فى مثل هذه الحالة يشبه من وجوه كثيرة مرحلة مبكرة لنشأة الحياة على الأرض (٢٧) ٠

وإذا كان هناك بعض علماء الحياة والكيمياء الحيوية يعتقدون أن الحياة إنما ظهرت تحت الظروف الملائمة لذلك كنتيجة طبيعية حتمية تماما كما يتكون الثلج مثلا من الماء عندما يبرد هذا تحت درجة الصفر والضغط العادى ، فإن هناك علماء غيرهم ليسوا أقل ثقة ولا أقل تبحّرا منهم فى علوم الحياة لا يميلون إلى هذا الرأى ، وعندهم براهينهم ينفون بها إمكان ظهور الحياة بهذا الشكل تحت قوانين المصادفة والاحتمال الإحصائى التى تهيمن على كل شئ يحدث فى هذا الكون (٢٨) ٠

وهؤلاء العلماء يمثلون أقطاب المدرسة الثانية لنظريات الأصل الأرضى لظهور الحياة ، وهى أن الحياة نشأت على الأرض ومن مادتها ، ولكنه ، لولا تدخل قوى خارقة للطبيعة ولقوانين المصادفة أرادت هذه النشأة ، فعينت السبيل إليها وجعلتها تندفع فى الطريق الذى سلكته من التطور حتى الآن ، لما نشأت هذه الحياة من تلقاء نفسها ، ويدللون على ذلك بأن قوانين الاحتمال الرياضى لحدوث هذه الظاهرة لا تفسر إمكان ظهورها بل على العكس تدحضه تماما ٠

وإذا كنا نجد أنفسنا أمام ضرورة التوقف بعض الوقت أمام البيولوجيا ، ونحن نتلمس بدايات حركة التاريخ البشرى ، فقد علق " ديورانت " على ذلك بالتأكيد على أن التاريخ فى واقع الأمر هو جزء من البيولوجيا ، فحياة الإنسان قطعة من التقلبات التى تصيب الكائنات الحية على الأرض والبحر ٠ وإذا نحن تجولنا ذات يوم صيفى فى الغابات لترامت إلى أسماعنا أو أبصارنا – أحيانا – حركة مئات الأنواع من الأشياء

التى تطير وتقفز وتزحف وتحبو وتخفر . وعند ظهورنا تعدو الحيوانات المجفلة بعيدا ، وتتناثر الطيور ، وتتفرق الأسماك فى الغدير (٢٩).

وبتأمل بسيط فى هذا الموقف ندرك أننا ننتمى إلى أقلية خطرة على هذا الكوكب غير المتحيز ، ونشعر للحظة – مثلما تفعل هذه الطائفة المتنوعة من السكان المتأقلمين – بأننا متطفلون عابرون على موطنهم الطبيعى ، وعندئذ تسقط جميع تواريخ الإنسان ومنجزاته بتواضع داخل تاريخ الحياة المتعددة الأشكال وتطورها ، فكل ما نملك من تنافس اقتصادى وكفاح فى سبيل شركاء حياتنا ، وجوع ، وحب ، وحزن ، وحرب ، له مثيل فى مظاهر السعى والتزاوج والكفاح والعناء التى تختفى تحت هذه الأشجار أو الأوراق المتساقطة أو فى المياه أو فوق الأغصان .

إن معنى هذا أن تكون قوانين البيولوجيا هى الدروس الأساسية للتاريخ ، فنحن رهن عمليات الارتقاء ومحاولاته ، والصراع من أجل الوجود وبقاء الأصلح فى الوجود . وإذا بدا أن بعضنا يفر من الكفاح أو المحاولات ، فما ذلك إلا لأن جماعتنا تحمينا ، ولكن هذه الجماعة ذاتها لابد أن تمر باختبارات البقاء(٣٠).

نشأة الإنسان :

لا نعرف إلا النزر اليسير عن الإنسان الحقيقى الأول ، ذلك أننا لم نر قط صورته ، فنحن نصادف أحيانا فى أعمق طبقات الصلصال فى تربة قديمة بعض قطع عظام هذا الإنسان مدفونة جنبا إلى جنب مع حطام هياكل الحيوانات الأخرى التى اختفت عن وجه الأرض منذ عهد سحيق . ولقد تناول علماء الإنسان – وهم الذين كرسوا حياتهم لدراسته من حيث اعتبروه عضوا فى المملكة الحيوانية – هذه العظام ، واستطاعوا أن يعيدوا بناء هياكل أسلافنا على وجه لا بأس به من الدقة (٣١).

ويقسم العلماء الجيولوجيون ماضى الأرض الغابر إلى دهور جيولوجية ، ثم يقسمون هذه الدهور إلى أجزاء أصغر منها يسمونها عصورا . ويتميز كل من تلك

العصور بهيمنة أشكال معينة من الحياة فيه ٠ وفى بدء آخر دهر منها ، وهو الدهر السينوزى ، ظهرت الحيوانات اللبونة فى الطليعة ، ولكنها كانت ذات أهمية ثانوية جدا ٠ ويقسم الدهر السينوزى إلى العصور التالية (٣٢): الأيوسين والأوليجوسين والميوسين والبليوسين والبلايستوسين ، ثم العصر الحديث ، وهو الذى نعيش فيه الآن ٠

أما رتبة الرئيسيات أو الحيوانات العليا فقد برزت فى عصر الأيوسين ، وما أن بدأ عصر الأوليجوسين حتى كانت هذه الحيوانات قد تشعبت إلى عدد من الفصائل المختلفة ٠ وقد اكتشفت أحافير أحد القردة العليا من العصر الأوليجوسينى المتأخر وهو المعروف باسم بروبليوبثيكس Propliopithecus ٠ ولا نعرف ما الذى حدث لنسل هذا القرد فى أوائل العصر الأوليجوسينى وأواخر العصر الميوسينى ، ولكن وجد العلماء مجموعة واسعة متسلسلة من الأحافير من أواسط العصر الميوسينى ، تثبت أنه لم يأت ذلك العهد حتى كانت قردة الأنثروبويد كثيرة العدد ٠

ويقسم علماء الحيوان الثدييات إلى عدد من المجموعات الأساسية التى تعرف باسم " الرتب " ، وتعرف الرتبة التى ينتمى إليها الإنسان هو وأقرب الأنواع الأخرى إليه ، أى القردة العليا والنسانيس والقردة شبه البشرية وأسلافهم باسم " الرئيسيات Primates " ، وتنقسم هذه الرتب بدورها ثانية إلى أقسام فرعية ، فالقردة العليا الموجودة الآن مثل الشمبانزى والغوريللا والسعلاة Orangutan تؤلف عائلة واحدة تعرف باسم " القرديات Pongidae " (٣٣) ، ويدخل هذه العائلة أيضا أسلافها المنقرضون ، ولذا فإن لهذه العائلة بعدا زمنيا ٠ ومن ناحية أخرى فإن الجنس البشرى بكل فروعه الموجودة حاليا أو التى انقرضت يؤلف عائلة أخرى تعرف باسم "الآدميات Hominidae " ٠ ويطلق مصطلح Hominids ، ليعنى ما يسميه العلماء ب " أشباه البشر " (٣٤) ٠

ومما يدعو إلى خيبة الأمل قلة الأحافير التى نستدل بها على أسلاف الإنسان الأول ، ومن المحتمل جدا أنه لم ينقب حتى الآن عن الأحافير فى الأماكن التى عاشوا فيها ،

ولم تكتشف إلا أحفورة واحدة تنمتى إلى العصر الميوسينى ، وهى إنسان جاوه المدعو" القرد الإنسانى المنتصب " (٣٥) .

وصاحب الكشف عما سمى بإنسان جاوه " أوجين دبواE.Dubois "، حيث عثر أولا على جزء من جمجمة أكبر من أن تكون جمجمة قرد وأصغر من أن تكون جمجمة إنسان ، وفى العام التالى عثر على عظام فخذ إنسان ، وقوبل رأى دبوا بأن هذه الأحفورة تفسر الحلقة المفقودة بين القردة العليا والإنسان بقدر غير قليل من التشكيك ، فهل الجمجمة والفخذ لشخص واحد ، خاصة وقد وجدا فى مكانين مختلفين ؟ وإذا كانت الجمجمة لإنسان فلربما للإنسان أبله (٣٦) .

وكان " إنسان الصين " هو النوع البدائى الثانى ذو الأهمية العظيمة ، وأول من قال بوجود هذا الإنسان " دافيد بلاك D.Black " عام ١٩٢٧، وقد كشفت حفريات أخرى تالية أيدت ما ذهب إليه ، وبذلك أصبحت المعلومات عن هذا الإنسان أكثر وفرة من المعلومات عن أى إنسان حفرى آخر عدا إنسان نياندرتال ، وتدل البقايا الحفرية لإنسان الصين (أو إنسان بكين) على بشريته واعتدال قامته (٣٧) .

وأقدم بقايا للشكل الإنسانى الحقيقى هى ولا ريب بقايا إنسان " النياندرتال " وهو ينتمى إلى جنس أو نوع يبدو أنه سكن الجزء الأكبر من أوربا خلال أواسط العصر البلايستوسينى وأواخره (٣٨) .وقد تم العثور على بقايا أفراد عديدين من هذه الفئة . وهذه نقطة ففى تاريخ البشرية نقف عندها ونحن واثقون من أحكامنا ، إذ توافرت لدينا هياكل عظمية كاملة نبنى عليها استنتاجاتنا . ومع أن إنسان النياندرتال كان أكثر شبها بالقرد من أى من الأجناس البشرية الموجودة ، إلا أنه لا مجال للشك فى أنه كان إنسانا كامل التطور ، وكان يعيش فى أوربا فى فترة حديثة نسبيا ، ما بين سنة ١٠٠,٠٠٠ وسنة ٥٠,٠٠٠ ق.م تقريبا (٣٩) .

وهكذا يمتاز العصر الرابع من زمن الحياة الحديثة ، البلايستوسينى ، بتطور الأنواع البشرية وظهور الإنسان الذى ننتمى إليه والذى يطلق عليه اسم الإنسان العاقل ، وهذا هو السبب الذى من أجله يفرده الجيولوجيون بعناية خاصة ويطلقون عليه اسم

الزمن الرابع أو الرباعى ، كما يسمون العصر السابق له " البلايوسين " اسم الزمن الثلاثى (٤٠)٠والمعروف أن عصر البلايستوسين بدأ منذ نحو مليونى سنة (ومنذ وقت قريب فقط بدأ العلماء يعتبرون أن مليونا من السنين تقدير كاف لبداية هذا العصر) ٠ أما عصر البلايوسين ، أو العهد الحديث المتأخر الذى بدأ منذ أحد عشر أو إثنى عشر مليونا من السنين ، بينما بدأ عصر الميوسين أو العصر الحديث الأوسط الذى قبله بما يزيد على خمسة وعشرين مليونا من السنين ٠

فى هذا العصر (البلايستوسينى) تطورت الإنسانية وسارت فى مدارج حضارتها الأولى وانبثق فيه الفكر الإنسانى الأول بانبثاق الإنسانية نفسها ، وتفرد الإنسان بصفاته الجسمانية والعقلية الخاصة فى مكان خاص من شجرة الأحياء٠

وإذا كان هذا العصر يتميز بتطور الإنسانية الحالى ، فإنه أيضا يمتاز بتطور المسرح الذى نلعب فيه الإنسانية الحالية دورها فى الحياة أو بعبارة أخرى تطور البيئة الجغرافية التى كانت معالم تضاريسها الكبرى قد استقرت منذ عصر الميوسين ، وقد تحددت فى عصر البلايستوسين العلاقة بين اليابس والماء على الشكل الذى نعهده الآن ، كما تطور فيه المناخ والنبات تطورات عديدة حتى استقر إلى الوضع الذى نعرفه٠

وصفوة القول أن السلف الأقدم للنوع الإنسانى كان ثديبا سمج المنظر عظيم القبح ٠ كان صغيرا جدا ، بل أصغر بكثير من الأناسى فى الوقت الحاضر : لوحته حرارة الشمس ، وهواء الشتاء البارد ، فغدا جلده أسمر اللون داكنا ، وكان رأسه ومعظم جسده وذراعاه وأرجله مغطاة بشعر طويل خشن ، وكانت أصابعه رفيعة جدا ، ولكنها قوية ، مما جعل يديه أشبه شىء بأيدى القردة ، وكانت جبهته منخفضة وفكره أشبه بفك الحيوان المفترس الذى يعتمد على أسنانه اعتمادنا على الشوكة والسكين ، وكان لا يتخذ له لباسا ، ولم ير نارا إلا لهب البراكين الثائرة التى ملأت الأرض بدخانها وما تقذفه من حمم (٤١)٠

وكان يعيش فى ظلام الغابات المترامية الأطرف الرطبة كما يعيش اليوم أقزام إفريقية ٠ وكان إذا عضه الجوع بنابه أكل أوراق الشجر وجذور النباتات ، وانتزع

البيض من براثن الطير الغاضب يقدمه لصغاره ٠ ثم أنه قد يستطيع – بعد طول صبر وأناة – أن يصيد عصفورا أو كلبا بريا صغيرا ، أو يكون صيده فأرا من الفئران ٠ وكان يلتهم صيده هذا نيئا لأنه لم يكن قد أدرك بعد أن الطبخ يجعل الطعام أشهى مذاقا ٠

وكان هذا الإنسان البدائى يقضى يومه متجولا فى طلب الطعام ، فإذا ما أرخى الليل سدوله أخفى زوجه وصغاره فى جوف شجرة أو خلف بعض الصخور الكبيرة ، فقد كان يحيط به من جميع الجوانب حيوانات مفترسة تبدأ فى التجول هنا وهناك إذا ما جن الليل باحثة عن شىء تأكله هى وإناثها وصغارها ، وكانت تشتهى لحم الإنسان ٠ وكان كل ما فى العالم فى ذلك الوقت إما آكلا أو مأكولا ، فقد كانت الحياة خالية من كل أسباب البهجة والسرور إذ كانت مليئة بالمخاوف والشقاء (٤٢) ٠

وهكذا يكون من الثابت أن أسلافنا عاشوا فى أوائل هذا العصر معيشة لا يحسدون عليها ، وربما كان الباعث على تطور الإنسان هو هجوم الجليد فجأة وما صاحبه من تغير عنيف فى ظروف المناخ من قصف للرعد ووميض متصل للبرق ، كما شاهد الإنسان الأول كتل الجليد الضخمة تتساقط من أعالى الجبال إلى الوديان مكتسحة أماما الأشجار وكتل الصخور الضخمة التى تدفع بها الثلاجات المنهارة إلى مسافات كبيرة إلى الجنوب ٠ولا شك فى أن جماعات كثيرة من هذا الإنسان البدائى قد هلكت بفعل الطبيعة القاسية ٠ وكانت قسوة الطبيعة فى حد ذاتها حافزا لهذا الإنسان الأول على الهروب إلى الكهوف مدفوعا بحب البقاء أو للاحتماء خلف الصخور فى الأماكن الواقعة فى مهب الرياح ، كما هرعت الحيوانات البرية هى الأخرى من مكانها نحو الجنوب سعيا وراء القوت ، وكانت النباتات هى الأخرى قد جف معظمها بفعل الصقيع (٤٣) ٠

ثم ظهر الإنسان الحديث ، وهو نوع بشرى قائم بذاته يشمل كل الأجناس الحالية ، لا فرق فى ذلك بين الشقر الذين يسكنون اسكتلندة واسكنديناوة ، وبين السود الذين يسكنون غابات إفريقية ٠ لكن ما موقعه على الخريطة الزمنية ؟

يقسم الباحثون العصر الحجرى القديم إلى أسفل وأوسط وأعلى ، ويقولون أن الأعلى لا يرجع إلا لخمسين ألف سنة مضت ، وأما الأسفل والأوسط فقد شغلا معظم المليون سنة التى استغرقها زمن البليستوسين الجيولوجى ٠ ويمكن أن نضيف إلى هذا أن معظم علماء الإنسان يضعون الإنسان الحديث فى العصر الحجرى القديم الأعلى ، أى أن ظهور هذا الإنسان الأخير لا يرجع لأكثر من خمسين ألف سنة ٠ ومع أن هذا تقسيم أثرى ، بمعنى أنه انبنى على الصلة بين الأدوات التى كان يصنعها الإنسان وبين بقايا هياكله إلا أن الأدلة الجيولوجية تعزز هذا التقسيم ، فكل عظام الإنسان القديم كشفت فى طبقات لا ترجع إلى أحدث من منتصف الدور الجليدى الأخير ، أى لا ترجع إلى أحدث من خمسين ألف سنة ، كما أنه لم تكتشف هياكل للإنسان الحديث ترجع إلى أبعد من خمسين الف سنة ، حتى ولو كانت فى حالة حفرية ٠ ومن هنا كان الانتقال من الإنسان القديم إلى الحديث متفقا مع الانتقال من العصر الحجرى القديم الأسفل إلى الحجرى القديم الأعلى (٤٤) ٠

وأما كيف شقت الأصناف البشرية الحالية طريقها إلى النور ، فهذه مسألة معقدة وشائكة ، فضلا عن ندرة المعلومات المتوافرة التى تتيح لنا أن نصل إلى رأى يمكن الاطمئنان إليه ٠ ومن المحتمل أن أسلافنا ، حتى الأولون منهم ، كانوا مزودين بالأدوات والنار التى مكنتهم من العيش فى بيئات كثيرة مختلفة ٠ ومن المؤكد أنه لم تتوافر لديهم أية ممتلكات غير قابلة للنقل قد تربطهم بمكان واحد معين ، وينزع كل نوع إلى التكاثر بنسبة الموارد الغذائية المتوافرة ٠ وفى حالة الحيوانات التى تميل إلى التجمع فى قطعان ، تكون هذه الموارد محددة بحيث تتوقف على الإقليم الذى يشغله القطيع وهو يتحرك بمجموع أفراده ٠ ومن المحتمل جدا ، كما يبدو ، أن الإنسان الأول كان يميل إلى التجمع ، مثله فى ذلك مثل الإنسان الحديث ، وعندما أصبحت الزمرة البشرية أكبر من أن يتسع لها الإقليم الذى شغلته ، انشطرت إلى فريقين ، انتقل أحدهما إلى إقليم جديد ٠٠ وهكذا (٤٥)٠

التوجـه التطـورى :

يتحدث كثيرون عن " النظريـة " التطوريـة ، أو " الاتجـاه " التطـورى وكـأن هنـاك نظرية واحدة أو اتجاها واحدا ، بينما واقع الأمر يؤكد أن هناك " نظريات " و " اتجاهات " بينها تباين واختلاف ، لكنها ، جميعا ، على وجه التقريب تتفق فى مبادىء أساسية ، مما جعلنا نفضل مصطلح " التوجه التطورى " تعبـيرا عن الخيـط الأساسـى الـذى يربـط بين نظريات واتجاهات التطور فى تفسيرها لتطور الكائنات الحيـة علـى وجـه العمـوم ، والإنسان على وجه الخصوص ، حيث هو موضوعنا الأساسى ٠

وفكرة التطور فى أبسط صورها تعنى أن الوضع السائد فـى أى نسـق مـن الأنسـاق إنما نشأ نتيجة لتغير دائـم ومستمر مـن حالـة أوليـة بسـيطة أخـذت ترتقـى خـلال عدة مراحل إلى أن أصبح على ما هو عليه ٠ وهـذا معنـاه أن فكـرة التطـور ترتبـط ارتباطـا قويا بمبدأ التقدم ، وبالتـالى فـإن التغـير كـان دائمـا تغيرا هادفـا يتوخـى الوصـول إلـى مستويات أعلـى وأرقـى ٠ ويصـدق ذلـك علـى التقدم العضـوى والتقـدم الاجتمـاعى ، فالإنسان نفسه هو أرقى الكائنات العضوية الحية ، كما أن حياته الاجتماعية تتميز بعـدد من النظم الراقية التى لا يوجد لها مثيل عند الحيوانات العليا الأخرى ، فالكائنات الحيـة المعقـدة تطـورت مـن الصـور والأشـكال البسـيطة للغايـة واكتسـبت تعقدهـا وتفاصيلهـا وتنوعها أثناء مرورها بمراحل التطور المتتالية إلـى أن ظهـر الإنسـان العـاقل Homo Sapiens الـذى يعتـبر قمـة التطـور البيولوجـى والعقلـى ، كمـا أن المجتمـع والثقافـة والنظم الاجتماعية تطورت هى الأخرى بالمثل من مراحل مختلفة أو بدائية إلـى مراحـل أكـثر فـأكثر تقدمـا ، إلـى أن ظهـر مجتمـع القـرن العشـرين بثقافتـه ونظمـه وأوضاعـه الصناعية الراقية التى تمثل أيضا قمة التنظيم الاجتماعى (٤٦)٠

ومن الكتب المهمة التى أرخت للتوجه التطورى ، كتاب عن التطور وضعـه " جـون ٠س٠جرين J.C.Greene الذى كان أستاذ للتـاريخ بجامعـة " أيـواIowa ، وعنـوان الكتـاب : " مـوت آدم The Death of Adam " ، ووضـع عنوانـا فرعيـا نصـه : Evolution and its Impact.Western Thought ، أى أثر التطور علـى الفكـر الغربى (٤٧) ، فلقد أكدت مكتشفات علم التاريخ مجموعة من الحقائق الجديدة فأثـارت عددا من المسائل التى لا تحـل فـى حـدود أفكارنـا ومعتقداتنـا فزعزعـت الإيمـان بتقـاليد

فكرية ثابتة اعتاد عليها الإنسان وقلبت الكثير من الأفكار الجاهزة التى التزم بها رأسا على عقب بظهور وإعلان بعض القضايا الجديدة التى توصلت إليها سائر العلوم الطبيعية والبيولوجية ، فازدادت حدة العلم فى المجتمع الأوربى بينما ضعفت سطوة الدين وخرج الإنسان هناك من جنة الإيمان الدينى إلى دنيا العالم الخارجي كى ينشغل العقل بالطبيعة والطبيعيات ، فاضطربت تلك العلاقات التى كانت تقوم على نحو استاتيكى بين أضلاع المثلث الخالد الذى يجمع بين الإنسان والله والطبيعة .

ويركز كتاب " موت آدم " على هذا الصراع الهائل الذى حمى وطيسه بين سائر الأفكار الجديدة من ناحية ، والمعتقدات والأنظار القديمة من ناحية أخرى ، ويدور مدار هذه الأفكار داخل إطار الفكرة التطورية وحول التطور العضوى والبيولوجى (٤٨).

ولعل أشهر الجهود على طريق التطورية ، تلك الجهود التى قام بها عالم الطبيعة والأحياء " تشارلز دارون C.Darwin " (١٨٠٩-١٨٨٣) ، حيث نشر عام ١٨٥٨ كتابا يعد ثورة فكرية وعلمية هامة تأثرت بها دراسات الإنسان والمجتمع على السواء ، وكان عنوان هذا الكتاب " أصل الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعى أوحفظ السلالات المفضلة فى الصراع على الحياة : The Origin of Spesies by Means of Natural Selection or the or the Preservation of Favoured Races in the Struggle For Life " . وبعكس العلماء السابقين الذين اكتفوا بملاحظة التطور أو الإشارة إليه ، فإن دارون قام بشرح الأسس الشهيرة للانتخاب الطبيعى (٤٩) .

أما هذه الأسس التى قامت عليها فكرة دارون ، فتتلخص فيما يلى (٥٠) :

- توجد فى الطبيعة اختلافات فى الأنواع والأفراد .
- عن طريق النسبة الهندسية لمعدل زيادة الأفراد التى تحدث نتيجة للتكاثر فإن عدد أى نوع يجنح نحو الزيادة المطردة ، ولكن العدد النهائى فى الواقع يبقى ثابتا بسبب موت العديد من الأفراد عن طريق الأعداء والمرض وقلة الغذاء وغيرها من عوامل الفناء .

- فى ظل هذه الظروف يحدث تنازع للبقاء أو صراع من أجل الحياة بين الأفراد تكون نتيجته القضاء على الأفراد غير الصالحين للبقاء ، وبقاء الأفراد الصالحة ، وهذه الأفراد الصالحة تظل تتكاثر .

- نتيجة لتنازع البقاء أو الصراع من أجل الحياة تسود عملية الانتخاب الطبيعى وتكون من نتيجتها بقاء الأصلح .

وفى إطار هذه النظرية تراءى لدارون أن الإنسان لابد وأن يكون قد بقى طوال تاريخه العضوى خاضعا لنفس السنن التى خضعت لها جميع الكائنات الحية . وبعد أن نشر دارون كتابه أصل الأنواع وقبل الطبيعيون نظريته فى جملتها ، فكر فى أن يطبق هذه النظرية على الإنسان ، فانكب على المعلومات التى كان قد جمعها والحقائق التى كان قد توصل إليها ، يرتبها ويوازن بينها ويستخلص منها النتائج التى يثبت بها أن الإنسان قد نشأ من صورة دنيا هى أقرب إلى القردة العليا ، منها إلى صورة أخرى من صور الحيوانات الأخرى . وليس معنى هذا أن الإنسان ينحدر أصلا من القردة العليا ولكنه يشترك معها فى أسلاف بعيدة تنتمى إلى رتبة الرئيسيات ، كما أسلفنا (٥١).

لكن الغريب أن لدارون رأى قديم كتبه فى نوتة خاصة يقول (٥٢) : " إننى لن أسمح بذلك ، إذ توجد فجوة كبيرة بين الإنسان وباقى الحيوانات تدل على أن الإنسان ينبثق من أصل مختلف عن الأصل الذى انبثقت منه الحيوانات الأخرى " . ولقد احتفظ لنفسه بهذا الرأى لمدة أكثر من ثلاثين عاما ، ولكنه بعد أن ذاعت شهرته عاد يقول أن وجود الإنسان لا يستثنى من أن يكون هو أيضا نتيجة عملية تغيرات تطورية .

وأراد دارون بعد ذلك إثبات أن الفرق فى القوى العقلية بين الإنسان والحيوانات العليا ، ولو أنه كبير ، إلا أن حجم هذا الاختلاف يكمن فى درجته وليس فى نوعيته . كما وجد أن بذور العاطفة والضمير كامنة أيضا فى بعض الحيوانات ، ولو أن الهوة لا تزال شاسعة بين ضمير الحيوان وضمير الإنسان . وقال دارون أن الدلائل تشير إلى أن التطور نحو الإنسان قد تناول قدراته العقلية وأخلاقياته عن طريق الانتخاب الطبيعى . ولو أن دارون رأى فى الوقت نفسه أن الخطوة الأولى التى خطاها الإنسان المتوحش ليصبح متحضرا أمر يصعب حله (٥٣).

ولقد يحق لنا أن نناقش هنا فكرة التطور فى ذاتها ، فقانون داروين الذى يمثل أصل الدعوى التطورية ، هو قانون مشكوك فيه من الناحية المنهجية البحتة ، فليس للتطور قانون ، حيث أن قانون التطور ليس قانونا علميا ، وإنما هو " فرض ميتافيزيقى " يفترض أصلا واحدا تنبع منه سائر أشكال الحياة (٥٤) . ويغلب على هذا الفرض التطورى طابع القضية التاريخية الجزئية أو المخصوصة ، مثل قولنا " يشترك تشارلز داروين وفرانسيس جالتون فى جد واحد " ، فتلك قضية تاريخية لا تستند إلى قانون ، ومن ثم فإن التطور هو فرض نظرى أو قضية تاريخية ، والقضايا التاريخية ، غالبا ، ليست قضايا كلية وعامة ، وإنما هى قضايا مخصوصة ، ومن الناحية المنهجية الخالصة فإن أى قانون نصوغه فلابد من اختباره أولا فى حالات جديدة ، ولكننا لا نستطيع أن نختبر هذا الفرض التطورى الكلى ، إذا كان قد قضى علينا بالاقتصار إلى الأبد على مشاهدة حالة جزئية واحدة ، كما يصعب علينا التنبوء بمستقبل تطور هذه الحالة الجزئية الواحدة .

وهناك بعد آخر يشير إليه بعض الباحثين (٥٥) وهو أن الحقيقة العلمية أمر تأكدت صحته ولا يحتمل الشك ، فقانون الجاذبية الأرضية ، والضغط الجوى ، وقاعدة أرشميدس ، وتركيب العين أو الأذن ، أو الخلية وغيرها ، حقائق علمية يمكن إثباتها والتأكد من صحتها إما عن طريق التجربة فى المعمل أو عن طريق مشاهدتها بعد تشريحها ورؤية مكوناتها بالعين المجردة ، أو من خلال الميكرسكوب الضوئى أو الميكرسكوب الإلكترونى . أما النظرية العلمية فأمر غير مؤكد ، مبنى على فروض قد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة ، وهى فى هذا تشبه إلى حد كبير النظرية الفلسفية التى تقوم على فروض تختلف فيها وجهات النظر . وإذا تأكدت لدى العلماء حقيقة ما تناولته النظرية الفلسفية من أمور ، فإن تلك النظرية تنتقل من مجال الفلسفة لتصبح حقيقة علمية ثابتة ، ومن هنا كان قول الفيلسوف العالم " برتراند رسل " معرفا للفلسفة بأنها " الجانب المظلم من العلم " ، أى الشىء الذى لا يضيئه نور اليقين ، وكلما اتسعت رقعة العلم انكمشت رقعة الفلسفة .

ولقد تبدلت أفكار داروين ذاتها عن الدين بتقدمه فى السن ، فلقد قبل فى شبابه فكرة الخلق الخاص بغير تساؤل ، ففى كتابه " حياته ورسائله Life and Letters " ، عبر

عن اعتقاده بأن " الإنسان سيكون فى المستقبل البعيد مخلوقا أفضل وأكمل بكثير مما هو الآن " ، ثم يضيف إلى ذلك قائلا (٥٦) :

" إن ثمة مصدرا آخر للاعتقاد فى وجود الله يرتبط بالعقل ، وله فى نظرى أهمية أكبر بكثير من المصادر المتعلقة بالمشاعر والأحاسيس ٠ وهذا المصدر يأتى من الصعوبة البالغة أو بالأحرى استحالة تخيل هذا الكون الفسيح الرائع – الذى يشمل الإنسان بقدرته على النظر إلى الماضى البعيد وإلى المستقبل البعيد أيضا – على أنه ظهر نتيجة للمصادفة البحتة أو نتيجة للضرورة – وحين أفكر بهذه الطريقة أشعر بأنه لابد لى من البحث عن علة أولى لها عقل بصير يشبه إلى حد ما عقل الإنسان ٠ وهذا يعطينى الحق فى أن أوصف بأننى مؤمن بالله ٠وقد كانت هذه النتيجة واضحة فى ذهنى بقدر ما أتذكر ، فى الوقت الذى كتبت فيه " أصل الأنواع " ٠ومنذ ذلك الحين أخذت هذه الفكرة تضعف بالتدريج ، ولكن مع شىء من التقلب والتراوح ٠ ٠"

وقد أكد " رالف لينتون " أن الاعتقاد بالتطور لا يتنافى أبدا مع الاعتقاد بوجود عقل إلهى خلاق ، وما دراسة التطور إلا دراسة لآلية الخلق مع الاعتراف فى الوقت نفسه باستمرار عمليته ٠ فالعالم المختص بالتطور يستطيع أن يحدد الخطوات التى بواسطتها برزت أشكال جديدة من الحياة إلى الوجود ، ولكنه سيظل يجهل القوة المسئولة عن هذه التغيرات وعن اتجاهاتها ٠ وهو يستطيع أن يبرهن على أن الحياة ، التى يجهل مصدرها ، قد اتخذت على مر الأيام أشكالا أكثر تركيبا وأشد تعقيدا من سابقتها ، ولكنه لا يستطيع أن يعلمنا لماذا اتخذت الحياة هذه الأشكال ، بل يعجز حتى عن التنبوء بأى قدر من الدقة ، عن نوعية الأشكال التى ستتخذها الحياة المتطورة (٥٧) ٠

ومع ما وجه من نقود كثيرة لنظرية الانتقاء الطبيعى لداروين ، فقد رأى معظم علماء البيولوجيا بأنه أفضل تفسير عام للتطور ، فلقد استطاعت هذه النظرية الوقوف أمام اختبار الزمن ، لكنها بالطبع يجب أن تفسر فى ضوء الاكتشافات الحديثة فى الفروع المختلفة من البيولوجيا خصوصا علم الخلية وعلم الوراثة ٠ ولفترة من الزمن عرف هذا التفسير الحديث المبنى على المعلومات الحديثة بالداروينية الجديدة ٠ وتعتمد الداروينية الجديدة على مفاهيم : الطفرة ، والاختلاف ، ومجموعة الأفراد ، والتوارث ، والعزلة ، والنوع ، وكل هذه الموضوعات كانت غامضة فى عصر داروين ٠

ولقد استعمل اسم الداروينية الجديدة لأول مرة لآراء العالم الألماني " فايزمان Weismann "، الذى نشر من عام ١٨٦٨ إلى عام ١٨٧٦ مجموعة من الأبحاث عن توارث الاختلاف ، ثم اقترح بعض العلماء ، خصوصا العالم الأمريكى " سيمبوسون Simpson " عام ١٩٤٩ و ١٩٦٠ ، عدم استعمال هذه التسمية لتجنب الارتياك ٠ وعموما استبدل باسم الداروينية الجديدة فى السنوات الأخيرة اسم النظرية التركيبية الحديثة (٥٨) ٠

والنظرية التركيبية الحديثة للتطور ليست من عمل عالم واحد ، كما أنها لم تنشأ فى صورة كاملة وإنما تطورت ببطء خلال عقود تالية وظلت فى اطراد ٠ ولقد اشترك فى وضعها – مستقلين – علماء كثيرون فى علم البولوجيا فى التخصصات المختلفة ٠

وفى عام ١٩٥٨ نشر جراهام كانون الذى كان رئيسا لقسم علم الحيوان بجامعة مانشستر بانجلترا كتابا بعنوان " " تطور الأشياء الحية The evolution of Living things " وترجمه إلى العربية د٠عبد الحافظ حلمى بعنوان " نظرات فى تطور الكائنات الحية " ٠ ورأى كانون أن كتاب أصل الأنواع لداروين يتضمن غلطة وبه نقص ، فالعنوان يشير إلى " أصل الأنواع " ، ولكن داروين لم يقصد " الأصل " أى النشوء ، وإنما قصد تأصيل الأنواع وتوطد وجودها بعد نشوئها فعلا من قبل ٠ ثم هناك ما هو أسوأ من ذلك ، وهو أنه لم يعرف النوع تعريفا محددا (٥٩)٠

وأشار كانون إلى أجزاء الفم فى الحشرات ، أكبر المجموعات فى عالم الحيوان ، إن لم تكن أكبرها على الإطلاق ، وقال إن الزعم بأن هذه الأطراف قد تغايرت بعضها عن بعض ، ومن تطور واحدة منها مستقلا عن الآخرين ، ومع ذلك أنتج ذلك التطور هذه النتيجة ، إن القول بذلك لهو فى رأى كانون حديث خرافة وأمر غير معقول ٠ ومع ذلك فإن هذا هو عين اللون من الألوان الذى يحاول الداروينيون الجدد أن يدفعونا إلى الاعتقاد بأنه نتج بفعل التغيرات العشوائية المحضة التى تطرأ على الجينات ! وليس هذا هو قول الداروينين الجدد وحدهم بل رأى داروين نفسه أيضا ٠ وجميع الحالات التى وصفها كانون تقع تحت عنوان : " تناسب الأجزاء " ٠ وآراء داروين فى هذا التناسب ، كما قال البعض قاصرة بصورة عجيبة (٦٠)٠

ويقول كانون أن تطور عين الإنسان لم يكن من قبيل العزف العشوائى الذى تقوم به فرقة موسيقى الجاز ، بل إنه أقرب إلى أداء رباعية وترية كلاسيكية ، أى شىء لم يحدث بالصدفة بل وفقا لقواعد محددة تؤدى إلى نهاية محددة ، وإن التغايرات المختلفة التى تطرأ على الأعضاء المختلفة لا تكون خبط عشواء وإنما موجهة لغاية محددة تؤدى يجب بكل تأكيد ومن باب أولى أن يكون لها جينها الخاص ، بل جيناتها الخاصة . إذا كانت الكائنات تتغاير على تلك الصورة العشوائية التى يزعمها الداروينيون فكيف يتسنى تطور أجزاء البنيان المتناسبة ؟ وهل يمكن اعتبار التطور بأنه نتيجة المصادفة العمياء التى لا تعرف لنفسها وجهة معينة ؟ كذلك يشير كانون إلى أن الحيوانات البرية ، كما ذكر داروين فى تأكيد وإصرار ، تتكيف تكيفا كاملا لبيئتها ، فهل يعقل أن تعتبر هذه الكائنات قد تطورت قطعة قطعة (بالقطاعى) دون أن يعلم أى جزء منها الذى يحدث لسائر الأجزاء ؟ وهكذا يمضى مفندا نظرية داروين بعرضه لعديد من السقطات والأشياء اللامعقولة وغير المقبولة علميا أو منطقيا التى تضمنتها نظرية داروين فيقوضها من أساسها (٦١) .

ويعقب د . يوسف عز الدين عيسى على جملة الآراء التى ساقها علماء التطور بقوله أن الخطأ الرئيسى الذى وقع فيه جميع هؤلاء العلماء هو أنهم تجاهلوا وجود خالق مبدع جبار هو الذى خلق هذا الكون وابدعه بقدرة إلهية مذهلة تعجز عن إدراكها عقولنا البشرية مهما كان مبلغ ذكائنا وقدرتنا (٦٢) .

إن الحيوانات قد تكون انحدرت من حيوانات سبقتها وتطورت وارتقت ، ولكن ما هى القوة التى تقف وراء كل ذلك وتحركه فى دقة مذهلة وقدرة جبارة نحو هدف معين فيه ارتقاء وكمال ؟ إنه بلا شك خالق هذا الكون الذى تعجز عقولنا عن إدراك مبلغ قدرته وعظمته مهما تخيلناها .. فتطور الكائنات لا يفسر بمثل هذه الافتراضات وهذه التكهنات ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون نتيجة صدف عشواء تتخبط فى الظلام . ولقد اقترب العلماء الآن كثيرا من التسليم بوجود خالق للكون سواء شعروا بذلك أو لم يشعروا ، فالقول الذى يصر عليه جراهام كانون بأن فى كل حى قوة تدفعه للسير والتطور نحو هدف معين يعنى بلا جدال وجود قوة إلهية وراء هذه العلمية ، فلو تأملنا مخلوقات الله من أدناها إلى أرقاها ، وهو الإنسان ، وتعمقنا فى التأمل فى هذا

الخلق المتقن الدقيق المتوافق لما وسعنا إلا أن نسجد لخالق الأرض والسموات ومبدعها (٦٣)٠

ولعل هذه الأراء والنتائج التى تبيناها من خلال عدد من الدراسات والبحوث والتجارب العلمية التى تمت فى مجال البيولوجيا ، على الرغم من أننا بصدد دراسة تأريخية ، يشير إلينا بدرس من الدروس التى تعلمنا إياها البيولوجيا بالنسبة للتاريخ، ألا وهوأن الحياة منافسة (٦٤) ، فالمنافسة ليست حياة التجارة وحسب ، وإنما هى تجارة الحياة ، تكون مسالمة حين يتوافر الطعام وعنيفة حين تزيد الأفواه على الطعام ، فالحيوانات يأكل بعضها البعض دون أى وخز للضمير ، والمتحضرون يستهلك كل منهم الآخر عن طريق التقاضى أمام القانون ، والتعاون أمر حقيقى ، يزداد مع التطور الاجتماعى ، ولكن ذلك ليس فى الأغلب إلا لأنه أداة للمنافسة وشكل من أشكالها ، فنحن نتعاون فى جماعتنا – أسرتنا أو مجتمعنا أو نادينا أو مسجدنا ، أو كنيستنا ، أو حزبنا أو " جنسنا " ، أو أمتنا – لكى نقوى جماعتنا فى منافستها للجماعات الأخرى ٠ والجماعات المتنافسة لها خصائص الأفراد المتنافسين : الاقتتال والمشاكسة والتحزب والغرور ٠

ودولنا على صورتنا لأنها مكونة من تكاثرنا ، فهى تكتب طبائعنا بحروف بارزة وتمارس خيرنا وشرنا على نطاق واسع ، ونحن نحب الاقتناء ، طماعون ومشاكسون ، لأن دمنا لا ينسى آلاف السنين التى كان على أجدادنا فيها أن يطاردوا ويحاربوا ويقتلوا من أجل أن يعيشوا ، وكان عليهم أن يأكلوا بأقصى ما تسعه معداتهم خوفا من ألا يصيبوا وليمة أخرى فى الأمد القريب ٠ وما الحرب إلا طريقة الأمة فى الأكل ، وهى تروج للتعاون لأنها تمثل أقصى أشكال المنافسة ، وإلى أن تصبح دولنا أعضاء فى جماعة كبيرة قادرة على الحماية ، فسوف تستمر فى السلوك مسلك الأفراد والأسرات فى مرحلة القنص !(٦٥) ٠

التحقيب الحضارى :

إذا نظرنا إلى الحضارة باعتبارها حصيلة النشاط البشرى ، نستطيع أن ننظر إليها على أنها نسق عام كلى يمكن التمييز فيه بين عدد من الأجزاء أو الأقسام أو حتى المظاهر ، وإن كان بعض العلماء من أمثال ليزلى وايت L.white يرون أن من الأنسب الاكتفاء بالتمييز بين ثلاثة مظاهر رئيسية يطلق عليها مصطلحات " النسق التكنولوجى " و " النسق الاجتماعى " ثم " النسق الإيديولوجى " (٦٦)٠ وينظر أبو زيد إلى هذه المظاهر باعتبارها تمثل " مستويات الحضارة " ، وهذه المستويات تعبر فى حقيقة الأمر عن الأدوار الثلاثة التى يمكن التمييز بينها فى عملية الحضارة ، فالنسق التكنولوجى هو الأساس الأول الذى يقوم عليه البناء الحضارى كله فى أى مجتمع وفى أى عصر ، فهو العامل المحدد للحياة الاجتماعية أو النسق الاجتماعى ككل ، بمعنى أنه يؤثر تأثيرا بالغا فى تشكيل النظم والعلاقات الاجتماعية التى تسود فى المجتمع ، بينما تعتبر الأنساق الاجتماعية (وظائف) للتكنولوجيات المختلفة ٠ أما الفلسفات فإنها تعبر بدورها عن القوى التكنولوجية مثلما تعكس الأنساق الاجتماعية (٦٧) ٠

ومن المؤكد أن هذه الأنساق الثلاثة الرئيسية التى تؤلف الحضارة تتفاعل فيما بينها ويؤثر بعضها فى بعض ، ولكن على الرغم من أنها كلها تعتبر من خصائص الحضارة الإنسانية فإن الفئة الأولى منها تتصل اتصالا مباشرا بنفس الوجود الفيزيقى للجنس البشرى ، بينما تظهر الفئتان الأخريان بالتدريج نتيجة لتقدم الإنسان فى سلم الحضارة ، وبذلك فهى دليل ومقياس على تقدمه وتطوره ونموه ٠ وهذا ما يؤكده ليزلى وايت من أن التكنولوجيا هى المتغير المستقل ، بينما النسق الاجتماعى يتحدد إلى درجة كبيرة عن طريق الأنساق التكنولوجية ، وهو الأمر الذى أكده " جوردون تشايلد E.Gordon Childe فى إشارته إلى أن الآلات التى استخدمها الإنسان لها دورها الأساسى فى تشكيل وتحديد الأنساق الاجتماعية والتنظيم الاقتصادى فى حركة التطور الحضارى (٦٨) ٠

ولقد كان لهذا الاعتبار أثره فى تصنيف بعض العلماء لعصور التطور الحضارى قبل التاريخ ، ومن أشهرها ذلك التقسيم إلى ثلاثة عصور : العصر (أو المرحلة) الحجرى ، والبرونزى ، والحديدى ، على التوالى ٠ وينتمى هذا التصنيف إلى دانمركى يدعى "

تومزن " استعملها فى حوالى عام ١٨١٢لترتيب وتصنيف المعروضات فى المتحف الذى أقيم عندئذ فى كوبنهاجن لآثار الشمال ، إذ قرر أن يجمع بين الأشياء التى صنعت واستعملت فى فترة زمنية واحدة . ولم يكن فى مقدوره الحصول على سجلات مكتوبة تبين متى صنع واستعمل يكان الدانمرك الأميون هذه الأشياء التى ستصنف وتعرض . ولكن " تومزن " كان يعلم أن البرونز استخدم فى صناعة الآلات الحادة والأسلحة قبل الحديد ، وأن الحجر قد استخدم قبل البرونز ، ولذلك فقد كافة الأشياء التى كانت تستعمل عادة قبل استخدام البرونز فى الفئة الأولى وأطلق عليه " العصر الحجرى " ، كما صنف كافة الأشياء التى وجدت فى المقابر أو مع السيوف والرماح والفئات البرونزية مهما كانت المادة التى صنعت منها فى الفئة الثانية التى أطلق عليها " العصر البرونزى " .. وهكذا (٦٩) .

وبعد أن عرض تشايلد لتصنيفات أخرى تساءل – مثلا – عن قدرة مصطلح " العصر البرونزى " على أن يمدنا بأى مفتاح لفهم التطور التكنيكى أو الاقتصادى أو حتى السياسى للمجتمع الذى يندرج تحته ؟ فليست لها دلالة زمنية مطلقة ، إذ لا تساعدنا أبدا إذا أردنا مقارنة الحضارة المصرية بحضارة معاصرة لها فى انجلترا (٧٠) . لقد أنفق تشايلد عشرين عاما محاولا إعطاء العصور التقليدية مثل هذه القيمة ، وأن يجعل هذه المراحل الأثرية تتفق وما استقر علماء الاجتماع والسلالات المقارنة على تسميته بالمراحل الأساسية للتطور الحضارى ، ففى عام ١٩٢٥ تبين فكرة قدمها " غليوت سميث " قبل ذلك ، واختار من المحكات الثلاثة الشائعة (تجليخ الأحجار وتلميعها ، وحيوانات الحقبة الجيولوجية الحديثة ، والحيوانات المستأنسة والنباتات المزروعة) ، اختار إنتاج الغذاء بوصفه ما يميز العصر الحجرى الجديد عن القديم والأوسط.

وهكذا لم يذهب جوردون تشايلد فى تقسيمه لذكر حضارات قديمة أو حديثة لأنه لم يعتمد فى تقسيمه لمراحل التطور الاجتماعى والاقتصادى على أسس تكنولوجية بل اعتمد على أسس اقتصادية كإنتاج اللطعام الذى اتخذ منه أساسا لتعريف انتقال الإنسان من مرحلة التوحش أو البدائية إلى مرحلة البربرية فى العصر الحجرى الحديث (٧١).

ومن حيث التتابع الحضارى فى المرحلة البدائية ذكر جوردون أنه من الممكن أن يقسم العصر الحجرى القديم إلى قسمين متساويين زمنيا وكل واحد منهما على النقيض من الآخر من حيث طبيعة صناعته ، وهذان العصران هما العصر الحجرى القديم الأسفل الذى استغرق ما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ سنة ، والعصر الحجرى القديم الأعلى ، الذى لم تزد الفترة التى استغرقها عن ١٠٠,٠٠٠، وفى خلالهما كان الصيد البحرى وجمع الطعام هما المورد الرئيسى للغذاء ، إذ لم يكن هناك أى دليل على أن المجتمع قد مارس حرفة الصيد البحرى (٧٢) .

ومن حيث التتابع الحضارى فى مرحلة البربرية ، فقد قسمها جوردون إلى قسمين:
ا – مرحلة البربرية فى العصر الحجرى الحديث وقرنها بثورة إنتاج الطعام الأولى والاستقرار فى قرى وبدء الحياة الاجتماعية (٧٣).
ب – مرحلة البربرية فى عصر النحاس ، حيث بدأ يدخل فى الحسبان استخدام معدن جديد ، وتحرر جزء من أفراد المجتمع من الإنتاج الزراعى واحترافهم التجارة والصناعة . وقد مهدت هذه المرحلة لظهور الثورة المدنية فى المراكز التى ظهرت فيها أبرز الحضارات القديمة (٧٤) .

ومن الصعب ، إن لم يكن من المستحيل أن نعثر على محكات التقدم التى تحدد بداية هذه الفترات المختلفة فى كل أنحاء العالم بدون استثناء كما يقول مورجان ، وعلى ذلك فإنه يكفى فى نظره تصنيف القبائل الرئيسية التى ينقسم إليها الجنس البشرى تبعا لدرجة تقدمها النسبى وبالتالى تبعا للمرحلة الثقافية التى تمر بها والمستوى الثقافى الذى وصلت إليه .وتعتبر مرحلة الهمجية أولى مراحل التقدم وفى الوقت ذاته أطول هذه المراحل وأكثرها صعوبة (ويقسمها بدورها إلى ثلاث فترات : قديمة أو دنيا ، ووسطى ، وحديثة أو عليا) .

لقد كان البشر فى الفترة القديمة من هذه المرحلة يعيشون عيشة أقرب إلى عيشة الحيوانات ، وفيها بدأ ظهور الجنس البشرى ، وارتبطت بطفولته الأولى وانتهت باكتشاف النار ، ويأكل الطعام الذى تقدمه له الطبيعة . كما أنه بدأ يكتشف الكلام الذى يختلف فى جوهره عن صياح الحيوانات وصراخها . وقد بدأت الفترة الوسطى من

مرحلة الهمجية بانتحال الإنسان لصيد السمك ، كما أنه عرف استخدام النار فى الطهى ، واخترع القوس والسهم ، وبدأ ينتشر من موطنه الأصلى إلى مختلف بقاع العالم ، وبعدها جاءت الفترة الأخيرة من مرحلة الهمجية (٧٥) ٠

وفى مرحلة البربرية بعهودها الثلاثة يعتبر اكتشاف الإنسان الحروف الهجائية الصوتية واستخدم الكتابة أهم الأحداث المميزة لانقضاء مرحلة البربرية فى عموما ، نظرا لأن اكتشافهما كان إيذانا بنشأة المدنية وظهورها كمجتمع متميز، هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الاكتشافات المهمة ٠

وعلى أية حال فإن الذى شاع بين عدد كبير من الباحثين هو تقسيم العصور التى مرت علىالإنسان القديم ، تبعا لأشكال الصوان والأدوات التى استعملها إلى عصور حضارية رئيسية هى (٧٦) :

١ - العصر الحجرى القديم أو " الباليوليثى Paleslithic " ، وهذه الكلمة مشتقة من مقطعين : " باليو " ومعناها باللاتينية " القديم " ، ثم " ليثو " وتفيد الحجارة ٠ وقد استغرق هذا العصر وقتا طويلا من عصر البليستوسين نفسه ٠ ونظرا لهذا الطول ولبطء تقدم الإنسان خلاله فقد رأى العلماء تقسيمه إلى ثلاثة أقسام فرعية هى :

ا - العصر الحجرى القديم الأدنى　　ب - العصر الحجرى القديم المتوسط

ج - العصر الحجرى القديم الأعلى

٢ - العصر الحجرى المتوسط أو " الميزوليثى Meso-lithic " ٠

٣ - العصر الحجرى الحديث أو " النيوليثى Neolithic " ٠

وقد أمكن تمييز عصور حضارية - على الأقل - لإنسان العصر الحجرى القديم فى أوربا وذلك من تقسيم الأدوات المصنوعة التى وجدت فى مواقع أثرية مختلفة الأماكن ٠ وقد سميت هذه الحضارات بأسماء الأماكن التى اكتشفت فيها وهى مرتبة من الأقدم إلى الأحدث عهدا كما يلى (٧٧) :

١ - الحضارة الشيلية ، نسبة إلى بلدة شل على نهر المارن ٠

٢ - الحضارة الأشيلية ، نسبة إلى بلدة سان أشيل بالقرب من أميان فى وادى السوم

٣ – الحضارة الموستيرية ، نسبة إلى بلدة كهف موستير فى حوض الدردن .
٤ – الحضارة الأورينياسية ، نسبة إلى بلدة أورنياك فى حوض الجارون الأعلى .
٥ – الحضارة السولترية ، نسبة إلى بلدة سولتريه فى حوض الساؤن .
٦ – الحضارة المجدلية ، نسبة إلى كهف المادلين فى حوض الدردن أيضا .

ويستند تقسيم العصور الحجرية إلى أمرين (٧٨) :
الأمر الأول ، شكل الآلة ودقة صناعتها ، فكل صناعة تبدأ بسيطة بدائية ثم تتعقد وتتدرج نحو الدقة ، فكأن تطور شكل الآلة يمكن أن يعتبر مقياسا زمنيا للإنسان ، فالآلات الأكثر تعرجا فى حافتها آلات قديمة والآلات التى تشغل القشرة جزءا كبيرا من سطحها آلات قديمة كذلك ، وأما الآلات ذات الحافة المستقيمة أو ذات المساحات الصغيرة من القشرة على سطح الآلة فهى أحدث .

وأما العامل الثانى ، فهو موضع الآلة فى الطبقات ، فإننا نجد أجزاء مختلفة من الطبقات التى توجد فيها الآلات قد سكنها الإنسان فى أوقات أو عصور متلاحقة ، وكان يخلف آثاره فى هذه الأجزاء . وفى مثل هذه الحالة تكون الآلات التى توجد فى الطبقات السفلى أقدم من الآلات التى توجد فى الطبقات العليا (٧٩) .

نشـأة الثقافـــة :

عندما نتحدث عن تحرك حضارى ، فمعنى هذا ضرورة التحدق عن الثقافة ، فإذا كانت الحضارة تحرك الإنسان إلى أمام وإحراز مظاهر تقدم وتطور إلى الأفضل ، فإن أداته إلى ذلك ، ما يتوصل إليه من ثقافة ، فلا تقوم الحضارة على مكونات البيئة المحيطة ، وإن كانت لا تستغنى عنها ، وإنما تقوم على مكتشفات الإنسان وإبداعاته المادية واللامادية ، أى الثقافة .

فمفهوم الثقافة يشمل كافة نواحى السلوك الإنسانى التى لا تعتبر أفعالا منعكسة فطرية أو استعدادات وراثية ، فالثقافة قائمة على كل ما يستخلصه الإنسان من غذائه ومجتمعه الإنسانى لا على ما يحيط به من طبيعة أو بيئة غير إنسانية ، وتشمل اللغة

والمنطق والفكر الدينى والفلسفة والأخلاق والقانون ، إلى جانب صناعة الأدوات واستخدامها والملابس وحتى اختيار الأطعمة ، فكل هذه الأشياء يجب أن يتعلمها الإنسان من زملائه فى المجتمع ، فالطفل عليه أن يتعلم من أبويه وممن هم أكبر منه كيف يتكلم ، وكيف يتخلص من ناتج هضم طعامه وكيف يأكل ويعد طعامه ٠٠ وهكذا ، وتنتهى كافة هذه القواعد للتقاليد الجمعية التى جمعها وحفظها المجتمع الذى يولد به الإنسان (٨٠) ٠

وكل شيء فى المجتمع يجب أن يخترع ويكتشف ولكن المجتمع يحفظ المكتشفات والاختراعات الأصيلة ، حتى لا يكون على أعضائه أن يكتشفوا بأنفسهم ، عن طريق المحاولة والخطأ ، ماذا يأكلون وكيف يحصلون عليه ، بل يعلمهم من هم أكبر منهم، ذلك وهؤلاء الأخيرون تعلموا بدورهم ممن سبقوهم ٠ وتعبر التقاليد الاجتماعية ، التى تحدد الثقافة ، عن نفسها فى عادات التفكير والعمل وفى المؤسسات والعرف ، وكافة هذه الأشياء لا قيمة لها فى جوهرها ، إلا إذا ظل المجتمع الذى فرضها وباركها وحفظها حيا ونشطا ٠ وبفضل الكتابة بقيت لنا لغة ومنطق المجتمعات المتمدينة بعد زوالها ، كما بقى الكثير من مؤسساتها ومعتقداتها وقوانينها فى شكل حفريات متحجرة (٨١) ٠

والواقع أن فكرة تصور الثقافة على أنها " تراكمية " وتكتسب عن طريق التعليم موجود لدى كل من علماء الحضارة والاجتماع والأنثروبولوجيا ، فعالم الاجتماع المشهور " دو ريرتى De Roberty يذهب إلى أن الثقافة هى حصيلة الفكر والمعرفة فى المجالين النظرى والعملى على السواء ، ومن هنا فإنها تعتبر خاصة من خواص الإنسان دون غيره من من الكائنات ، وهو قول يردده مالينوفسكى فى كثير من كتاباته ٠ كذلك يذكر لنا " هوبل Hoebel " عامل السلوك المتعلم باعتباره ركنا هاما فى تعريف الحضارة ، وأن من الضرورى أن نبعد عن كل ما هو غريزى وفطرى وكل صور السلوك الموروثة بيلوجيا فى مفهوم الثقافة ٠ ولذا كانت الثقافة أو الحضارة فى نظره هى حصيلة الابتكار الاجتماعى فقط ، وبذلك يمكن اعتبارها بمثابة التراث الاجتماعى الذى ينتقل من جيل لآخر عن طريق التعليم والتلقين (٨٢) ٠

والحق أن الإنسان فى " تعلمه " إنما ينتقل إلى دائرة أكثر رحابة واتساعا وتفردا عن غيره من الكائنات الحية الأخرى ، وإن كان يشاركها فى عدد من الأسس والتوجهات العامة ، فكل نوع من الكائنات العضوية يتسلح ببرنامج خاص به يتعلق بالاستجابات السلوكية المسجلة فى مورثاتها محققا لأفراده فوائد كثيرة ، ومع ذلك يوجد إلى جانب ذلك نوع آخر من السلوك الذى يحقق فوائد أخرى تتعدى الفوائد التى توفرها البرمجة الوراثية (٨٣)، هذا النوع من السلوك هو الذى برمج كنتيجة للتعلم وبفضله ، فالتعلم يتيح للكائنات العضوية أن تتكيف مع كثير من الظروف المتنوعة للغاية وبالتالى أن تكتسب منها فائدة أكثر فاعلية لتحقيق نجاح تكاثرى أكثر مما تتيحه لها البرمجة الوراثية .

ولعل مثالا يمكن أن يوضح ذلك أكثر ، فالنورس ذو القدرة الضعيفة على التعلم والتى كانت مبرمجة بصرامة لتبحث عن طعامها على طول الساحل فقط ، تفقد مصادر أخرى كثيرة للطعام ، ومع ذلك فقد استطاعت عن طريق التعلم أن تتعرف على قوارب الصيد وتتعقبها ، وكذلك على المطاعم التى تقدم الطعام الجاهز وعلى أماكن النفايات فى المدينة وغيرها من مصادر أخرى ، فكانت النتيجة أن أحسنت طيور النورس ملاءمتها بدون تغيير تركيبها الوراثى (٨٤) .

وميزة الإنسان الكبرى هى مخه الكبير الكثير التلافيف ذو المراكز العصبية والإحساسية المتعددة ، وقد أفسد على الناس فهمهم لتاريخ البشر أنهم تصوروا أن ذهن الإنسان كان قادرا على التفكير والإدراك والربط بين الأشياء وقائلها واكتشاف أسرارها من أول الأمر ، ولكننا رأينا أن المخ البشرى احتاج إلى قرون طويلة حتى تشحذ قدراته المتعددة وتصبح قادرة على التفكير واختزان المعلومات والانتفاع بها وقت الضرورة ، وما إلى ذلك من قدرات الذهن البشرى . ويخطىء الكثيرون من المفكرين والفلاسفة عندما يتكلمون عن الإنسان وكأنه كان يتمتع منذ البداية بعقل كامل مدرب على التفكير على طريقة الفلاسفة أنفسهم ، مع أنهم يعرفون أن عملية التعليم ما هى فى الحقيقة إلا عملية تقوية للذهن وتدريب له على التفكير المنظم ، وبدون هذه العملية لا يصل الصبى أو الشاب إلى القدرة الكاملة على استعمال ذهنه (٨٥).

ولقد بلغ تأثر علماء التطور الثقافى تأثرا بالغا بنظريات التطور البيولوجى إلى الدرجة التى دفعت بعضهم إلى المماثلة بينهما ، فمن ذلك جوردون تشايلد اعتبر الثقافة مجرد وسيلة تلجأ إليها الشعوب والمجتمعات للتكيف مع البيئات الطبيعية التى تحيط بها حتى تستطيع أن تعيش وتتكاثر ، وهى – أى الثقافة – من هذه الناحية تشبه التغيرات والتعديلات الجسمية والغرائز التى تساعد الحيوان على بلوغ الهدف ، وأن الاختراعات تشبه الطفرات البيولوجية ، وهى أيضا تهدف إلى التكيف مع البيئة (٨٦) ٠

ونظر ليزلى وايت " إلى التطور على أنه عملية كلية تشمل مختلف الثقافات التى تعتبر فى نظره وحدة كلية ، كما أنه كان يعتبر الوظيفة الأولى أو الأساسية للثقافة هى التحكم فى " الطاقة " وتسخيرها لصالح الإنسان وخيره ، وذلك على أساس أن كل ما يصدر عن الإنسان ويؤلف جزءا من ثقافته يحتاج فى أدائه إلى نوع ما من الطاقة ، ويستوى فى ذلك " صيد السمك " أو صنع السلال أو أداء الشعائر أو مراعاة إحدى العادات الاجتماعية أو أداء الصلاة حتى ولو كانت صلاة صامتة ٠ وهذا نفسه يصدق على كل الظواهر والأحداث التى تجرى فى الكون سواء أكانت ظواهر وأحداثا فيزيقية أم بيولوجية أم ثقافية (٨٧) ٠

وفى أية دراسة للتطور الثقافى والحضارى لا يستطيع الباحث أن يغفل لحظة عن دراسة البعد " الإيكولوجى " ، والإيكولوجيا – فى أبسط معانيها – هى دراسة العلاقة بين الطبيعة والإنسان ، ولكن المسألة ليست مجرد وصف بسيط للظروف البيئية وأثرها فى تحديد أوجه النشاط البشرى وبخاصة فى مجال الحياة الاقتصادية مثل مباشرة أعمال معينة بالذات تهيىء الظروف الجغرافية لقيامها مثل ممارسة الرعى فى المناطق الصحراوية والشبه صحراوية ، أو فى مجال الثقافة المادية مثل ارتداء ملابس معينة أو الإقامة فى مساكن من نوع معين تتلاءم مع الظروف المناخية السائدة فى المجتمع المحلى ، أو تبين الأسباب التى دفعت إلى ظهور مدينة من المدن فى موقع معين بالذات (٨٨)٠

إن الأمر يقتضى فى مجال دراسة النسق الإيكولوجى تتبع العلاقات المتبادلة بين الإنسان والبيئة العامة وأثر هذه العوامل البيئية فى الأنساق والنظم المختلفة من اقتصادية وسياسية ودينية وغيرها ، فليس يكفى ، مثلا ، أن يقال أن عدم سقوط المطر

فى إحدى السنوات فى المناطق الصحراوية يؤدى إلى نتائج اقتصادية وخيمة تتمثل فى موت أعداد كبيرة من الماشية وعدم إمكان الأهالى زرع محصولات المعيشة التى يقتاتون عليها وإنما يتتبع الباحث العلاقة بين هذه الظاهرة الجغرافية وبعض الظواهر الاجتماعية التى ترتبط بها ، مثل الهجرة من موطن الإقامة التقليدية إلى مواقع أخرى أصابها المطر وما ينشأ عن ذلك من نزاع وصدام على الأرض والماء والمرعى ، على ما يحدث مثلا حين تضطر بعض جماعات البدو فى الصحراء الغربية إلى الهجرة فى سنوات الجدب عبر الحدود المصرية الليبية إلى برقة (أوالعكس)، ثم ما يترتب على هذا كله من قيام نظام قانونى عرفى خاص ينظم العلاقات بين القبائل المختلفة (٨٩).

ومن الملاحظ أن عملية اكتساب " الإنسان المبكر " للثقافة جاءت تدريجيا وببطء شديد وليس عن طريق الوثبة أو الطفرة ، فقد كان الإنسان مضطرا فى بداية عهوده إلى الاستعانة بكل ما يصادفه من أجسام صلبة مثل قطع الخشب أو الحجارة ، ثم لم يلبث أن بدأ يستخدم قطع الصخر ذات الحافات الحادة المرهفة القاطعة فى تشذيب الخشب مثلا ، ليجعل منها عصا صالحة للاستعمال ، أى أنه أخذ تدريجيا يقدر شكل العصا ذاته ، ويدرك بوضوح فوائد صنعها بشكل معين بالذات ، ومن هنا فإن الأشياء ذاتها أخذت تكتسب بالتدريج معنى أعمق بالنسبة للأشخاص الذين كانوا يستخدمونها ، وهذا المعنى هو الذى يعطى الأدوات نمطها الخاص ويساعد بالتالى على ظهور شىء محدد يمكن أن يعزى إلى جماعة معينة بالذات ، صحيح أن القردة العليا قد تشذب الأغصان مثلا بانتزاع الفروع الصغيرة منها ، وتقضم أطراف العصى لتجعلها مدببة ، ولكنها لم تكن تفعل ذلك ابدا إلا حين تجابهها مشكلة من المشكلات وليس لكى تلائم نمطا موجودا لديها من قبل (٩٠) .

وهكذا نجد أن الإنسان المبكر كان يستخدم ، إلى جانب قوته العضلية – أى طاقته البشرية – الأخشاب وقرون الوعول والعظام والأحجار المدببة الحادة والأشواك والأصداف وما إلى ذلك . وقد ظلت الثقافة على درجة كبيرة من البساطة والفجاجة لفترات طويلة جدا قبل أن يتمكن الإنسسان من صنع الآلات والأدوات المعقدة التى تختلف فى شكلها عن الأشياء والأجسام الطبيعية اختلافا كبيرا .

ولليزلى وايت كلمات فى تقدير الدور الذى قامت به قدرة الإنسان على إنتاج الثقافة من حيث التطور الحضارى ، وذلك فى خطابه بمناسبة توليه السلطة رئيسا للرابطة الأمريكية للدراسات الأنثروبولوجية عام ١٩٥٨ ، ملىء بالمحسنات البديعية ، جاء فيه (٩١) : أن الإنسان قد أقام (بالرموز والمعانى الثقافية) عالما جديدا يعيش فيه . إنه يقينا لا يزال يطأ الأرض ، وقد أحس بالريح تصفع وجنتيه ، أو سمعها تتنهد بين أشجار الصنوبر ، وشرب من جداول الماء ، ونام ملتحفا بنجوم السماء ، واستيقظ يحيى الشمس فى الصباح ، ولكنها ليست ذات الشمس ! فلا شىء هو ذاته أبدا . كل شىء اغتسل بنور السماء ، وانطبعت على كل راحات الأيدى " علامات الخلود " . لم يكن الماء أبدا شيئا لمجرد إطفاء الظمأ ، إنها تضفى على الحياة طابع السرمدية . وامتد بين الإنسان والطبيعة حجاب الثقافة ، ولم يعد الإنسان يرى شيئا إلا عبر هذا الحجاب ، ومن ثم أصبح النفاذ إلى كل شىء هو جوهر الكلمات : المعانى والقيم الكامنة وراء الأحاسيس ، وقادت خطاه هذه المعانى والقيم – علاوة على حواسه – التى غالبا ما كانت لها الأسبقية .

رؤيـــــة دينيـــــة :

نحن ممن يؤمنون بالله ورسله وكتبه ، ونحن كذلك نؤمن بالعلم ، منهجا ومحتوى ، وإيماننا بالله هو الذى يدفعنا إلى ضرورة الإيمان بالعلم ونتائجه ، فما يكشف عنه العلم إنما هو من " نواميس الله " فى خلقه ، وكشف عن آيات عظمة الله ، ونفس هذا الإيمان يؤكد لنا أن من المستحيل أن يكون هناك تعارض بين النتائج التى يتوصل إليها العلم وبين الدين .

ومن هذا المنطلق كان علينا أن نعرض هنا للرؤية الدينية – حسب اجتهادات وفهم مجموعة من علماء الدين – لقضية بدء الحياة وخلق الإنسان وقدرته على التعلم ، على اعتبار أن هذه نقطة البداية فى التأريخ للحضارة الإنسانية . هذا مع التنبيه أن هناك نقاطا هى موضع جدل فى فهم بعض آيات القرآن الكريم المتصلة بالموضوع ، ومن ثم فإن ما نسوقه من اجتهادات لا نريد عرضها وكأنها – جميعا – القول الفصل ، هذا فضلا عما وجدناه كذلك من جوانب فى الخلق وبدء الحياة عموما والإنسانية

خصوصا لم يزل جهد العلماء فيها دون الوصول إلى مرتبة اليقين ، وهـذا وذاك يجعلنا نأخذ جانب الحذر الشديد فى تصور تضاد أو مخالفة بين ما يصور به رأى الدين ، ومـا توصل إليه العلماء فى بحوثهم ودراساتهم العلمية .

ونقطة البداية فى الفكرة الحالية ، أن أول وصف وصف الله عز وجل به نفسه فـى القرآن الكريم أنه رب ، وثانى ما وصف به نفسه أنه " الـذى خلـق " " اقرأ باسـم ربـك الذى خلق . خلق الإنسان من علق " (٩٢). وفى ورود صفة الخلق بعد صفة الربوبية حكمة واضحة ، فالخلق أول التربية وأساسها ، بغيره لا يكون وجود ولا تكون تربية . ومراحل الخلق الأولى تربية من غير شك ، فخلق العلقة من النطفة ، وخلق النطفة مـن العلقة ، وخلق العظام من المضغة ، وكساء العظام لحما ... كل ذلك تربية تنمـو بها النطفة فتصير خلقا آخر يكتمل نموه على مر الأيام . أما والخلـق تربيـة كما قدمنـا أو هو أول التربية بعبارة أدق فقد وضحت الحكمة فى ذكر صفة الخلق بعد صفة الربوبيـة مباشرة (٩٣) .

وفى ورود صفة الخلق فى الآية حكمة أخرى ، فالخلق صفة مميزة لله عن سائر الذوات ، فمن صفات الله ما يوصف به الإنسان كالسمع والبصر والكلام والعلم والقدرة والإرادة وإن كان لله المثل الأعلى وليس كمثله شىء . أما صفة الخلق فلا يوصف بها الإنسان إلا على سبيل المجاز . والخلـق الحقيقـى مـن العدم لا يقـدر عليـه غيـر اللـه سبحانه : " هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض " (٩٤) .

وقد تعرض القرآن الكريم لبدء الحياة فى هذه الأرض فقال سبحانه :" والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنـهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشـاء ، إن اللـه علـى كـل شـىء قدير " (٩٥) .وربمـا يذكرنا هذا بما سبق أن أشرنا إليه مـن ترجيـح العلمـاء أن أول ظهـور للحيـاة فـى هـذه الأرض إنما كان فى الماء فى صورة كائنات ضئيلة جدا تحمل سر الحيـاة القابلـة للنمـو والتكاثر والتطور والتنوع ، وتكاثرت فعلا هذه الكائنات الضئيلة وتطورت وظلت تعيـش فى الماء ما شاء الله لها ، ثم أخذ بعضها يدرج منه على الأرض يعيش عليها ، وتـأقلم

ذلك الذى درج إلى سطح اليابس ، وتكاثر وتطور ، فكان منه ما نعهد من أنواع الحيوان ، ومما لا نعهد مما انقرض نسله وغير عهده (٩٦)٠

ذلك ما يقرره القرآن ويقرره العلم عن بدء الحياة فى هذه الأرض ، وهو تقرير يدل على أن الأرض عرفت كثيرا من أنواع الأحياء المائية والبرية قبل أن تعرف هذا الإنسان الذى يسكنها الآن بدهور تعد بالملايين ، فلما خلق الله سبحانه آدم كانت الأرض حافلة بأصناف النبات والطير والدواب ، ولم يأمره سبحانه وتعالى بالهبوط إليها إلا بعد أن علمه أسماءها وخواصها وسر تذليلها والانتفاع بها ، قال عز وجل : " وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لاتعلمون ٠ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ٠ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ٠ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون " (٩٧) ٠

ولبعض المفسرين فى (الخليفة) رأى ذهبوا فيه إلى أن هذا اللفظ يشعر بأنه كان فى الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق وأنه انقرض ، وهذا الصنف الذى أخبر الله الملائكة بأنه سيجعله خليفة فى الأرض سيحل محله ويخلفه ، كما قال تعالى بعد ذكر إهلاك القرون : " ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم " (٩٨) ٠ وقالوا : إن ذلك الصنف البائد قد أفسد فى الأرض وسفك الدماء ، وأن الملائكة استنبطوا سؤالهم بالقياس عليه ، لأن الخليفة لابد أن يناسب من يخلفه ويكون من قبيله كما يتبادر إلى الفهم ، ولكن لما لم يكن دليل على أن يكون مثله من كل وجه وليس ذلك من مقتضى الخلافة ، أجاب الله الملائكة بأنه يعلم ما لا يعلمون مما يمتاز به هذا الخليفة على من قبله ، وما له سبحانه فى ذلك من الحكمة البالغة ٠ وقد عقب الشيخ محمد عبده على هذا بأن هذا القول إذا صح - ولا يملك أحد النفى أو التأكيد - لا يصبح آدم هو أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الأرض ، وإنما كان أول طائفة جديدة من الحيوان الناطق تماثل الطائفة أو الطوائف البائدة منه فى الذات والمادة ، وتخالفها فى بعض الأخلاق والسجايا (٩٩) ٠

والموقف الذى تصوره آيات سورة البقرة موقف تعلم وتعليم بالدرجة الأولى ، أو قل هو أول موقف من هذا القبيل ، وتم عن طريق تلقين الأسماء ، والتى يفسرها البعض بأنها القدرات الكامنة فى الإنسان التى تمكنه من أن يسعى على دروب معرفة ما فى هذا الكون من مخلوقات • فإذا ما وقفنا عند ظاهر النص على الأسماء فإن هذا نفسه إشارة إلى أن أى بشر لا يستطيع أن يصل إلى العلم الذى يؤهله ليبدأ التحصيل إلا إذا تعلم الأسماء •

ويمكن إيضاح ذلك بالنظر إلى حالة الطفل الصغير ، أى طفل فى أى مكان فى العالم ، كيف يبدأ تعليمه ؟ إذا كان فى المدرسة أو كان أميا فى البيت يبدأ تعليمه بالأسماء أولا ، فيقال له هذا كوب وهذا جبل وهذا رجل وهذا بيت إلخ • وبعد أن يتعلم الأسماء يبدأ فى تحصيل العلم ، ولكن بعد أن يكون قد استوعب الأسماء ، وحتى الطفل الأمى الذى لا يذهب إلى المدرسة تقوم أمه بمهمة تعليمه الأسماء ، حتى يستطيع أن يتعلم بعد ذلك كيف يمضى فى حياته العادية ، وبدون تعلم الأسماء فإن الطفل يتعثر ولا يستطيع أن يمضى ولا أن يحصل علما (١٠٠) •

الهوامـــــش

١- محمد السيد غلاب ، ويسرى الجوهرى : الجغرافيا التاريخية ، عصر ما قبل التاريخ وفجره ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ١٩

٢- المرجع السابق ، ص ٢٠

٣- المرجع السابق ، ص ٢١

٤- أنور عبد العليم : قصة الإنسان القديم وحضارته ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، سلسلة المكتبة الثقافية ، ١٩٦٥ ، ١١٥

٥- المرجع السابق ، ص١١٧

٦- أحمد أبو زيد : الحضارة : بين علماء الأنثروبولوجيا والأركيولوجيا ، فى مجلة عالم الفكر ، وزارة الإعلام،الكويت ، م١٥، العدد الثالث، أكتوبر/نوفمبر١٩٨٤،ص٤

٧- عبد الحميد زايد : متى وأين بدأت الحضارة ؟ فى المرجع السابق ، ص٣٨

٨- أحمد أبو زيد : الحضارة بين علماء الأنثروبولوجيا والأركيولوجيا ، ص ٤

٩- محمد السيد غلاب وزميله ، مرجع سابق ، ص ٢٢

١٠- محمد جمال الدين الفندى ومحمد يوسف حسن : قصة السموات والأرض ، مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٣١

١١- المرجع السابق ، ص ٣٤

١٢- فصلت / ١١

١٣- قصة السموات والأرض ، ص ٣٥

١٤- المرجع السابق ، ص ٣٨

١٥- المرجع السابق ، ص ٣٩

١٦-الأنبياء / ٣٠

١٧- محمد الجوهرى : الظاهرة الإنسانية لبيير تايار دوشاردان ، فى تراث الإنسانية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة، م٩ ، العدد الأول ١٩٧١، ص ٢٢

١٨- المرجع السابق ، ص٢٣

١٩- علم الدين كمال : تطور الكائنات الحية ، مجلة عالم الفكر ، وزارة الإعلام ، الكويت ، م٣ ، العدد الرابع يناير/مارس ١٩٧٣ ، ص ١٤

٢٠- المرجع السابق ، ص ١٥

٢١- أنور عبد العليم : نشأة الحياة على الأرض لأبارين ، تراث الإنسانية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ١٩٦٤، م٢، العدد٣ ، ص١٧٢

٢٢- المرجع السابق ، الصفحة نفسها

٢٣- المرجع السابق ، ص ١٧٤

٢٤- المرجع السابق ، ص ١٧٩

٢٥- علم الدين كمال ، ص ١٥

٢٦- المرجع السابق ، ص ١٦

٢٧- يوسف عز الدين عيسى : التطور العضوى للكائنات الحية ، عالم الفكر ، م٣ ، ع٤ ، ص ٧٧

٢٨- قصة السموات والأرض ، ص ٧٤

٢٩- ول واريل ديورانت : دروس التاريخ ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٢٤

٣٠- المرجع السابق ، ص ٢٤

٣١- هندريك فان لون : قصة الجنس البشرى ، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد و أحمد الشنتناوى ، مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ج١ ، ص ١٠

٣٢- رالف لنتون : دراسة الإنسان ، ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٢

٣٣- د٠ر٠بيليم: الأصول البشرية ، ترجمة فاروق مصطفى إسماعيل ، عالم الفكر ، م٣،ع٤ ، ص ١٣٢

٣٤- المرجع السابق ، ص ١٣٣

٣٥- رالف لينتون ، مرجع سابق ، ص ٢٥

٣٦- إبراهيم أحمد رزقانة : الأنثروبولوجيا ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١١

٣٧- المرجع السابق ، ص ١٧

٣٨- رالف لينتون ، ص ٣٠

٣٩- إبراهيم رزقانة ، ص ٢٥

٤٠- بيليم ، الأصول البشرية ، ١٣٤

٤١- قصة الجنس البشرى ، ص ١٠

٤٢- المرجع السابق ، الصفحة نفسها

٤٣- أنور عبد العيم ، قصة الإنسان القديم ، ص ٥

٤٤- إبراهيم رزقانة ، ص ٣٧

٤٥- رالف لينتون ، ص ٤٣

٤٦- أحمد أبو زيد : النشوء والارتقاء ، عالم الفكر ، م٣،ع٤ ، ص١٠

٤٧- حسين فهيم : قصة الأنثروبولوجيا ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والإعلام ، الكويت ، عالم المعرفة (٩٨) ، فبراير ١٩٨٦ ، ص ٢٢

٤٨- أحمد أبو زيد : المجتمع القديم للويس مورجان ، تراث الإنسانية م٩،ع١،ص٦٣

٤٩- المرجع السابق ، ص٦٤

٥٠- يوسف عز الدين عيسى ، التطور العضوى للكائنات الحية ، ٨٩

٥١- حسين فهيم ، قصة الأنثروبولوجيا ، ص ١٢٣

٥٢- علم الدين كمال ، ص ٤٨

٥٣- المرجع السابق ، الصفحة نفسها

٥٤- قبارى إسماعيل :موت آدم لجون س٠جرين، تراث الإنسانية ، م٩، ع١، ص٩٠

٥٥- يوسف عز الدين عيسى : الداروينية فى الميزان ، عالم الفكر ، وزارة الإعلام ، الكويت ، م١١، العدد ٤يناير/مارس١٩٨١، ص ٢٩

٥٦- سهير مرسى (مترجم) : أصل الأنواع ، تراث الإنسانية ، م٩، ع١ ، ص ١٢٦

٥٧- رالف لينتون ، ص ١٨

٥٨- علم الدين كمال ، ص ٤٧

٥٩- يوسف عز الدين عيسى ، الداروينية فى الميزان ، ص ٥١

٦٠- المرجع السابق ، ص ٥٣

٦١-المرجع السابق ، الصفحة نفسها

٦٢- يوسف عز الدين عيسى ، التطور العضوى للكائنات الحية ، ١٠١

٦٣- المرجع السابق ، ص ١٠٢

٦٤- ديورانت ، مرجع سابق ، ص ٤٦

٦٥- المرجع السابق ، ص ٤٧

٦٦- White.Leslie.The Science of Culture: a Study of Man and Civilization .Farrar. Strans and Cudaly.N.Y.1949. p. 464

٦٧- أحمد أبو زيد : الطاقة والحضارة ، عالم الفكر ، وزارة الإعلام ، الكويت ، م٥، العدد الثانى يوليو/سبتمبر ١٩٧٤، ١٦٢
٦٨-المرجع السابق ، ص ١٦٣
٦٩- تشايلد ، ف.جوردون : التطور الاجتماعى ، ترجمة لطفى فطيم ، سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٣١
٧٠- المرجع السابق ، ص ٣٢
٧١- المرجع السابق ، ص ٣٦
٧٢- محمد السيد غلاب وزميله ، مرجع سابق ، ص ٢٠٩
٧٣- المرجع السابق ، ص ٢١١
٧٤- المرجع السابق ، ص ٢١٢
٧٥- أحمد أبو زيد ، المجتمع القديم ، مرجع سابق ، ص ٤٨
٧٦- أنور عبد العليم ، قصة الإنسان القديم ، ص ٩٣
٧٧-المرجع السابق ، ص٩٨
٧٨- إبراهيم رزقانة ، مرجع سابق ، ص٨٤
٧٩- المرجع السابق ، ص ٨٥
٨٠- تشايلد ، التطور الاجتماعى ، ص ٤٩
٨١- المرجع السابق ، ص ٥٠
٨٢- أحمد أبو زيد ، الطاقة والحضارة ، مرجع سابق ، ص ١٦١
٨٣- هاريس ، مارفن : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة السيد أحمد حامد ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص ٣٣
٨٤- المرجع السابق ، ص ٣٤
٨٥- حسين مؤنس : الحضارة ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم ، الكويت ، عالم المعرفة (١) ، يناير ١٩٨٧ ، ص ٧١
٨٦- أحمد ابو زيد : التطورية الاجتماعية ، عالم الفكر ، م٣، ع٤، ص ١١٨
٨٧- المرجع السابق ، ص ١١٩
٨٨- أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٧، ط٢، ج٢ ، ص ١٠
٨٩- المرجع السابق ، ص ١١

٩٠- أحمد أبو زيد ، الطاقة والحضارة ، ص ١٦٥

٩١- كاريذس ، مايكل : لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة ؟ ترجمة شوقى جلال ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، عالم المعرفة (٢٢٩) ، يناير ١٩٩٨ ، ص ٦٥

٩٢- العلق / ١-٢

٩٣- م.جمال الدين عياد : بحوث فى تفسير القرآن ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٣

٩٤- فاطر / ٣

٩٥- النور / ٤٥

٩٦- البهى الخولى : آدم ، عليه السلام ، مكتبة وهبة ، القاهرة . ١٩٧٤، ص١٧

٩٧- البقرة / ٣٠- ٣٣

٩٨ - يونس / ١٤

٩٩-محمد رشيد رضا : تفسيرالقرآن الحكيم ، المسمى: تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ،١٩٧٢، ج١ ، ص ٢١٥

١٠٠- محمود فرج الدرداش : وعلم آدم الأسماء كلها ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص١٤

الفصل الثانـــى
التربيــة البدائيــــة

مفهـوم البدائيـــة :

لا يدرك بعض المشتغلين بالبحث العلمى ، لسوء الحظ ، المهمة الكبيرة التى تقـوم بها الكلمات فى تنظيم العمل العلمى وتنظيم الملاحظـات والاستدلالات والنتـائج والقـدرة على التحكم فيها ، فمثل هؤلاء الباحثين كثيرا مـا يجـدون أنفسـهم وقـد انزلقـوا علـى طريـق اسـتعمال مصطلحـات لـم تـأخذ حقهـا مـن التدقيـق والتوضيـح ، فيكـون المعنـى المستخدم غامضا فضفاضا ، فلا بأس أن يقصدوا معنى ما ، ثم يتحولون إلى معنى آخر ، فى نفس النقطة والسياق ، ، ويعلنـون أنهـم سـوف يتحدثـون عـن فكـرة ، فـإذا بهـم يتحدثون عن شىء آخر ! ومن هنا فلابد أن نتوقف بعض الشــىء عنـد هـذا المفهـوم " البدائية " الذى يقوم الفصل الحالى عليه .

قال ابن فارس : " الباء والدال والهمزة ، من افتتاح الشىء " . وبدأ الشىء بدءا : حدث أولا ، و " البداء ة " : أول كل شىء ، و" البدأة " هى أول الحال والنشأة ، يقـال : كان ذلك فى بدأتنا ،و" البدائى " – بضم الباء – (فى علـم الاجتمـاع Primitive) الطور الأول من أطوار نشأة المجتمع ، والصورة الأولى للأشياء (١) .

و " مجتمع بدائى " ، المجتمع الذى (٢) :

– لا يعرف القراءة والكتابة .
– لا يعرف استعمال المعادن .
– يقوم تنظيمه الاجتماعى على الجماعات الاجتماعية (كالعائلة والفخذ والعشيرة ، بدلا من الدولة) .
– تقوم العلائق الاجتماعية ببين أفراده على أسس قرابية ومحلية .
– يكون المستوى التكنولوجى فيه واطئا .
– ينعدم فيه التخصص الاقتصادى .

ويشير المصطلح ، على وجه العموم إلى حالة توصف بالفجاجة ، وغياب التطور ، وشيوع الخشونة فى المعاملات والتصرفات السلوكية ، وتدنى فى نوعية الحياة والتفكير (٣) • وإذا كان هذا هو المعنى المجمل العام ، فإن هذا يقتضى بعض التفصيل مما نشير إليه فى النقاط التالية :

ا – فهناك سياقات يجىء فيها مصطلح البدائية مرادا به قصورا شديدا فى كفاية الوسائل المتخذة لتحقيق أهداف بعينها ، سواء أكانت هذه الأهداف صريحة أو مفهومة ضمنا ، فإذا أراد إنسان بالقاهرة أن يذهب إلى أسوان راكبا دابة من الدواب ، وصفنا هذا السلوك بأنه بدائى لأن الهدف أبعد كثيرا من أن يتحقق بهذه الوسيلة القاصرة ، لكننا لا نصف سلوك إنسان يذهب على قدميه إلى معهده الذى على بعد مئات من الأمتار بأنه بدائى بل نحمد له هذا على أساس أن " المشى " نوع من الرياضة المطلوبة •

وواضح أن معيار التفرقة هنا يتصل بالمجال التكنولوجى بصفة خاصة • وعندما نفاضل بين الثقافات نجد أن العصا المستخدمة للحفر – على سبيل المثال – تعد بدائية إذا قورنت بآلة مثل " التراكتور " ، و " طلمبة الماء " التقليدية التى كانت فى بيوتنا منذ سنوات ، ننظر إليها باعتبارها " بدائية " قياسا إلى ما تم تركيبه واستخدامه من شبكة للمياه تقوم على توصيل المياه إلى أماكن استخدامها للإنسان بالصنابير عن طريق الأنابيب ، والخيمة أو الكوخ شكلان بدائيان إذا قورنا بالبيت الحديث ، والنار العادية أو " الفرن البلدى " و " الكانون " أشكال بدائية مقارنة بمواقد الطهى الحديثة (البوتاجاز) ، ويمكن اعتبار مواقد الغاز الحالية بدائية إذا قورنت بمواقد أخرى بدأت فى الظهور تستخدم الطاقة الشمسية أو الذرية ••وهكذا • وبطبيعة الحال فإن الطرق البدائية تكون مجهدة للإنسان وبطيئة إذا قيست بتلك الحديثة التى تتسم بتوفير الجهد وبالسرعة وبالراحة •

ب – وربما تعنى البدائية " البساطة " فى مقابل " التعقيد " ، نظرا لما هو معروف من أن التطور يسير فى اتجاه من البسيط إلى المركب ، ويمكن ملاحظة هذا بكل سهولة ووضوح فى معظم الأجهزة والمعدات التكنولوجية ، بل والنظم الاجتماعية بمختلف

أنواعها وأشكالها . ومن الأمثلة اللغوية التى يمكن أن تساق فى هذا الشأن فقدان العلامات الإعرابية فى اللغة الإنجليزية ، حيث ينظر إليه كثيرون باعتباره حركة تخطو بنا نحو الوضوح ، فالبساطة هنا أمر إيجابى ، هذا بالمقارنة بالاحتفاظ بالعلامات الإعرابية فى لغة مثل اللغة الألمانية .

وربما يحدث العكس فاللغة الهيروغلوفية تعد لغة معقدة إذا قيست باللغة العربية المستخدمة اليوم ، والهيروغلوفية لغة عصور قديمة استخدمت كما نعرف قبل الميلاد بآلاف السنين ، فكأن الأبسط هو المعبر عن حركة التقدم ، بينما المعقد أو المركب كان معبرا عن تاريخ قديم للغاية .

ج - وإذا تأملنا الاشتقاق اللغوى امصطلح البدائية نجد أنه يوحى بمعنى للبدائية يجعلها تشير إلى نقطة فى " الزمان " - مبكرة - أو أولى ، فكأنها بهذا تشير إلى الصفحة الأولى فى كتاب التاريخ ، وهذا يتفق مع الإطار الفكرى الشائع بين المتعاملين مع التاريخ حيث ينظرون إليه على اعتبار أنه حركة سير " تبدأ " من عصور سحيقة فى القدم يصعب التعرف على ملامحها إلا عن طريق ما عثر عليه من حفريات ، مما يجعل النتائج غير مؤكدة الاستنباط ، ويستمر هذا السير فى خط مستقيم إلى أمام ونحو التقدم (٤) ، وفى القرآن الكريم نجده سبحانه وتعالى يقول : " قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق "(٥) ، ويقول كذلك : " وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون " (٦)

د - لكن مصطلح البدائية إذا كانت له من المعانى ما يتدنى به ، إلا أنه ، من الناحية اللغوية أيضا ، قد يشير إلى ما هو " أصلى " ، انظر ، مثلا ، إلى كلمة " مبدأ " فهى ترتد إلى الفعل " بدأ " ، التى يرتد إليها مصطلح " البدائية " ، وعندما نصف أحدا بأنه صاحب مبدأ فكأننا نصفه بما هو أصيل وممدوح .

ويشير معجم " وبستر " الموسع إلى استعمالات متعددة لكلمة " primitive "(المشتقة من primitif الفرنسية ، المشتقة من كلمة primitivus اللاتينية ، المشتقة من primus ، ومعناها : الأول) (٧) :

– ما يتعلق بالبداية أو الأصل ، الأقدم فى الزمن ، الأول ، الأصلى ، مثل : العصور الأولى للدين ، أجدادنا الأوائل •

– ما يتعلق بأقدم العصور كعصور البشرية أو المدنية ، أو أقدم الفترات ، كأقدم فترات المسيحية أو الفن ، مثل : الآلات القديمة ، أو الأخلاق القديمة ، الكنيسة القديمة ، ما يتصف به القدماء من فقدان المنظور المناسب •

– أصلى ، أولى ، جذرى ، غير مشتق من غيره ، مثل : الفعل غير المشتق فى النحو (٨)•

– يتصف بميزة أو مميزات تخص الحالة الأصلية للإنسان أو لمؤسسة من المؤسسات أو يقال إنها تخصها ، كميزات الطبيعة والرقة والبساطة إلخ ، مثل قولنا : العيش على الطبيعة •

– فى علم الأحياء : ا- أصلى primordial •ب-قديم ، بال ، غير متطور ، متشبث persistent - تقال عن فصيلة أو مجموعة يقارب تركيبها أقدم أنماط أسلافها ، كقولنا إن حيوان الأبوسوم من اللبونات البدائية ، أو إن حيوان التواتارا من الزواحف البدائية إلخ •

– فى علم الجيولوجيا : ما تشكل فى أقدم العصور ، أساسى – تطلق خاصة على الصخور البلورية فى أقدم الصخور المعروفة •

وعلى هذا فإن التربية البدائية هى ذلك الطور الأول من التربية الذى شهدته الحياة البشرية فى أوائل سيرتها ، وقبل نشوء الحضارات القديمة ، وبالتالى ، فمن الناحية الزمنية ، فهى تشمل العصر الحجرى القديم ، والعصر الحجرى الوسيط ، والعصر الحجرى الحديث ، ومرحلة الانتقال إلى العصور التاريخية ، حيث بدأت الحضارات القديمة ، مصرية وعراقية وهندية وصينية وغيرها •

لكن " التربية البدائية " يمكن ألا يقف معناها عند الحدود الزمنية إذ قد تعبر عن " نمط من الحياة " قد نجده فى قرون حديثة ، كالقرنين الثامن عشر أو التاسع عشر – على سبيل المثال – ويسمى نوع التربية القائم " بدائيا " حيث تتمثل فيه اتجاهات وفلسفة وأساليب التربية التى كانت قائمة فيما قبل التاريخ ، وهو الأمر الذى شوهد

بالفعل فى بعض المناطق التى انعزلت طويلا وقام بدراستها علماء التاريخ والآثار والأنثروبولوجيا .

وهناك عدد غير قليل من العلماء فى الوقت الحاضر لا يميلون إلى استخدام عبارات مثل " متوحش " و " غير متمدين " لوصف إنسان هذه الفترة الأولى من المسيرة البشرية ، كما يتجنب عدد من علماء الأجناس استخدام كلمة " بدائى " ليعبروا بها عن هذا الإنسان أيضا ، ويكاد معظمهم يستخدم عبارة " إنسان ما قبل التاريخ " للتعبير عن الإنسان الذى عاش قبل اختراع الكتابة منذ خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة . ولعل من المهم ألا نعادل الإنسان ما قبل التاريخ بالإنسان " البدائى " الذى أشرنا إلى وجوده فى العصر الحاضر فى بعض جهات العالم لمجرد أن هذا الإنسان الأخير لا يعرف الكتابة (٩) .

ومع هذا فإننا لا نستطيع إغفال استخدام كلمة " بدائى " إغفالا تاما ، فقد استخدمها المؤرخون وعلماء العلوم الاجتماعية على نطاق واسع مما جعلها مستمرة الظهور فى كثير من الحلقات العلمية . يضاف إلى هذا أننا لا نعرف كثيرا عن ثقافة إنسان ما قبل التاريخ ، إلا بما نستطيع أن نستدله من الدراسة المباشرة لثقافات البدائيين فى الوقت الحاضر (١٠) .

ومما ينبغى الإشارة إليه أن هناك استخدامات متخمة بكم من المعانى المغلوطة والتصورات غير السليمة خاصة بهذا الإنسان البدائى أو ما قبل التاريخ ، فالصورة الشائعة ، والتى كثيرا ما نراها فى كثير من الرسوم ، هى أن هذا الإنسان ضخم الجسم والرقبة ، لكن رأسه صغيرة ، وهو أشبه بالوحش ، ذو جبهة غائرة ، والأهم من ذلك ، أن يجر أنثاه من شعره ، ممسكا بهراوة غليظة ، وهذه الصورة المشوهة ، ترجع إلى مفاهيم وتصورات قديمة افتقدت قدرا كبيرا من الدقة . وإذا كان من الصعب إنكار وجود الجبهة الغائرة ، إلا أن هذه الجبهة كانت تخفى وراءها أدمغة قوية ، استطاعت أن تجعل الإنسان يتجاوز ما كان عليه من سوء حال وتخلف ومشقة ، ليشق طريقه إلى مراحل متطورة (١١) .

ولأن هذا المنظور هو الأكثر شيوعا ، فإن الأمر يحتاج إلى تسجيل ملاحظة ..

فمفهوم التطور الذى يسير فى خط مستقيم ، أو التقدم الذى يسير نحو الأعلى والذى يفضى فيه الشكل " الأدنى " السابق إلى شكل " أرقى " لاحق . هو مفهوم يغلب على كثير من أفكار من يكتبون عن الموضوعات التطورية ، بل إنه هو فى الواقع ما يعنيه التطور بالنسبة للكثيرين . لكن التطور فى حقيقة الأمر لا يحصل بتفرع الأشكال " الأرقى " من الأشكال " الدنيا " ، بل بحصول تغييرات داخل الجماعة تؤدى إلى اختلافها عن أسلافها . وقد تجعل هذه التغييرات المجموعة الجديدة أقل تعقيدا من السابق ، أو قد تجعلها أكثر تعقيدا ، لكن المجموعة الجديدة لا تصبح بالضرورة " أرقى " لمجرد ما حصل لها من تغيير ، بل تصبح " مختلفة " (١٢) .

البنيــة الأساسيــة :

من المقولات الأساسية التى أصبحت متداولة بين كل المشتغلين بالبحث التربوى أن التربية دالة ظروف اجتماعية واقتصادية وطبيعية تنشأ فيها ، وهذا يفرض علينا ، ونحن بصدد البحث عن معالم التربية البدائية أن نستقرىء جملة " المسرح " الذى حدث عليه ، مما نسميه بالنية الأساسية .

وإذا كنا قد سبق لنا أن بينا فى الفصل السابق مراحل ما قبل التاريخ ، فسوف يتركز حديثنا فى الفصل الحالى على أواخر هذه المراحل ، وخاصة عندما انتقل الإنسان من مرحلة الصيد إلى الرعى تمهيدا لتلك الثورة التاريخية الكبرى ألا وهى الزراعة .فلم يكن الإنسان مبتكرا حين اصطنع الصيد وسيلة للعيش ، ولو حصر الإنسان جهده فى نطاق الصيد لما كان أكثر من حيوان آكل للحم يضاف إلى قائمة أكلة الحيوان ، وإنما بدأت إنسانيته حين تطورت حياته من مرحلة الصيد التى يسودها القلق ، إلى مرحلة أكثر اطمئنانا وأوثق اتصالا واطرادا ، ونعنى بها حياة الرعى التى اقتضت ميزات عظيمة الخطر ، إذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن . ومن الصعب معرفة كيف بدأ استئناس الحيوان ولا متى بدأ ، فربما كان ذلك حين أبقى الصائدون على صغار الحيوان القتيل فى حلبة الصيد ، حين لم يروا لهذه الصغار حولا

ولا قوة ، فساقوها إلى مقر سكناهم ليتخذها أطفالهم لعبا يلهون بها . ولقد لبث الإنسان يأكل الحيوان الذى يمسك به على هذا النحو ، ولكن بعد إمهاله فترة من الزمن ، وأخذ يستخدمه أداة للنقل لكنه مع ذلك كاد أن يسلكه فى مجتمعه كأنما هو منهم (١٣) .

والذى ساعد على قيام العصر الحجرى الحديث هو العامل المناخى الذى تمثل فى أمرين رئيسيين هما : الدفء والجفاف . ويمكن القول بصفة عامة أن الحالة المناخية التى يعيش فيها العالم الآن هى الحالة التى بدأت مع العصر الحجرى الحديث أى منذ حوالى ٦٠٠٠ سنة ق.م (١٤).

والنتيجة الأولى المترتبة على الدفء هى انتشار العمران فى أجزاء العالم المختلفة ، والنتيجة الثانية هى زيادة معرفة الجماعات لبعضها واختلاط الجماعات ببعضها ، وسينتج عن هذا وجود سلالات جنسية خليطة ، وبصفة عامة يمكن القول إن الحالة الجنسية التى نجدها فى العالم فى الوقت الحاضر بدأت تتكون منذ العصر الحجرى الحديث ، ولم يقتصر هذا الاختلاط على تكوين السلالات الجنسية بل انتقل هذا الاختلاط إلى الخواص الاجتماعية فوجدت العلاقات بين الناس وبين بعضهم سواء أكانت علاقات سلمية أم علاقات حربية (١٥) .

وبالنسبة للجفاف فقد أدى وجوده إلى نتائج بعيدة المدى فى حياة الناس ، فمع انتشار الرطوبة كانت تنتشر الأنواع النباتية سواء كات غابات أو حشائش ، وكانت هذه الأنواع النباتية تمد الإنسان بمطالبه الرئيسية النباتية والحيوانية ، فلما وجد الجفاف كان لابد أن تنحصر السكنى فى كل قطر من الأقطار على شواطىء المجارى المائية وهى الأنهار (١٦) .

وقامت العلاقات بين الأفراد والجماعات على أساس القوة ، فوجود الحق والوفاء به كان متروكا لتقدير الشخص نفسه ، وهذه الحالة كانت سائدة خلال العصر الحجرى حيث عاش الإنسان على الصيد والقنص والزراعة البدائية ، وحيث كانت الديانة فى

أولى مراحلها من جديد . ويرجع قيام العلاقات على أساس القوة إلى عدة عوامل (١٧):

- عدم وجود سلطة عليا ، ذلك أن فكرة الدولة لم تظهر إلا بعد انتشار الزراعة فى العصر الحجرى الحديث ، وقبل ظهور نظام الدولة كانت كل جماعة تكون وحدة مستقلة عن غيرها من الناحية السياسية ، لذلك لم تكن هناك سلطة عليا تعترف بها الجماعات .

- عدم احترام حقوق الأجانب عن الجماعة ، إذ كانت كل جماعة تعتقد أنها أسمى من غيرها ، ونتج عن ذلك أن الفرد كان يعتقد أن قواعد السلوك التى يسير عليها مقصورة على علاقاته بغيره من أفراد جماعته .

- تضامن أبناء الجماعة الواحدة ، حيث أدت حياة التضامن المطلق بين أبناء الجماعة الواحدة مع شيوع الملكية الجماعية إلى مناصرة كل جماعة لأبنائها ظالمين كانوا أم مظلومين ، وقيامهم قومة رجل واحد للدفاع عن أموال الجماعة أو أعراضها إذا ما اعتدى عليها (١٨) .

كذلك من الملاحظ أنه فى مرحلة الصيد هذه تجمع لدى قبائل الرعاة ثروة من الأبقار أصبحت عاملا جوهريا فى تطور النظم القانونية ، إذ حل نظام الدية نهائيا محل الأخذ بالثأر ، واستجد نظام الإرث ، وتميزت طبقتان اجتماعيتان : عامة الناس من المحاربين ، مهنتهم الحرب والسلب لحماية الثروة وإنمائها ، والصفوة المختارة من الكهنة والسحرة لإنقاذ الثروة من المرض والجفاف (١٩) .

ولأن الثورة عبارة عن أبقار ، يتولى حمايتها والدفاع عنها الرجال ، أصبحت السيطرة بيد الرجل ، صاحب الثروة وحاميها ، فاتبعت البطون النظام الأبوى ونسبت الولد لأبيه وفرقت بين العصابات وذوى الأرحام وحظرت القبيلة على نسائها الزواج من القبائل الأخرى ، حرصا على بقاء الثروة بيد أصحابها .

ويمكن اعتبار العصر الحجرى الحديث هو عصر " الثورة الإنتاجية الأولى " فى تاريخ البشرية ، وهو المرحلة الاقتصادية الهامة التى تبين نهاية حياة الصيد وبداية اقتصاد المدن ، ففى هذا العصر ظهرت الزراعة وتم استئناس الحيوان وأصبح الإنسان

لأول مرة منتجا للطعام بعد أن كان مجرد مستهلك له ، ومن ثم تعتبر هذه الخطوة أول ثورة كبرى فى حياة الإنسان ، إذ نقلته من حياة الارتحال وراء فريسة يقتنصها أو حيوان يتتبع أثره أو بحثا عن ثمار يلتقطها إلى حياة الاستقرار فى قرى صغيرة بجانب قطعة أرض اختار لها نباتا معينا يضع فيها بذوره بنفسه ، ويظل يرعاها حتى تثمر ، أو حياة بدوية منظمة يرعى فيها حيوانا معينا اختاره من المملكة الحيوانية وروضه واستأنسه (٢٠)٠

ولا يجوز لنا أن نتصور الإنسان وقد قفز من الصيد إلى حرث الأرض بوثبة واحدة ، ويمكننا أن نصور لأنفسنا الإنسان الأول إذ هو يجرى التجارب على ألوف الأصناف التى تخرجها له الأرض من جوفها ، حتى لقد عانى فى سبيل ذلك ما عانى من ضيق ألم بجوفه ، لعله واجد أى صنف من هذه المنتجات يمكن أكله بحيث يكون مأمون العواقب ، ثم أخذ يجرى التجارب تلو التجارب فى مزج هذه الصنوف بالفاكهة والثمر وباللحم والسمك اللذين اعتادهما من قبل (٢١) ٠

ولقد قطن آباؤنا وأجدادنا الأوائل قرب الأنهار والينابيع ، وحاولوا الالتصاق بالأماكن التى تنمو فيها الحبوب ، وظلوا على تلك الحال إلى أن اكتشفوا أن تلك الأراضى نفسها يمكن أن تكون قريبة من أماكن سكنهم ، ولكنه غير معروف ما إذا كانت تلك الفكرة قد جاءت مصادفة أم نتيجة ذكاء الإنسان الذى أتعبه جمع الحبوب ٠ ومهما يكن من أمر فإن زراعة الإنسان للحبوب التى جمعها قرب الحواضر التى سكنها حدث لم يقع قبل الألف العاشرة ق٠م على وجه التقريب ٠ إن مئات المحاولات يمكن أن تذهب سدى ، ومئات منها يمكن أن تجدى ، وبالفعل بدأت تظهر مكان رقع الأرض القفراء أراض مروية ، خالية من الحجارة ، الأمر الذى يفترض معه زيادة كمية الحبوب التى كانت تجمع ، وإن كان لقرب الأرض المزروعة من المسكن فضل فى تلك الزيادة أيضا (٢٢) ٠

وكانت التجارة أعظم مثير للعالم البدائى ، لأنه لم يكن هناك ملك ، وبالتالى لم يكن هناك من نظم الحكم إلا قليل ، قبل أن تدخل فى حياة الناس وتجر وراءها ذيولها من أموال وأرباح ، ففى المراحل الأولى من التطور الاقتصادى كانت الملكية محصورة –

فى الأعم والأغلب – فى حدود الأشياء التى يستخدمها المالك لشخصه . وكان معنى الملكية هذا من القوة بحيث لازمت الأشياء المملوكة مالكها ، فغالبا ما دفنت معه فى قبره (وانطبق هذا على الزوجة نفسها) ، وأما الأشياء التى لا تتعلق بشخص المالك ، فلم تكن الملكية مفهومة بالنسبة إليها مثل هذا الفهم القوى ، فلا يكفى أن نقول إن فكرة الملكية ليست فطرية فى الإنسان ، إنما يجب أن نضيف إلى ذلك أنها فى مثل هذه الأشياء البعيدة عن شخصية المالك كانت من الضعف فى أذهان الناس بحيث تحتاج إلى تقوية مستمرة وتلقين مستمر(٢٣) .

والاقتصاد البدائى على وجه العموم يحدده علماء الأنثروبولوجيا بخمسة طرز هى (٢٤) : جمع الغذاء – الصيد وصيد السمك – الزراعة – الرعى وتربية الحيوانات – الصناعة والتجارة ، وإن هذا الطراز الأخير قل وجوده ، وإن وجد . ففى شكل بدائى بسيط للغاية . وللاقتصاد البدائى سمات مميزة هى :

- قيامه على المقايضة ، وليس على البيع والشراء .
- انعدام النقود بشكلها الذى عرفت به فى مجتمعات متحضرة ، ووجود نقود بدائية متنوعة .
- الاعتماد على محصول زراعى واحد فى أغلب الحالات .
- الإنتاج الذى يحقق مستوى الكفاف ، أى ما يكفى للاستهلاك فحسب ، والاقتصار على إنتاج المحاصيل الزراعية الاستهلاكية فقط .
- الملكية المشاعة للعائلة أو الفخذ أو العشيرة ، فى الأرض التى تزرع ، أو فى مصادر المياه ، أو فى مناطق الرعى أو الصيد ، واشتراك أفراد الجماعة كلها فى الإنتاج الزراعى ، والحيوانى ، فى الغذاء الذى يجمع والحيوانات التى تصطاد بأسلوب اشتراكى .
- انعدام المنافسة الاقتصادية .
- سيطرة التقاليد الاجتماعية ، والاعتبارات القبلية ، والمعتقدات الدينية ، على الفعاليات الاقتصادية .

وعلى الرغم من أن تقسيم العمل بمعناه الدقيق لم يظهر إلا فى المجتمعات المتحضرة ، إلا أنه ، وجد فى صورة شائعة فى كثير من المجتمعات على اختلاف درجة

تقدمها وتطورها ، هذه الصورة ، هى تقسيم العمل وفقا للجنس ، فقد عرفته الشعوب البدائية بغير استثناء • والواقع أن الاختلافات بين الجنسين ليست قاصرة – من وجهة نظر علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا – على الخصائص الفيزيقية والفسيولوجية وإنما هى تمتد إلى وظيفة كل منهما فى المجتمع ، كما تجد لها صدى فى تقسيم العمل بحيث ينفرد كل من الجنسين فى معظم الأحوال بممارسة أنواع معينة بالذات من العمل (٢٥)•بيد أن هذا التقسيم ليس تقسيما قاطعا فى كل الأحوال ، وكل ما فى المجتمعات البدائية لتوزيع الأعمال بين أفراد الجنسين بحيث تعتبر بعض الأعمال أشد التصاقا بأحد الجنسين منها بالجنس ، ودون أن يمنع ذلك من وجود بعض التداخل فى الاختصاصات حين تدعو الحاجة لاشتراك أفراد الجنسين فى القيام بنفس العمل •

وهناك نوع آخر من تقسيم العمل شاع فى المجتمعات البدائية ، وما زال ، ألا وهو الذى يتم بحسب اختلاف السن ، ويقوم هذا التقسيم للعمل من طبيعة المراحل العمرية التى يمر بها الإنسان أثناء حياته ، فكل مرحلة من هذه المراحل ترتبط بأعمال معينة يمارسها الفرد ، وهى أعمال تتفق إلى حد كبير مع قواه الفيزيقية وقدرته على تحمل مشاق العمل من ناحية ، كما ترتبط بالمركز الاجتماعى الذى يحتله الفرد نتيجة لمروره فى إحدى هذه المراحل العمرية (٢٦) •

وكان التنقل من مكان إلى آخر أبطأ وأصعب فى الماضى مما هو الآن ، والبعض يميلون إلى أن يستنتجوا من هذا أن الإنسان البدائى عاش قليل الحركة ، وأنه لم يذهب بعيدا عن مكان اختبائه • وهذا الاستنتاج خطأ ، فنحن نلحظ – من جهة – أن سرعة المواصلات لم تزد زيادة واضحة إلا فى عصر البخار ، أى منذ قرن مضى • وكان الأقوام البدائيون يستطيعون أن يتحركوا فى سرعة كسرعة جنود " نابليون " وأحيانا أسرع • ومن المتفق عليه الآن أنه كان هناك سفر كثير ، فردى وقبلى (هجرات) فى الأزمنة الأولى التى يستطيع البحث العلمى أن يصل إليها ، فالأمريكتان – مثلا – كشفتا واستعمرتا منذ آلاف السنين على يد أقوام جاءوا من سيبريا ، عابرين منطقة " بيرنج " ، فكل هندى أمريكى يرجع إلى أصل آسيوى ، وكانت الهجرات – على الراجح – أكثر حدوثا وأوفر عددا فى أقدم أزمنة ما قبل التاريخ أى قبل الاهتداء إلى الفنون الزراعية ،

فإنه منذ بـرع الإنسـان فـى تلـك الفنـون أصبـح بطبيعـة الحـال أكـثر قـرارا وأشـد حـذرا (٢٧)٠

الثقافـــة البدائيـة :

هل نستطيع أن نتناول التربية البدائية متجاهلين ما كانت عليه الثقافة البدائية ؟ إن هذا لا يجوز إذا كان الموضوع هو التربية على وجه العموم فى أى زمان وفى أى مكان ، فما بالنا بهذه العصور بالغة القدم ، حيث كـان الـترادف واضحـا بيـن " الحيـاة " , " الثقافة " و " التربية " ؟

لقد كتب فولتير Voltaire فـى " مقـال عـن العـادات " : " أريـد أن أعـرف مـا هـى المراحل التى مر بها الناس من حالة البدائية إلى حالة التحضر " ٠ ونحن جميعـا ، فـى الحقيقة نريد أن نعرف ذلك ، إذ على الرغم من التقدم العظيم فى التنقيبات الأثرية الـذى مكننـا مـن إماطـة اللثـام علـى الأقل عـن عـدة حضـارات مثـل : المصريـة والسـومرية والبابلية والحيثية والكريتية ، لم نقترب من الإجابة على هذا السـؤال أكـثر مـن اقـتراب فولتير نفسه !! إذ أن كل ما نعرفه فحسب هو كم عدد السنين التى علينـا أن نعـود بهـا إلى الوراء لنكتشف أن الناس كانت لهم بالفعل حضـارة ما (٢٨) ٠

وقد يكون برهان الفن برهانا مضللا ، فصور الكهوف ، بل حتى النحت فـى العصـر الباليوليثى أو العصر الحجرى القديم (من حوالى ١٠٠,٠٠٠ق٠م) يعد رفيـع المنزلـة لو حكمنا عليه بالبرهان الراهن بمقارنته بأى شىء أنتج خلال العصر الحجرى الحديـث (حوالى ٥٠٠٠ ق٠م) اللهم فيما يتصل بالفخار ٠ ولا تعد رسومات كـهف " دوردونــى Dordogne " و " الأندلس " قطعا فنيـة رائعـة فحسـب ، بـل هـى بوضـوح جـزء مـن تقليد له بالفعل بعض القدم ، ولا يمكننا أن نتصورها سواء على أنـها هوايات " منفصلـة " أو أعمالا لبعض العباقرة غيرالعاديين ٠ ومــن المحتمـل أن تكـون أعمـال العبـاقرة قـد اندثرت ، وأن هذه هى فحسب الجهود التقليدية لرسامين كانوا يؤجرون باليومية ٠

والذى يمكن أن نبرزه فى مجالنا الحالى هوالدور الذى قام به كل مـن " الاكتشـاف " و " الاختراع " فى تطويـر الثقافـة ٠ ويفـرق ديورانـت بيـن الاكتشـافات والاختراعـات ،

فالاكتشاف هو إضافة للمعرفة ، فى حين أن الاختراع هو تطبيق جديد للمعرفة (٢٩)٠ وكل تطبيق جديد للمعرفة يتطلب ممارسة تلك الوظائف العقلية التى تشكل ملكا ينفرد به الأفراد ، فالمجتمعات بمفهومها المعروف غير قادرة على التفكير ، وبالتالى غير قادرة على الاختراع ٠ وعلى أكثر تقدير يمكن القول إن ظروف الحياة الاجتماعية قد تمكن عددا محدودا معينا من الأفراد من العمل معا على حل مشكلة بحيث يشحذ كل منهم فكر الآخر عن طريق تبادل الآراء ، ويسهم بعناصر مختلفة تساعد فى النهاية على التوصل إلى الاختراع ، أما المجتمع بكليته فلا يشترك فى مثل هذه النشاطات ٠

لكن " الوضع الاجتماعى " له دوره الذى لا ينكر فى " التحفيز " على الاختراع ، فإذا كنا قد عرفنا الاختراع بأنه تطبيق جديد للمعرفة ، فعند تأمل هذا التعريف يتبادر إلى الذهن حالا أن المعرفة يجب أن تسبق الاختراع ٠ ومع أن المعرفة التى تدخل فى اختراع جديد قد تكون مستمدة جزئيا من اكتشاف جديد ، فإننا نجد دائما أن معظمها يستند إلى ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه المخترع ، فكل مخترع ، حتى ذلك المخترع الذى ينتج اختراعا أساسيا يبنى على ثروة المعارف المكتسبة التى تجمعت على مر الزمن ، وكل شىء جديد لابد أنه ينشأ مباشرة عن أشياء أخرى سبقته ، ولذلك فإن محتوى الثقافة التى يعمل فيها المخترع تفرض دوما حدودا على ممارسة المخترع لقدراته الإبداعية (٣٠) ٠

ومن هنا نستطيع أن نرى أن الإنسان ، إذ هو لم يزل فى مراحل الصيد والرعى والزراعة ما انفك مخترعا ، فكان الإنسان البدائى يشحذ زناد عقله لعله يجيب لنفسه إجابات عملية عما تثيره الحياة الاقتصادية فى وجهه من مسائل ، فقد كان الإنسان ، بادىء ذى بدء ، راضيا – فى ظاهر الأمر – بما تقدمه له الطبيعة ٠ كان راضيا بثمار الأرض طعاما ، وبجلود الحيوان وفرائه لباسا ، وبالكهوف فى سفوح التلال مأوى ، ثم تلا ذلك – فيما نظن – أنه أخذ فى تقليد آلات الحيوان وصناعته ، فلقد رأى القرد وهو يقذف بالحجارة ، وثمار الفاكهة على أعدائه ، أو يكسر الجوز والمحار بالحجر ، ثم رأى كلاب الماء تبنى لنفسها سدودا ، والطيور تهيىء الأعشاش والعرائس ، والشمبانزى تقيم بيوتا شبيهة جدا بما يقيم الإنسان من أكواخ ، فأخذ من فوره يعد لنفسه آلات وأسلحة على غرار ما للحيوان (٣١) ٠

وأخذ المخترعون فى العصر الحجرى الحديث شيئا فشيئا يوسعون ويحسنون آلاتهم وأسلحتهم ، فها هنا ترى بين مخلفاتهم بكرات ورافعات وملاقط وفؤوسا ومعازيق وسلالم وأزاميل ومغازل ومناسج ومناجل ومناشير وأشصاص السمك وقباقيب للانزلاق على الثلج ومشابك صدر ودبابيس . ثم هاهنا فوق هذا كله نرى العجلة ، وهى مخترع آخر من مخترعات الإنسان الأساسية ، وضرورته متواضعة من ضرورات الصناعة والمدنية ، فهى فى هذه المرحلة من العصر الحجرى كانت قد تطورت إلى قرص وإلى أنواع أخرى من العجلات ذوات الأقطار ، وكذلك استعملوا كل صنوف الحجر فى هذه المرحلة ، حتى العصى منها كالحجر الزجاجى الأسود ، فطحنوه وثقبوه وصقلوه ، واحتفرت الصوانات على نطاق واسع (٣٢) .

ومعظم الاكتشافات والاخترراعات كانت تتم ، فى غالب الأحوال ، مصادفة ، ويمكن أن نسوق مثالا على ذلك اكتشاف فوائد النار ، فقد كانت الأرض فى العصور السحيقة – أى قبل ملايين السنين – كثيرة النيران من براكين وشهب متساقطة وحرائق مستعرة فى الغابات ، ثم أخذت هذه النيران تقل ، وعندما بدأ الإنسان مسيرته على هذا الكوكب كانت النيران لا زالت كثيرة فتعود الإنسان أن يعيش غير بعيد عنها التماسا للدفء فى الشتاء وطلبا للأنس فى وحشة الليل ، ثم حدث أن احترق حيوان فشم الإنسان للحم المحترق رائحة طيبة ، وعندما تناول جسد الحيوان المحترق وجد اللحم قد لان وطاب طعمه فتنبه إلى هذه الحقيقة ، وصار إذا صاد حيوانا ألقى به فى النار ليلين لحمه ويطيب طعامه (٣٣) .

وبهذا تفطن الإنسان إلى بعض فوائد النار ، فصار يحرص دائما على أن يأخذ قبسا من النار الطبيعية المشتعلة ليشب بها وسط موضع مقامه ، ثم يستمر فى تغذيتها بالحطب حتى لا تنطفىء ، ودخلت النار حياته وأصبحت جزءا منها . واستخدم النار ، لا فى طهو الطعام فقط بل فى تليين المعادن وتشكيلها فى الصورة التى يريد . وعندما تمكن من صنع إناء من المعدن عرف تسخين الماء .. وهكذا الأمر فى كثير من الاكتشافات والاختراعات (٣٤) .

وليس من شك فى أن من أكبر المشاكل التى واجهت الإنسان القديم هى إيجاد طريقة لإشعال النار عمدا عن طريق صنع شرارة ، ولذا يعتبر اكتشاف صنع الشرارة من طرق قطعتين من الصخر من نوع معين كالصوان مثلا خطوة جبارة فى طريق التقدم • ولقد كانت النار فى بداية الأمر تظل مشتعلة طيلة الوقت وذلك قبل أن يتمكن الإنسان من اختراع وسيلة لإشعالها حين يريد ذلك • ويعتبر ذلك أحد الأسباب الرئيسية فى أن كثيرا من الشعوب القديمة كانت تنظر إلى النار على أنها شىء مقدس (٣٥)•

ويبدو أن استخدام النار كان أسبق على استخدام الطاقة الكامنة فى الماء والرياح ، مع أن الإنسان كان يدرك من خبرته اليومية قوة الرياح وما تستطيع أن تلحقه من خسارة وتدمير وتلف لصالحه • وربما كان استخدام الماء كمصدر للقوى أهم بكثير فى تاريخ الحضارة من استخدام الرياح • والأغلب أن الإنسان أدرك من خبرته ومشاهدته للمياه الجارية التى تجرف أمامها العوائق ، كما تحمل جذوع الأشجار الضخمة التى تسقط فى مجراها كيف يستطيع أن يستخدمها فى نقل الأجسام الثقيلة عن طريق تحميلها فوق ألواح مسطحة من الخشب (٣٦) •

وإزاء مثل هذه الاكتشافات والاختراعات التى لا تعد ولا تحصى فى مسيرة التطور الحضارى ، طرح " م•كاريذرس M.Carrithers " سؤالا مؤداه : لماذا أنتج أو ابتكر البشر هذه الصور المتعددة المتنوعة والمتباينة من أساليب الحياة ، أى الثقافة ؟ وهو يجيب على هذا التساؤل بنفسه مشيرا إلى ما أسماه " بروح المعاشرة الاجتماعية " والتى يعرفها بأنها القدرة على أداء السلوك الاجتماعى المعقد (٣٧) ، فالناس يفعلون ما يفعلون من أشياء عن طريق استخدامهم الوسائل التى يمكن أن نصفها إذا شئنا ذلك ، بأنها أشياء ثقافية ، وذلك من أجل بعضهم البعض ، وبالتعاون مع بعضهم البعض ، وفيما يختص ببعضهم البعض (٣٧)•

والشعوب البدائية ، وإن تباينت فى كثير من الأمور ، فإنها تتشابه فى نقطة أساسية مهمة ، هى نسبة الحياة إلى الجماد أثناء تفسيرهم للبيئة المحيطة بهم ، ذلك أن الرجل البدائى يعتقد أن وراء كل قوة مادية قوة أخرى غير مادية هى القوة الروحية أو " المثيل " الذى يسيطر على كل كائن مادى ، ويعلل وجوده ويفسر مقاومته لإرادة

الإنسان ، ويجعل منه مفسرا لشعور لا يختلف في نوعه عن ذلك الشعور الذى يمتاز به الإنسان ، فعالم " الأشياء " هو عالم روحى شبيه بعالم الكائنات المادية . وعلى هذا الأساس يمكن تفسير الظواهر العادية للحياة وللطبيعة ، أما الأحداث غير العادية فيمكن تفسيرها على هذا المنوال ، ولكن يستدل منها على تدخل بعض الأرواح الطاهرة ، إذا كانت نتائج الأحداث طيبة ، وعلى تدخل الأرواح الخبيثة إذا ارتبطت بنتائج ضارة (٣٨).

واعتقد الرجل البدائى – فى إيمان راسخ – أن رمز الشىء ، مثل رمز الروح ، فهو لا يمثل الروح ، بل يحتوى على كنهها ، فرمز الشىء هو الشىء ذاته ، فإذا حطم فرد تمثالا لروح أو إله ، فهو بذلك قد حطم الإله نفسه . ويلاحظ أن رسوم الروح من المحرمات ، وكذلك التلفظ بها ، وإنما أعطى هذا الشرف العظيم لرجل الدين ، وفى لحظة مقدسة (٣٩) .

والبدائى كان يوزع نشاطه على العمل والعبادة ، وبواسطتهما معا ، يتوصل إلى إرضاء شهواته التى تقتصر فى البداءة على اثنتين : الجوع – الحب ، ونعنى بالجوع هنا ، كل الرغبات الجسمانية التى لها علاقة بالشخص نفسه ، كالعطش والحاجة إلى الملبس والمأوى والراحة .. إلخ ، ونقصد بالحب ، كل ميوله التى لها ارتباط بالآخرين ، كحب الظهور وملاذ الأسرة .. إلخ ، فالأولى هى منبع كل الإحساسات النفسية ، والثانية كل الميول الاجتماعية ، فبالعمل أشبع جوعه (كما عرفناه) هو وأسرته ، وبالعبادة وقاهم جميعا من أخطار تلك القوى التى يتخيلها فيما وراء الظواهر الطبيعية والتى يعجز بقوته عن دفعها .

فقواعد العمل لديهم ، كانت أساس الأخلاق ومبدأ السياسة .

واعتقاداتهم فى العبادة ، كانت مبدأ الدين أولا ، وبعد ذلك صارت أساسا للعلوم والفنون والفلسفة .

فى العمل يستعمل الإنسان الأشياء ، وفى العبادة " روح " أو أسماء تلك الأشياء .

ويلاحظ أن هذا المجتمع البدائى كان على قدر كبير من التخصص فى حفظ الحياة البشرية ، لا لسبب إلا لأنها فى غاية البساطة ، كما أنه حل مشكلة حياته ، وربما كان هذا هو السبب الأول فى أن هذه المجتمعات ليست لها صفحة فى سجل التاريخ ، ولا أثر للمناطق التى سكنوها فى الأطلس التاريخى (٤٠) • وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن التاريخ يعنى – غالبا – بتسجيل الأحداث والصراعات ، وقلما يلتفت إلى الحياة التى تمر هادئة بسيطة لا أثر لإشكالات أو تعقيدات •

وبالنسبة للعلوم ، فإن أسلافنا فيما قبل التاريخ دأبهم كدأب الأقوام البدائيين الذين استطاع علماء الأنثروبولوجيا ملاحظة أمثلة منهم فى العصر الحديث ، تمكنوا – فى المجال الطبى – أن يجربوا كثيرا من أنواع النبات والأشياء الأخرى وأن يصنفوها فى مجموعات متنوعة تبعا لمنفعتها أو خطرها (٤١)، فالرعاة لابد أنم يكونوا تعلموا طرقا بسيطة لتجبير العظام المكسورة أو المخلوعة ، وبالضرورة استخدام التوليد ، واستطاعت المولدات الذكيات أن يدخلن تحسينات فى وسائلهن ، ويعلمنها للصغار من مساعديهن • وفى كل هذه الحالات كان المعلم الجيد الصارم حاضرا على الدوام ، وذلك هو الضرورة ، فإذا تهشمت ذراع رجل من عضة حيوان مفترس ، أو صدمة حجر ساقط ، وإذا انكسرت ساق إنسان ، وإذا زاد التعب على امرأة حين مخاضها ، كان لابد فى كل هذه الأحوال من اتخاذ إجراء سريع • ونستطيع أن نكون فكرة عن طب ما قبل التاريخ إذا وازناه بعمل نصفه تجريبى ونصفه سحرى ، وهو ما درج عليه رجال الأدوية البدائية (٤٢)•

والأرجح أن يكون أول من امتهن حرفة الطب هن من النساء ، لا لأنهن الممرضات الطبيعيات للرجال فحسب ، ولا لأنهم جعلن من فن التوليد – أكثر مما جعلن من مهمة الارتزاق – أقدم المهن جميعا فحسب ، بل لأن اتصالهن بالأرض كان أوثق من اتصال الرجال بها ، فأتاح لهن ذلك علما أوسع بالنبات ، ومكنهن ذلك من التقدم بفن الطب ، وميزته عن التجارة بالسحر التى كان يقوم بها الكهنة ، فمنذ أقدم العصور ، حتى عصر يقع فى حدود ما تعيه ذاكرتنا ، كانت المرأة هى التى تباشر شفاء المرضى ، ولم يلجأ المريض عند البدائيين إلى طبيب يشفيه أو إلى ساحر إلا إذا أخفقت المرأة فى أداء هذه المهمة (٤٣) •

أما المعرفة العلمية ، فلابد أن نتذكر أن الرغبة فى الاستطلاع من أعمق الخصائص البشرية ، وهى على أية حال الباعث الأول إلى المعرفة العلمية منذ القديم ، كما هى حتى العصر الحاضر • وإذا قيل أن الحاجة أم الاختراع والتقدم الصناعى ، فإن الرغبة فى الاستطلاع أم العلم • وربما لم تختلف بواعث رجال العلم البدائيين (مع الفارق بينهم وبين الفنيين والدينين البدائيين) اختلافا كثيرا عن بواعث علمائنا المعاصرين ، مع التسليم بالاختلاف الواسع من رجل إلى آخر ، ومن زمن إلى زمن ، وهو اختلاف شامل فى الماضى كالحاضر جميع مستويات الرجال من الإنكار الذاتى التام ، والاستطلاع الجرىء ، والمخاطرة ، وهكذا إلى الطموح الشخصى ، والزهو الزائف والنفخة الكاذبة والحسد (٤٤) •

وربما كا العد من أول ما شهد الإنسان من صور الكلام ، ولا يزال العد فى كثير من القبائل البدائية فى العصر الحديث يتم بصورة تبعث على الابتسام لبساطتها •ولقد كان العد وسيلته الأصابع ، ومن هنا نشأ النظام العشرى ، ولما أدرك الإنسان فكرة العدد اثنى عشر ، والأغلب أن يكون أدركه بعد حين من الزمان ، فرح به لأنه كان مريحا للنفس بقبوله القسمة على خمسة من الأعداد الستة الأولى ، وهنا ولد النظام الإثنا عشرى فى الحساب وهو نظام لا يزال قائما ، لا يريد لنفسه الزوال ، فى المقاييس الإنجليزية حتى اليوم ، فإثنا عشر شهرا تكون عاما ، وإثنا عشر بنسا تكون شلنا ، و " الدستة " إثنا عشر" ، و" الجروسة " إثنا عشر " دستة ، والقدم إثنا عشر بوصة (٤٥)•

أما العدد ثلاث عشر ، فهو على عكس سالفه ، يأبى الانقسام ، ولذا أصبح بغيضا عند الناس ومبعثا للتشاؤم إلى الأبد • ولما أضيفت أصابع القدمين إلى أصابع اليدين ، تكونت فكرة العشرين ، ولا يزال استعمال هذا العدد فى العد ظاهرا فى قول الفرنسيين " أربع عشرينات " ليبدلوا على " ثمانين " •وكذلك استخدمت أجزاء أخرى من البدن معايير للقياس ، فاليد كلها " للشبر " ، والإبهام للبوصة (اللفظتان فى الفرنسية ينوب عنهما لفظة واحدة تؤدى المعنيين) ، والذراع حتى المرفق للذراع ، والذراع كلها لمقياس آخر (يسمى ذراع الهندازة) ، والقدم للقدم • وفى عصر متقدم أضيفت الحصوات إلى الأصابع لتعين على عملية العد ، ومن هنا جاء اسم " الإحصاء " فى

اللغة العربية ، ولا تزال الكلمةالإنجليزية للعد Calculate تشير بأصلها اللغوى إلى أصل معناه " حجر صغير " (٤٦) .

فإذا جئنا إلى المعرفة الفلكية ، فسوف نجد أنه من المستحيل على عقل مفكر أن يلاحظ تلك النجوم ليلة بعد ليلة دون أن يسأل نفسه عددا من الأسئلة ذات طابع علمى فى أساسها . ولم يكن باستطاعة الأقوام الأولين – ولا سيما الذين أغراهم جوهم الحار بقضاء الليالى خارج بيوتهم – أن يلحظوا طول السنة تغير مواضع الشروق والغروب ، وأوجه القمر ، وحركة القمر النظامية إلى الشمال بين النجوم (على أطوال مختلفة من الارتفاع ، ولكن بنفس السرعة تقريبا) ، وظهور بعض الأبراج واختفائها الموسمى ، وحركات كوكب الصباح وكوكب المساء وكواكب أخرى (٤٧) .

التنظيم الاجتماعى :

ومن المسلمات التربوية ، أنها عملية اجتماعية فى الأساس ، يمارسها المجتمع عبر مؤسسات مباشرة أو غير مباشرة ، سعيا منه لتحقيق أهداف معينة ، أبرزها ، أن تسهم العملية التربوية فى إلحاق الأجيال الجديدة بالتنظيمات الاجتماعية المختلفة، مما يوجب أن يكون لهذه التنظيمات دورها فى تكييف العمل التربوى وفقا له ، سواء بفهم القائم منها ، أو نقده ، أو تطويره ، وكل هذا مما يوجب علينا أن نكشف عن التنظيم الاجتماعى فى هذه العصور التى وصفناها بالبدائية ، حتى يتوافر لنا فهم أشمل وأكثر عمقا للتربية البدائية .

والنظام الاجتماعى هو الإطار الخارجى الذى تعيش بداخله الجماعات البشرية ، ويقصد به مجموعة الأحكام التى يخضع لها الفرد كما تخضع لها الجماعة ، مثل أحكام الزواج والملكية والميراث والقرابة وغير ذلك من الأمور التى تعتبر أسس علاقات الناس ببعضهم أو شرائع يتعاملون بمقتضاها أو قواعد لتنظيم حياتهم ، ولذلك يمكن أن نسمى هذه الأحكام بالأسس أوالقواعد ، كما يمكن أن نسميها بالشرائع أو النظم (٤٨) .

ومن هنا فإننا نتعامل مـع التنظيم الاجتمـاعى باعتبـاره واسطة أو وسيلة للتنشئة والتربية ، فعن طريقه تتعلم الناشئة الكثير مما يتصل بالمفـاهيم العامـة والأحكام التـى تنظم والقيم التى توجه العمل الاجتماعى والعلاقات بين أفراد المجتمع ٠

ولربمـا يتبـادر إلـى أذهاننـا سؤال يتصل بكيفيـة تكويـن مـا يتمخض عنـه التنظيـم الاجتماعى من أشكال ونظم ، فهل يمكـن أن ننسب إلـى هـذا أو ذاك مـن الأفـراد فكـرة اكتشافه أو اختراعه ؟ أم هى تكوينات " طبيعية " ؟

الحق أن ما يمكن التأكيد عليه أن التنظيمات الاجتماعية هى عمـل إنسـانى بالدرجـة الأولى ، أى من ابتكار الإنسان ، لكنها لا تنسب إلى أحد بعينه ٠ وهى فى الوقت نفسـه ما كان لها أن تقوم إلا بدوافع فطرية ، ولعل أبسـط وأشـهر مـا يمكـن أن نسـوقه مثـالا على ذلك " الأسرة " ، فهى مما لا شك فيه ، تقوم على هذا الدافع الجنسى الطبيعى لـدى كل من الذكر والأنثى أحدهما تجاه الآخر ، ووجه الإنسانية فى النظام الأسرى يتأكد مـن أن الدافع الجنسى موجود لدى كل الكائنات الحية ، لكنها لا تستطيع تشكيل أسرة ، هذا فضلا عن كم كبير من أشكال العلاقـات والعـادات والتقـاليد والقيم تتصل بالأسـرة ، بـل والدوافع الأخرى التى تكونت نتيجة تراكم الخبرة البشرية الطويلة ٠

ونفس الشىء نستطيع تعميمه على النظم الاجتماعية الأخرى ٠٠

ومن المعروف أن فى مقدمة الحاجات الأساسية للإنسان ، حاجته إلى الطعام ، وإلى الجنس ، ومن ثم اتجهت المهمة الأولى للتنظيـم الاجتمـاعى نحـو كيفيـة ضمـان إشـباع معقول لكل من هاتين الحاجتين الأساسيتين ٠ ولم تكـن الحاجـة إلـى الجنـس تقف عند مجرد الإشباع الغريزى الذى يجده كل من الرجل والمرأة أحدهما عند الآخر ، إذ يتصل بهذا الإشباع حاجة الإنسان إلى الامتداد الزمنى من خلال " نسل " يتمثل فى أبناء ، وقـد تم ذلك على وجه التقريب من خلال " القبيلة " التى أنيط بها تنظيم العلاقة بين الجنسـين ، وتوفير فرص مأمونة للحصول على الطعام ٠

وإنه لبعيد الاحتمال أن يكون الإنسان الأول قد عاش فى أسرات متفرقة ، حتى فى مرحلة الصيد ، لأن ضعف الإنسان فى أعضائه الفسيولوجية التى يدافع بها عن نفسه ، كان مشجعا لأن يجعل منه فريسة ميسورة للحيوانات المتوحشة التى كانت منتشرة تجوب أنحاء كثيرة ، فالعادة التى أودعها الله فى الحيوانات على وجه العموم والإنسان على وجه الخصوص ، أنه إذا كان الكائن العضوى ضعيف الإعداد للدفاع عن نفسه وهو فرد ، لجأ إلى الاعتصام بأفراد من نوعه ، لتعيش الأفراد جماعة تستعين بالتعاون على البقاء فى عالم تمتلىء جنباته بالأنياب والمخالب (٤٩) .

ومن المرجح أن هذه كانت حال الإنسان فى مبتدأ أمره ، إذ استطاع بهذه الوسيلة أن ينقذ نفسه بالانتساب بجماعة كبيرة ، ظهرت فى مجتمع الصيد فى البداية ، ثم من خلال قبيلة بعد ذلك . فهاهنا قام التنظيم الاجتماعى على صلات الدم والقرابة ، فلما تطور الوضع إلى أن تحل العلاقات الاقتصادية والسيادة السياسية محل هذه النوعية السابقة ، لم تعد القبيلة هى التنظيم المناسب الذى يتشكل منه المجتمع ، وظهرت الأسرة فى قاعدة المجتمع ، والدولة فى أعلاه .

وهكذا أصبحت جميع المجتمعات تعترف بوجود الأسرة كوحدات تعاونية ، وثيقة الارتباط ، ومنظمة تنظيما داخليا ، تحتل مكانا وسطا بين الفرد والمجتمع الكلى الذى يشكل الفرد جزءا منه ، وينسب كل شخص إلى إحدى هذه الوحدات على أساس العلاقات البيولوجية التى يقررها التزاوج أو السلف المشترك (٥٠) . وهذه الوحدات يكون لها دائما وظائف معينة بالنسبة إلى أعضائها وإلى المجتمع كله ، فبالنسبة للفرد تتضمن العضوية فى الوحدة حقوقا وواجبات معينة تجاه الأعضاء الآخرين ، وكذلك سلسلة المواقف التى تكون إجمالا محددة تحديدا واضحا .

وأصبحت الأسرة هى البؤرة التى تتركز فيها مصالح أعضائها وولاؤهم ، فأولئك الذين ينتمون إليها كانوا ملزمين بحكم الواجب بأن يتعاونوا فيما بينهم ، وأن يساعد الواحد منهم الآخر ، وأن يضع كل منهم مصلحة الآخر فوق مصالح الغرباء . وكان التفاعل بين الأشخاص الداخلين فى الوحدة وثيقا ومتصلا ، وكذلك الأمر بشأن التكيف المتبادل بينهم (٥١) .

وعلى طول التاريخ القديم ، تركزت الوظائف التى تؤديها الأسرة بالنسبة للفرد في الوظائف الأساسية التالية(٥٢) :

- إشباع الحاجات الجنسية وإضعاف الطاقة الهدامة للمنافسة الجنسية .
- وتوفر للمرأة الحماية أثناء فترة الحمل الطويلة ، وكذلك أثناء أشهر وسنوات الرضاعة .
- وهى جماعة ضرورية لغرس الثقافة ، فالوالدان المقيمان إقامة دائمة مع الأطفال لديهم المعرفة الملائمة التى تتطلبها عملية غرس الثقافة والتى يخضع لها الأطفال من كلا الجنسين .
- لقد فرض دور المرأة فى الإنجاب ، وكذلك الاختلافات التشريحية والفسيولوجية بين الجنسين أفعالا ترتبط بها دون الرجل مما ترتب على ذلك ظهور تقسيم للعمل يقوم على أساس الجنس يعتبر أكثر فعالية لمعيشة الأسرة .

لكن شكل الأسرة ونوعية واتجاه العلاقات ومركز السلطة فيها تغير وفقا لمراحل التطور التاريخى ، ففى مجتمع الزراعة البدائية شعرت المرأة بأهميتها القصوى فى الاقتصاد الاجتماعى واحتلت مكانتها بالتساوى مع الرجل فى التنظيمات السياسية ، بل انتزعت منه الصدارة فى نظام الزواج والأسرة ، فالبطون كانت أموية ، وانحدر النسب عن طريق الأم ، واتبعت فيما بينها نظام الزواج من الخارج ، فكان يحظر على أعضاء البطن الواحدة الزواج فيما بينهم ، وأكد الدين القائم هذا الحظر واعتبر مخالفته معصية ، ولا شك أن الزواج من الخارج كان يناسب مجتمعات الزراعة المتنقلة ، لحاجتها إلى زيادة الأيدى العاملة (٥٣).

ولما انتقل الإنسان إلى الزرراعة الراقية ونشأت الملكية الخاصة ، اختفت البطون التى كانت تقوم على نظام الشيوعية فى الأموال ، وحلت محلها الأسرة البطريركية ، وتتكون من الأب وزوجاته وأولاده بزوجاتهم وأحفاده .. إلخ وأصبحت هى الوحدة الاقتصادية لما تستهلك ، وانحدر النسب عن طريق الأب وانتقل الميراث إلى أولاده ، وارتفعت مكانة الرجل ، بينما هبطت مكانة المرأة إلى مكانة الماشية ، يملك عليها الرجل حق الحياة والموت ، فهى وأولاده فى مصاف رقيقه وأمواله (٥٤) .

وكانت كل ثقافة إنسانية تشمل نشاطات وأفكارا يمكن وضعها جملة فـى فئـة واحـدة تسمى الجانب المنزلى للحياة ، والعنصر الرئيسى فى النظرة الخارجية إلـى الحيـاة المنزلية هو مكان السكنى أو الملجـأ أو الإقامـة أو محل الإقامـة الدائـم الذى تتـم فيـه مناشط يومية معينة تحدث فى كل مجتمع إنسانى يصعـب جمعها فـى قائمـة منفصلـة . وقد تعلقت جميعها فـى كـل الثقافات الإنسانية بتجهيز الطعام وطهيـه واسـتهلاكه ، وتنظيف المنزل وترتيبه ، والاستعداد للزواج ، وتربية الأطفال ، والاستحمام والنـوم ، والاتصال الجنسـى . ومـن الملاحظ أن التطور التـاريخى شـهد تنوعاهـائلا للغايـة فـى السلوك الفعلى المتعلق بممارسة هذه المناشط المنزلية فى المجتمعات البشـرية ، وهـى حقيقة هامة ما دامت الحياة لم تشهد نوعا آخر غير الإنسـان قـادرا علـى أن ينـوع مـن سلوكه المتعلق بتناول الطعام والمأوى والنوم والجنس ورعاية الأطفال (٥٥) .

فإذا جئنا إلى نظام الحكم ، كتنظيم اجتماعى ، فسوف نجد أن الإنسان بعد أن اهتدى إلى الزراعة بدأت الجماعات تسـتقر فـى أمـاكن معينـة ، ومـن ثـم بـدأ النـزاع بيـن تلـك الجماعات حول الأرض أو الكلأ أو الماء .. إلخ مما أدى إلى قيام سلسلة من الحروب ، فظهر زعيم حربى لكل جماعة من الجماعات ، يجمع بين يديه سلطات مطلقة لمواجهـة حالة الحرب ، وبعد انتهاء الحرب تنزع عنه السلطة وتعود الحالـة إلـى مـا كـانت عليـه قبل الحرب وفى بعض الأحيان كانت تستمر سلطته بعد الحرب إذا كان قد كسـب الحـرب لجماعتـه ، وحينئـذ نجـد الرئيـس يحيط نفسـه بعـدد مـن رجـال الديـن يقومـون بتـأييده ويبثون له الدعاية للبقاء فى السلطة ويجدون من الدعاية أداة طيعة فى أيديهم لتأييده ، وبذلك تعمل الديانـة والقوة جنبا إلى جنب فـى تـأييد سـلطة ذلـك الرئيـس . وقـد يـترتب على الحروب انهزام إحدى الجماعـات وخضوعها للجماعـة المنتصـرة ، وبذلـك تندمـج جماعتان فى بعضهما وتنحصر السلطة فى أيدى أبناء الجماعة المنتصـرة ، ويصبحـون فئـة متميزة عن بقية السكان ، وهكذا تتكامل أركان الدولة : إقليـم يقطـن فيـه جمـع مـن السكان يخضعون لسلطة عليا مستقلة عن غيرها (٥٦) .

على أن الدولة التى كانت تعتمد على القوة وحدها سرعان ما كان يتقوض بناؤهـا ، لأن النـاس وإن كـانوا بطبعهـم أغرارا ، فهـم كذلـك بطبعهـم ذوو عنـاد ، والقـوة مثـل الضرائب ، تبلغ أكثر نجاح لها إذا ما كانت خفية غير مباشرة ، ومن هنا لجـأت الدولـة

– لكى تبقى على نفسها – إلى أدوات متعددة تستخدمها وتصطنعها فى بث تعاليمها ، كالأسرة والمعبد والتعليم ، حتى تبقى فى نفس المواطن عادة الولاء للوطن والفخر به ، ولقد أغنتها هذه التنشئة عن مئات مئات من رجال الشرطة ، وهيأ الرأى العام للتماسك فى طاعة واستسلام ، فمثل هذا التماسك لابد منه فى حالة الحرب ، وفوق هذا كله فإن الأقلية الحاكمة حاولت أن تحول سيادتها التى فرضتها على الناس فرضا بقوتها إلى مجموعة من القوانين من شأنها أن تبلور سلطانها من جهة ، وأن تقدم للناس ما يرحبون به من أمن ونظام من جهة أخرى وهى تعترف بحقوق " الرعية " اعترافا تستميلها به إلى قبول القانون ومناصرة الدولة (٥٧) .

وقد ترتب على ظهور الملكية الفردية وتركزها فى أيدى رب الأسرة أن تركزت الأموال فى أيدى بعض الأفراد دون البعض الآخر فتفاوت الناس فى الثروة وانقسم المجتمع إلى طبقات بعد أن كانوا متساوين ، ففى العصور السابقة لا تكاد تحس بفوارق اجتماعية بينهم . وزاد من هوة الفوارق بين الناس انتشار نظام الرق بسبب إقبال الناس على اقتناء الرقيق لحاجتهم إليهم فى الزراعة .ويربط البعض بين ظهور نظام الرق وبدء ظهور المدرسة ، على أساس أن وجود الرق أتاح لأصحاب الثروة الفراغ الذى هيأ لهم أن يخصصوا وقتا يتعلمون أو يعلمون أبناءهم فيه . وعمل نظام الإرث على زيادة الهوة بين الطبقات اتساعا . وكان للديانة نصيب كبير فى ظهور تلك الفوارق ، فديانة الأسر القوية أسمى من ديانة الأسر الضعيفة ، وبعض الناس مثل الرقيق والطبقات الدنيا فى المجتمع ليس لهم الحق فى ممارسة أى نوع من الديانة ، ولا أن يفكروا فى أى صورة من صور التعليم إلا تعلم أداء الأعمال المطلوبة منهم بمهاراتها المختلفة (٥٨) .

ومما لا شك فيه أنه مع توالى السنين والأعوام ، تكاثرت الثروة فى أيدى السادة فزادتهم قوة وجبروتا وبطشا ، وأدى التقدم المطرد للعلم والتكنولوجيا إلى أن تتوافر فى أيدى الأغنياء وسائل قوة أكثر ، فتتعمق الفوارق بين الطبقات ، وبين الأقوياء والضعفاء ، ويلتهب التنافس والصراع ، وتنشأ الحروب وتقام الدول وتسقط ، وفى كل هذا كانت التربية تتلون بلون الطبقة التى تتم فيها وتتشكل .

دور الأسطورة والدين :

فى البدء كان الالتقاء بين الأسطورة والدين .. واجه الإنسان كما هائلا من الظواهر والأحداث فى مختلف جوانب الكون ، شمس وقمر ونجوم ورياح وعواصف وأمطار ورعد وكسوف وخسوف وفيضان وقحط وحر قائظ وبرد قارس وموت وحياة ومرض وصحة .. إلخ ، وهو خلو من المعرفة التى يكشف بها معانى ما يحدث ، وخلو تماما من أية أدوات أو أجهزة يتحكم بها فى هذه الظواهر والأحداث . لكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع أن يعيش بلا معانى ، فطار به خياله إلى تفسيرات فاقدة إعمال العقل فكانت " الأسطورة " ، وكان من الضرورى أن يرتبط بها تصور عن قوى مهيمنة ومحركة لما يحث ، فكان الدين . وهو فى هذا وذاك يجد نفسه ، تفكيرا وسلوكا ، محكوما وموجها ، بحيث يمكن التأكيد أن كلا من الأسطورة والدين كانا أهم القوى المربية التى لعبت دورا خطيرا فى عملية التنشئة للإنسان منذ بدء النشأة .

ويمكن ، بناء على هذا ، أن نتحدث عن تفاعل وجهين متلازمين فى الأسطورة ، يؤثر أحدهما فى الآخر ، ويؤدى فى الوقت ذاته وظيفة مغايرة له (٥٩) :

الوجه الأول ، معرفى ، يعكس رغبة المجتمعات القديمة ، صانعة الأسطورة ، فى اكتشاف أسرار الكون والحياة الاجتماعية ، ثم استيعابها لتتمكن من التعامل مع ما يحيط بها من ظواهر طبيعية واجتماعية ، والتكيف مع مقتضياتها .

الوجه الآخر لوظيفة الأسطورة يتصل بطابعها الاعتقادى الذى جعل منها أداة للهيمنة ، فعلى الرغم من أن الأسطورة كانت حصيلة ذهنية لجهود جماعات إنسانية ، أرادت أن تستوعب ذاتها والعالم المحيط بها ، ومن ثم اكتشاف أوجه التواصل والتفاصل بينها وبينه ، نقول على الرغم من ذلك ، يلاحظ أن الطابع الاعتقادى الجازم ظل مهيمنا على الأسطورة ، بل اتسعت دائرة الهيمنة تلك فى العصور اللاحقة ، بعد أن اكتشفت القوى الاجتماعية مدى جدوى استخدام الأسطورة فى عملية تكريس نفوذها ، ويتجلى الطابع الاعتقادى للأسطورة فى صياغتها لمسلماتها وتصوراتها ، وكأنها الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (٦٠) .

والأسطورة حكاية مقدسة تقليدية ، بمعنى أنها تنتقل من جيل إلى جيل ، بالرواية الشفهية ، مما يجعلها بمثابة ذاكرة الجماعة التى تحفظ قيمها وعاداتها وطقوسها وحكمتها ، وتنقلها للأجيال المتعاقبة ، وتكسبها القوة المسيطرة على النفوس (٦١) ، فهى الأداة الأقوى فى التثقيف والتطبيع ، والقناة التى ترسخ من خلالها ثقافة ما وجودها واستمرارها عبر الأجيال وحتى فى فترات شيوع الكتابة ، لم تفقد الأسطورة قوتها وتأثيرها ، ذلك أن الألواح الفخارية ، كانت محفوظة فى المعابد وفى مكتبات الملوك ولا تلعب إلا دور الحافظ للأسطورة من التحريف بالتناقل ، وبقى السمع هو الوسيلة الرئيسية فى تداولها (٦٢) .

وقد ناقش بعض الباحثين العلاقة بين الأسطورة والتاريخ ، وحاولوا التفرقة بينهما بحيث لا يجوز نتيجة هذه التفرقة الاعتماد عليها فى عملية التأريخ . والسند الذى يستندون إليه فى هذا أن التاريخ يتعامل مع بشر على اختلاف مستوياتهم ، بينما أبطال الأسطورة هم من الآلهة وأنصاف الآلهة (٦٣) . كذلك فإن الأحداث التاريخية تتميز بواقعيتها وذلك نتيجة خضوعها لمختلف أساليب النقد والتدقيق ، أما أحداث الأسطورة فهى عرضة للتضخيم والغلو .

وإذا كانت هذه التفرقة صحيحة ، إلا أننا فى مقامنا الحالى ننبه إلى أمرين : أولهما أننا لا نعتمد على ما تتضمنه الأساطير من معلومات كى نستنتج حدوث وقائع معينة ، وإنما نعتبر الأسطورة نفسها من وقائع التاريخ ، فإذا كان مصريون قدماء قد أحاطوا النيل ببعض الأساطير من حيث منبعه ، وفيضانه وعدمه ، فإننا لا يهمنا أن هذا التفكير مكذوب وإنما يهمنا أنه – أى التفكير – قد حدث . إنه إذن تأريخ للتفكير نفسه .

ومن ناحية ثانية ، فنحن هنا فى مجال تربوى ، وما دامت الأسطورة قد شكلت وجدان كثير من المجتمعات القديمة ، وما دامت قد وجهت السلوك ، وأفرزت قيما وعادات وسلوكيات ، وحددت معاملات بين الناس وبينهم وبين مظاهر الحياة الاجتماعية ، مثلما حددت معاملات بينهم وبين مظاهر الحياة الطبيعية ، تصبح قوة من القوى المربية ، بغض النظر عما إذا كان ما تقوله صحيحا أو غير صحيح ، وبغض النظر عما إذا كان هذا يعجبنا أو لا يعجبنا .

لقد كان الإنسان المبكر ينظر إلى الوقائع كحوادث فردية ، ولم يدرك هذه الحوادث أو يفسرها إلا كحركة ، فلم يضعها بالضرورة إلا فى قالب قصة . بعبارة أخرى ، كان الأقدمون يقصون الأساطير عوضا عن القيام بالتحليل والاستنتاج ، فنحن ، مثلا ، قد نفسر هطول الأمطار بعد جدب طويل بأن ظروفا مناخية توافرت ، وأدت إلى المطر . لكن أهل مجتمع من القدماء نظروا إلى مثل هذه الحقائق فشعروا أنها وساطة من طيرعملاق ، إذ جاء لإنقاذهم فكسا السماء بما فى جناحيه من سحب الزوابع السوداء ، والتهم " ثور السماء " الذى كان قد أحرق الزرع بالأنفاس الملتهبة (٦٤) .

وإذ جاء الأقدمون بأسطورة كهذه ، لم يكن قصدهم تسلية السامعين ، كما أنهم لم يبحثوا ، بطريقة موضوعية لا يشوبها الغرض ، عن تأويل مفهوم للظواهر الطبيعية . لقد كانوا يسردون حوادث هم جزء منها قد تهدد حياتهم نفسها ، فكانوا يشعرون شعورا مباشرا بالصراع بين قوتين ، الواحدة تعادى الحصاد الذى يعتمدون عليه ، والأخرى رهيبة ولكنها كريمة : فجاءتهم الزوبعة الرعدية فى اللحظة الأخيرة وأنقذتهم ، بأن هزمت المحل وقضت عليه .

فالتصوير الشعرى الذى فى الأسطورة ، ليس مجرد سرد لقصة رمزية ، إن هو إلا ثوب اختاره البدائى بعناية للفكر المجرد ، فالصور لا يمكن فصلها عن الفكر ، إنها تمثل الشكل الذى أصبحت التجربة فيه واعية بذاتها (٦٥) . ولذا يجب أن تؤخذ الأسطورة بعين الجد لأنها تكشف عن حقيقة مهمة ، وإن يتعذر إثباتها – حقيقة لنا أن ندعوها حقيقة ميتافيزيقية ، ولكن ليس للأسطورة وضوح النص النظرى وعموميته ، إنها مجسدة محسوسة ، وإن تدع أن صدقها لا يمكن الطعن فيه ، وهى تطالب المؤمن بها بالاعتراف بها ، وإزاء المتشكك لا تحاول تبرير نفسها .

وبالنسبة للدين فقد تعاونت عدة عوامل على خلق العقيدة الدينية فى صورتها البدائية ، فمنها الخوف من الموت ، ومنها كذلك الدهشة لما يسبب الحوادث التى تأتى مصادفة أو الأحداث التى ليس فى مقدور الإنسان فهمها ، ومنها الأمل فى معونة الآلهة والشكر على ما يصيب الإنسان من حظ سعيد ، وكان أهم ما تعلقت به دهشتهم وما استوقف أنظارهم بسره العجيب هما الجنس والأحلام ، ثم الأثر الغريب الذى تحدثه

أجرام السماء فى الأرض والإنسان • لقد بهت الإنسان البدائى لهذه الأعاجيب التى يراها فى نومه ، وفزع فزعا شديدا حين شهد فى رؤاه أشخاص أولئك الذين يعلم عنهم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة (٦٦) •

مثل هذه الأحداث التى كانت تصادف الإنسان البدائى فى حياته ، أقنعته بأن كل كائن حى له نفس أو حياة دفينة فى جوفه ، يمكن انفصالها عن الجسد إبان المرض والنوم والموت • ولما كان لكل شىء روح أو إله خفى ، إذن فالمعبودات الدينية لا تقع تحت الحصر ، وهى تقع فى ستة أقسام : ما هو سماوى ، وما هو أرضى ، وما هو جنسى ، وما هو حيوانى ، وما هو بشرى ، وما هو إلهى ، وبالطبع لن يتاح لنا قط أن نعلم أى الأشياء فى هذا العالم الفسيح كان أول معبود للإنسان (٦٧) •

ولم يكن سهلا دائما التمييز بين الدين البدائى والسحر ، حيث اختلف العلماء فيما بينهم فى نظرتهم إلى الخصائص التى يجب توافرها حتى يمكن القول بأن مجموعة معينة من الشعائر والعقائد تؤلف الدين أو السحر • ومع ذلك فقد حرص البعض على أن يضعوا قواعد التفرقة كما يلى (٦٨) :

– أن السحر له القدرة على " إجبار " عالم ما فوق الطبيعة أو عالم الغيبيات على تحقيق مطالبه ، بينما الدين يقتصر على التضرع والابتهال والسؤال دون أن يقوم بعمل إيجابى لتحقيق مطالبه •

– أن الطقوس والممارسات السحرية لا يمكن القيام بها على مستوى الجماعة كلها أو الجانب الأكبر من الجماعة ، كما هو الحال بالنسبة للشعائر الدينية ، بل إنها كثيرا ما تمارس فى الخفاء ، وقد لا يكون لها أى مظهر اجتماعى على الإطلاق •

– أن السحر يعتمد على عبارات وتعاويذ وصيغ كثيرا ما لا تكون مفهومة حتى للأشخاص الذين يستخدمونها ، وذلك بعكس الدين الذى يستخدم اللغة العادية السائدة فى المجتمع •

ومما يتفق عليه كثيرون أن الدين ، منذ أن ظهر ، قام بدور مهم كوسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى ، فالدين بتعاليمه وأوامره ونواهيه يعتبر من أقوى عوامل

تحقيق التوازن فى السلوك الاجتماعى ، كما أن فكرة الثواب والعقاب التى تؤلف ركنا مهما فى الدين من ناحية ، والخوف من استخدام السحر فى إلحاق الأذى والضرر بالشخص الذى يخرج عن القواعد العامة للسلوك تلعب دورا هاما فى تحقيق ذلك التوازن وبالتالى إقرار النظام فى المجتمع (٦٩) ٠

اللغــــــة :

من أبرع ما كتب بالفعل ، قديما ، عن الدور الاجتماعى للغة ، هذا الذى كتبه " ابن مسكويه " الذى كتب قائلا : " أن الإنسان الواحد لما كان غير مكتف بنفسه فى حياته احتاج إلى استدعاء ضروراته فى مادة بقائه من غيره ، وهذه المعاونات والضرورات المقتسمة بين الناس التى بها يصح بقاؤهم وتتم حياتهم وتحسن معايشتهم هى أشخاص وأعيان من أمور مختلفة وأحوال غير متفقة ، وهى كثيرة غير متناهية ، وربما كانت حاضرة فصحت الإشارة إليها ، وربما كانت غائبة فلم تكف الإشارة فيها ، فلم يكن بد من أن يفزع إلى حركات بأصوات دالة على هذه المعانى بالاصطلاح ليستدعيها بعض الناس من بعض ، وليعاون بعضهم بعضا ، فيتم لهم البقاء الإنسانى ، وتكمل فيهم الحياة البشرية " (٧٠) ٠

فهذا النص لابن مسكويه لا يشير فقط إلى الدور الاجتماعى للغة وإنما يشير كذلك إلى تلك الحركات الصوتية التى اصطلح عليها الأفراد للدلالة على المعانى ٠ ونستطيع أن نصيغ هذا بعبارات عصرنا ، بأن هذا يشير إلى العلاقة بين الثقافة ، ممثلة هنا فى مظهرها اللغوى ، وبين الرمز ، هذه العلاقة التى حظيت فى العقود الأخيرة على عناية واضحة من علماء الأنثروبولوجيا (٧١) ٠

ونحن عندما نستخدم لفظ " اللغة " هنا فإنما نعتمد على مفهومها المحدود الذى يقصرها على تلك الرموز المنطوقة أو المكتوبة ، وبذلك نخرج منها كل وسائل التعبير والاتصال الأخرى غير الصوتية من حركات وإشارات وإيماءات وغيرها ٠ ولقد عرف " جون كارول **J.Carroll** " اللغة بقوله : " ذلك النظام الذى تشكل من الأصوات اللفظية الاتفاقية ، وتتابعات هذه الأصوات التى تستخدم أو يمكن أن تستخدم فى الاتصال

المتبادل بين جماعة من الناس والتى يمكنها أن تصنف بشكل عام الأشياء والأحداث والعمليات فى البيئة الإنسانية " (٧٢) • ومعنى كون الأصوات اللفظية وتتابعات الأصوات اتفاقية ، أن ليس لها علاقات كامنة أو لازمة بالأشياء التى يقال أنها " تشير أو ترمز إليها " أو إلى المواقف والسياقات التى تستخدم فيها ، فهذه روابط يمكن أن تقام فقط من خلال عملية التعلم •

وحتى نستطيع تقدير البعد التربوى للغة ، لابد لنا أن نعى ، أنه ، مع صعوبة تقدير الدور الأساسى الذى تلعبه اللغة فى سلوكنا الاجتماعى حق التقدير ، فإنه يمكن القول أنه لولا اللغة لما كانت هناك كتابة أو أى وسيلة منهجية منظمة ومستمرة للاتصال والتفاهم ونقل الأفكار المجردة بمثل هذه الدقة • وهذا من شأنه أن يضع قيودا شديدة عللى إمكانيات التعلم ، مما يضطر فى آخر الأمر إلى أن نتعلم عن طريق التجربة والخطأ وعن طريق ملاحظة سلوك الآخرين وأفعالهم ومحاكاتها تماما مثلما تفعل الحيوانات الأخرى • وسوف يترتب على ذلك بالضرورة اختفاء تاريخ الإنسانية كله واندثاره ، إذ لن تكون هناك وسيلة دقيقة ومختصرة لتسجيل الأحداث وروايتها وتناقلها عبر الزمن ، بل لن تكون هناك وسيلة لإحياء الماضى وإعادة التجارب القديمة وتوصيلها للآخرين ، فضلا عن نقل أفكارنا الخاصة وأرائنا الذاتية للغير ومشاركة هؤلاء الغير فى العمليات العقلية التى تدور فى أذهانهم • بل ومن المحتمل أن نعجز حتى عن التفكير بالمرة ، وذلك لو قبلنا ما يقوله بعض علماء النفس من ارتباط الفكر ذاته باللغة وأن عملية التفكير هى فى حقيقتها وجوهرها نوع من الحديث إلى النفس أو الذات (٧٣) •

ونظرا لهذه الخطورة التى احتلتها اللغة بالنسبة للحضارة الإنسانية ، بذلت جهود يصعب حصرها بحثا عن أصل اللغة ، بمعنى البحث عن اللسان " الأول " أو " الأصلى " للإنسان ، والذى هو على الدوام وراء متناول أى علم لغوى متصور • هذا الموضوع قد فتن – دائما – الناس ذوى الفضول اللغوى ، وأصبح مركزا للاهتمام فى صور مختلفة على مدى التاريخ المدون • ومحاولة بسماتيك ملك مصر لاكتشاف " أقدم " لغة ، أى اللغة " الأصلية " اعتمادا على تدوين نطق (بيكوس " خبز " من اللغة الفريجية) لطفل ربى بحرص فى محيط ليس فيه كلام ، هذه المحاولة هى المحاولة السابقة لأى

حكاية مشابهة أخرى ، حكيت عن أى شخص وعن أى لغة أخرى (٧٤) . ولكن عددا من المفكرين اللغويين فى القرن الثامن عشر فى أقطار أوربية مختلفة ، قد طرحوا السؤال وحاولوا الإجابة عنه من وجهات نظر مختلفة إلى حد معين وأكثر تجريدا وقابلية للبحث العلمى فى نفس الوقت : ماذا يقع بين بدايات اللغة الإنسانية وبين صورتها الحالية المحكمة بشكل واضح ، وكيف يمكن لبذور اللغة ، كما عرفت فى العصور التاريخية ، أن تكون بذرت فيما قبل التاريخ الإنسانى .

وكان الاهتمام واسع النطاق فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بحل المشكلات المتعلقة بأصل اللغة ، تمثله الجائزة التى عرضتها الأكاديمية البروسية للبحث الذى يجيب عما إذا كان الإنسان قد أمكنه إيجاد اللغة دون مساعدة كما هى معروفة عند ذلك . وإذا كان الأمر كذلك فكيف شرع فى هذا الأمر ؟ وهذا التساؤل كان عبارة عن رد فعل بشكل جزئى ضد الآراء غير المقنعة حتى ذلك الوقت ، وضد تأكيد " سوسملش Sussmilch " فى عام ١٧٥٤م على أن التعقد والتنظيم المنضبط للغات يمكن أن يفسرا فقط على أساس أن اللغة منحة مباشرة من الله للإنسان ، وهو رأى عبر عنه روسو أيضا بالإشارة إلى التوجيه الإلهى فى نشأة اللغة ، وهو ما ألمح إليه أفلاطون ، ووجد فى عدد من التفسيرات الأسطورية التقليدية فى العهد القديم وفى أماكن أخرى (٧٥) .

ومن الملاحظ على البحث اللغوى أنه ارتبط ارتباطا وثيقا بالمدرسة التاريخية التى سادت كل فروع الدراسات الاجتماعية والإنسانية ، خاصة فى القرن التاسع عشر ، فاهتم الباحثون بدراسة التاريخ اللغوى معتمدين فى هذا على النصوص المدونة ، ودفعتهم الحركة الرومانتيكية إلى التركيز على النصوص المغرقة فى القدم ، وحاولوا بدراسة الخصائص اللغوية لتلك النصوص القديمة المدونة باللغات المختلفة الوصول إلى الأقدم الذى خرجت عنه كل تلك اللغات . لقد أثبتت بحوث مقارنة أن هناك أسرة لغوية واحدة تضم أكثر اللغات التى عرفتها المنطقة الممتدة من الهند إلى أوربا ، وحاول علماء المقارنات اللغوية " للأسرة الهندية – الأوربية " بحث العناصر المختلفة لكل لغة من هذه اللغات – ولا سيما فى أقدم نصوصها ، وذلك لإعادة تكوين اللغة الهندوأوربية الأم التى خرجت عنها كل هذه اللغات (٧٦) .

ويؤكد باحثون على ضرورة أن نفصل بين اللغات وأجناس الشعوب ، ولا يجب علينا القطع بنسبة لغة معينة لجنس معين ، فبالنسبة للتاريخ القديم تبدو المشكلة غاية فى التعقيد ، إذ لدينا معلومات كثيرة بخصوص لغات عديدة لا يمكن أن تكون لأجناس بهذه الكثرة ، إذ معرفتنا باللغات القديمة لا تعنى على الإطلاق معرفة الأجناس التى كانت تتحدث هذه اللغات ، وكثيرا ما تفرعت اللغة الواحدة إلى عديد من " اللغات " المحلية • وليس هناك ما يجعلنا نجزم بأصالة اللغات حسب مواطنها ، ولكن نستطيع تمييز ملامح بعض اللغات الكبرى والأساسية وربطها بمصادر ظهورها جغرافيا ، فمثلا قيل إن اللغات السامية خرجت من قلب صحراء الشام ، وكذلك قيل إن الهندوأوربية تكونت أساسا حول البلطيق ، وحتى إن صح ذلك فإننا لا نستطيع أن نعممه على كل الحالات لأن اللغات قد تظهر دون علاقة بجنس معين يتحدثها (٧٧) •

وحاول بعض العلماء أن يستدل على قدم اللغة عن طريق مقارنة تجربة الجنس البشرى فى اللغة عموما بتجربة الطفل لتعلم اللغة السائدة فى المجتمع ، على أساس أن التجربتين من طبيعة واحدة ، كما أن لهما طابعا اجتماعيا فى المحل الأول وليس ميتافيزيقيا ، فقبل أن يتمكن الطفل من الكلام يكون قد اكتشف وسائل كثيرة للاتصال بالآخرين وهى وسائل بسيطة وساذجة وتلقائية ولكنها تكفى على أية حال للتعبير ، كما هو الحال فى البكاء للتعبير عن الجوع والألم أو عدم الشعور بالراحة والخوف •. وهذه وسائل تسود فى كل المجتمعات الإنسانية بلا استثناء وبغير اختلاف فى كل مكان وزمان ، وإن كانت تتخذ عند الكبار أشكالا جديدة ومقصودة ، ولا يلبث الطفل أن يلجأ إلى بعض الأصوات ذات المقاطع المتميزة للتعبير عن بعض حاجاته الأخرى البسيطة ، وهكذا تدريجيا حتى يتملك ناصية اللغة (٧٨) •

إن هذا هو ما فعله الإنسان البدائى حين نقل هذه التجربة الاجتماعية الأولية إلى الطبيعة بأسرها ، لأن العلاقة بين الطبيعة والمجتمع فى نظره علاقة قوية جدا ، وتؤلف كلا واحدا متماسكا لا يمكن الفصل فيه بينهما ، وليست الطبيعة ذاتها إلا مجتمعا كبيرا هو مجتمع الحياة ذاتها • وقد حاول الإنسان أن يخضع هذا المجتمع الكبير لصالحه الخاص ولجأ فى ذلك إلى السحر ، واتخذت الكلمة بذلك فى نظره قوة اجتماعية وقوة فائقة للطبيعة معا بحيث يستطيع عن طريقها أن يخاطب كل ما فى الكون من قوى

مرئية أو غير مرئية ، إذ ليست الطبيعة فى نظره شيئا جامدا لا يسمع ولا يتكلم ، وإنما هى شىء يفهم ويدرك ، وعلى ذلك فإذا خوطبت بالطريقة الملائمة فسوف تستجيب ولا ترفض النداء ، وبذلك فليس هناك ما لا يستجيب ولا يخضع للسحر . ولكن لم يَلبث الإنسان أن وجد أن الكلمة السحرية قاصرة عن تحقيق أهدافه وأن الطبيعة لا تفهم لغته دائما ، وبذلك فهى لا تستجيب دائما للنداء ، وبذلك لم تعد للغة كل هذه القوة الهائلة التى كانت لها فى نظره ، ولم يعد لها كل هذا التأثير الفيزيقى المباشر أو الفائق للطبيعة ، فهى لا تستطيع أن تغير طبائع الأشياء أو تجبر الآلهة والشياطين ، ومع ذلك فإنها لم تفقد كل معناها ولم تعد مجرد أصوات بغير معنى ، وكل ما حدث هو أن الخاصية الأساسية فيها لم تعد هى الخاصة الفيزيقية بل الخاصة المنطقية (٧٩) .

وقد ساعدت دراسات لغوية معاصرة كثيرا على إلقاء مزيد من الضوء على مكانة اللغة فى ثقافة الإنسان منذ أقدم العصور ، فقد اتجه كثيرون إلى النظر إلى المشكلة اللغوية باعتبارها مشكلة " سيميولوجية " (٨٠) ، ومعنى هذا أن اللغة تنتمى إلى تلك المجموعة الكبرى من " الأنظمة الرمزية " التى تتألف منها الثقافة (بالمعنى الواسع لهذه الكلمة) ، ومن بينها الفن ، والأساطير ، والكتابة ، وآداب المعاملات ، وغير ذلك من الطقوس أو المواضعات الاجتماعية ، وليست السيميولوجيا سوى ذلك العلم الذى يدرس حياة العلامات فى كنف الحياة الاجتماعية .

وقد امتد المبدأ الذى أقامه " دى سوسير " – الذى كان له باع كبير فى الدرسات اللغوية – فى هذا المجال إلى خارج نطاق الدراسات اللغوية ، فعرف طريقه إلى باقى العلوم الإنسانية ، وبدلا من أن تذوب اللغة فى المجتمع ، فقد شرع المجتمع يتعرف على نفسه باعتباره " لغة " . وهكذا راح بعض محللى المجتمع يتساءلون عن مدى إمكانية تفسير " البنيات الاجتماعية " أو – على مستوى آخر – تفسير تلك " الرؤايات المعقدة " التى تسمى بالأساطير بوصفها مجموعة من " الدالات " التى لابد من البحث لها عن " مدلولات " (٨١) .

وهكذا تغدو اللغة ، فى نظر دى سوسير ، بمثابة الوثيقة الإثنوجرافية الممتازة ، التى يمكن أن تغذى البحث فى الشعوب القديمة . هى وثيقة إثنوجرافية من حيث أنها "

وثيقة تاريخية " ، ولكنها كذلك أساسا لأنها وثيقة نظرية ، فلئن كانت اللغه لا توفر لنا كثيرا من المعلومات الدقيقة الصادقة عن عادات الشعب الذى يستعملها ونظمه الاجتماعية ، فهى على الأقل صالحة لتعيين خصائص العقلية التابعة للمجموعة التى تتكلم بها . ومثل هذا الرأى نلمس صدى صريحا له فى معظم كتابات " ل.س.ستراوس " فى اللغة ، فشأنه شأن دى سوسير تماما ، لا يتردد فى أن يرد اللغة ، وكذلك الثقافة ، إلى الفكر بوصفه بنيتهما العميقة ومعينهما الذى لا ينضب (٨٢) .

العقليــة البدائيــة :

لسنا فى حاجة إلى بذل الجهد فى سبيل بيان ما يمثله " العقل " بالنسبة للتربية ، مما يجعل من محاولة كشفنا عن نمط العقل البدائى ، إنما هو كشف عن جانب خطير للتربية البدائية . وقد كشفت الدراسات التى قام بها كثير من علماء الأنثروبولوجيا لقبائل إفريقية وقبائل أخرى فى مناطق آسيوية وفى أمريكا الجنوبية عن صورة يمكن الاعتماد عليها – بحذر شديد– فى محاولة رسم صورة لما كان عليه نمط التفكير فى تلك الفترة التى نحن بصددها ، ذلك أن هذه القبائل إنما هى " جيوب " انعزلت عن ركب الحضارة ومثلت ما يمكن تشبيهه " بالحفريات " التى تمكن العلماء من الوقوف على بعض جوانب من ماض سحيق فى القدم .

ومن هذه الدراسات التى اتجهت إلى العقل البدائى ، دراسة " فرانز بواس F.Boas – ١٨٥٨/١٩٤٢– " فى كتابه " عقلية الإنسان البدائى The Mind of Primitive Man "، فهو يرى أن أفكار وأفعال كل من الإنسان المتحضر والإنسان البدائى تؤكد أن العقل يستجيب للظروف الواحدة بصور متباينة ، ويبدو أن نقص الترابط المنطقى بين النتائج التى يتم التوصل إليها ، وأيضا نقص السيطرة على الإرادة سمتان أساسيتان للتفكير فى المجتمع " البدائى " ، فالاعتقاد يحتل مكان الحجة المنطقية فى عملية تكوين الآراء ، كما تتعاظم القيمة الإنفعالية لهذه الآراء ، ومن ثم تدفع سريعا إلى القيام بالفعل . وهكذا تبدو الإرداة فى صورة غير متوازنة ، ويتزايد الاستعداد للخضوع للانفعالات المسيطرة ، وتشتد المقاومة العنيدة فى المسائل التى تبدو تافهة (٨٣).

فإذا كان العامل المعرفى يمثل أساس التمييز بين الإنسان والحيوان ، فإن العامل الانفعالى فى رأى بواس له دور أساسى فى التمييز بين تفكير " البدائى " والمتحضر ، أما بالنسبة للجانب المعرفى فإنه يؤكد أن الاختلاف بينهما قائم فى محتوى التفكير وليس فى عملية التفكير ذاتها ، وهو بذلك يعارض الرأى القائل بأن قوانين الفكر يمكن أن تختلف من نوع بشرى لنوع آخر ، ويرى بدلا عن ذلك أن تنظيم العقل متماثل بين سائر الأنواع البشرية ، وأن النشاط العقلى يتبع نفس القوانين فى كل مكان ، ولكن مظاهره تعتمد على طبيعة الخبرة الفردية التى تخضع لفعل هذه القوانين ، فالظروف الاجتماعية بخصائصها المتميزة هى التى تسهل الانطباع بأن عقلية البدائى تؤدى وظيفتها بطريقة مخالفة لطريقتنا نحن ، بينما يؤكد الواقع أن السمات الأساسية للعقلية واحدة فى الحالتين (٨٤) .

لكن هذا الرأى قد لا يتفق معه آخرون ، فهناك من يلمحون الفرق الأساسى بين موقف الإنسان الحديث وموقف الإنسان البدائى ، من حيث العالم المحيط بهما كامنا فى الآتى : عند الإنسان العلمى ، يشار إلى عالم الظواهر عادة ب " هو " ، بينما يشار إليه عند الإنسان القديم - وكذلك البدائى - ب " أنت " ، وكى نفسر هذا نقارن بين هذه العلاقة بأسلوبين من أساليب الإدراك : العلاقة بين الذات والموضوع ، والعلاقة القائمة عندما " أفهم " أنا كائنا آخر . إن ترابط " الذات والموضوع " هو بالطبع أساس التفكير العلمى كله ، وهو الأمر الوحيد الذى يجعل المعرفة العلمية ممكنة ، أما أسلوب الإدراك الثانى فهو المعرفة المباشرة الغريبة التى نكتسبها عندما " نفهم " كائنا يواجهنا ، كأن نفهم خوفه أو غضبه (٨٥) .

والفرق بين علاقة ال " أنا وأنت " وبين العلاقتين الأخريين هو كما يلى : عندما يعين الإنسان هوية شىء ما ، فهو فعال ، ولكن ، عندما " يفهم " الإنسان أو الحيوان رفيقا له فهو جوهريا منفعل ، مهما نجم عنه من فعل بعد ذلك لأنه فى أول الأمر إنما يتسلم انطباعا ، ولذلك فإن هذا اللون من المعرفة مباشر عاطفى ، لا ينطق عن نفسه ، بينما المعرفة الذهنية على العكس : تكاد تخلو من العاطفة ، وتنطق عن نفسها . أما معرفة ال " أنا " بال " أنت " ، فتتراوح بين الإدراك الفعال وبين " تسلم الانطباع " ، بين العقلى والعاطفى ، بين المعبر عن نفسه وبين غير المعبر عن نفسه ، فال " أنت " أمر

حى تحس بوجوده ، يمكن لخواصه وإمكانياته أن تنطق عن نفسها بعض الشىء ، لا نتيجة لبحث فعال ، لأن " الأنت " كأمر موجود يكشف عن نفسه .

وثمة فرقا آخر على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أن الشيء ال " هو " يمكن دائما أن يقرن علميا بأشياء أخرى ، وأن يبدو جزءا من مجموعة أو سلسلة . وعلى هذا النحو يصر العلم على رؤية ال " هو " . ولهذا يستطيع العلم أن يتفهم الأشياء والحوادث إذ تتحكم بها قوانين عامة تجعل فى المقدور التنبوء بسلوكها فى ظروف معطاة ، بيد أن " الأنت " فريد فذ . إن " للأنت " شخصية الفرد التى لا سابقة لها ولا مواز ، ولا يمكن التنبوء بها ، إنها وجود لا يعرف إلا بمقدار ما يكشف عن نفسه(٨٦) .

ويقودنا هذا إلى ملاحظة أن أنماط التفكير البدائى هى فى جوهرها عينية ، وجودية ، إسمانية (٨٧) ، ضمن سياق شخصانى (٨٨) ، وهذا لا يعنى انعدام القدرة على التجريد (فكل اللغات وكل الثقافات تنبع من هذه المقدرة الإنسانية التى هى من مكتسبات الجنس البشرى عبر تاريخ تطوره) ، بل يعنى تأكيدا لاتجاه له وظيفته ضمن بيئة القرابة التى يعيش المجتمع البدائى فيها ، وعدم اهتمام بذلك النوع من التجريد الذى يمكن أن يدعى فى العالم الغربى أفلاطونيا (٨٩) .

ولقد كتب أحد علماء الأنثروبولوجيا يقول (٩٠) : " عندما يحادث الإنسان البدائى شخصا ، فليس من عادته أن يناقش أفكارا مجردة ، فالحديث عن الصفات بمعزل عن الموصوفات ، أو عن أفعال أو حالات منفصلة عن الفاعل أو الذات التى تكون فى حالة معينة ، قد لا يحصل بتاتا عند البدائيين " . وهكذا فإن الإنسان البدائى لم يكن يتحدث عن الطيبة كفكرة ، رغم أنه قد يتحدث عن طيبة فلان من الناس ، ولم يكن يتحدث عن حالة النعيم بمعزل عن الشخص الذى يعيشها ، ولم يكن يشير إلى القدرة على الإبصار دون الإشارة إلى شخص يتمتع بها .

وكان " ليفى شتراوس " حريصا على الكشف عن السمات النوعية المميزة للفكر البدائى ، ولذلك نجده يبرز لنا الطابع اللازمانى المميز لذلك الفكر ، من حيث أنه تفكير

متمرد على التغير ، محب للنظام والثبات ، مولع بالتقسيم والتصنيف ، متوسط بين الطبيعة والثقافة ، موحد لكل من الرمز والواقع (العينى) • ومن هنا فإن المعرفة التى يحصلها الفكر البدائى عن العالم هى أشبه ما تكون بتلك الصور التى قد تقدمها لنا – داخل غرفة ما – مجموعة من المرايا المتعددة ، المثبتة فوق جدران متقابلة ، حين تجىء كل واحدة منها فتعكس الأخرى ، دون أن يكون ثمة تواز مطلق بين تلك المرايا • وهكذا تتكون فى آن واحد كثرة من الصور المرئية ، دون أن تكون أية واحدة منها مطابقة تماما للأخريات ، مع ملاحظة أنه لابد لكل واحدة منها من أن تجىء حاملة لمعرفة جزئية بالأثاث والديكور ، وإن كان من شأن المجموعة كلها أن تجىء مميزة ببعض الخصائص الثابتة التى تعبر عن جانب من الحقيقة ، وبهذا المعنى يمكننا أن نقول أن الفكر البدائى يبتنى لنفسه مجموعة من البنيات العقلية التى تسهل عليه مهمة تعقل العالم ، ما دام من شأن تلك البنيات أن تجىء مشابهة للعالم ، وربما كان هذا هو السبب الذى حدا بالكثيرين إلى تحديد الفكر البدائى بأنه " تمثيلى " (٩١) •

كذلك تشير دراسات إلى أن العقل البدائى إذا رأى نفسه أمام شىء يهمه أو يقلقه ، فإنه لا يسلك تجاهه نفس المسلك الذى يسلكه عقلنا ، بل يسير على الفور فى طريق مختلف عن طريقنا ، وذلك أن حسنا الدائم بوجود الضمان العقلى قد بلغ درجة من الاستقرار لا تجعلنا نتوهم إمكان اختلاله ، فإذا فرضنا أن ظاهرة لا نعرفها قد ظهرت أمامنا بصورة مفاجئة وأن أسبابها تخفى علينا فى بادىء الأمر خفاء تاما . فإن ذلك لا يزلزل اقتناعنا بأن جهلنا بها أمر مؤقت وأن هذه الأسباب موجودة بالفعل ويمكن اكتشافها إن عاجلا وإن آجلا • وهكذا يمكننا أن نجزم بأن الطبيعة قد أصبحت فى الوسط الذى نحيا فيه موضوعا للتأمل منذ البداية ، وأنها نظام وعلة كالعقل الذى يفكر فيها ويصول فى مضمارها • ويشير نشاطنا اليومى فى أتفه تفاصيله إلى ثقتنا التامة فى عدم قابلية القوانين الطبيعية للتفاوت (٩٢) •

أما مسلك العقلية البدائية فمختلف عن ذلك المسلك كل الاختلاف لأن الطبيعة التى تعيش فى أحضانها تمثل أمامها فى مظهر مختلف تمام الاختلاف ، فجميع الأشياء والكائنات التى تتضمنها متشابكة مختلطة بأمور غيبية ، ومن هذا التشابك يتكون بناؤها ونظامها وهو الذى يبدأ بالظهور أمام انتباه البدائى ويستوقفه ، فإذا استرعت

انتباهه إحدى الظواهر ولم يقتصر على إدراكها بطريقة سلبية خالية من رد الفعل ، اتجه ذهنه فورا ، وبما يشبه أن يكون حركة عقلية عكسية إلى وجود قوة خفية مرئية ، وجعل تلك الظاهرة مظهرا من مظاهرها .

ولنختر مثلا من عشرات الأمثلة التى يعرضها علينا الباحثون (٩٣) : تعتمد الجماعات البدائية كلها إلى تفسير الموت بغير الأسباب الطبيعية ، فإذا رأى أحدهم شخصا يموت ، بدا هذا الحادث وكأنه يقع للمرة الأولى ، وأنه لم يشاهد مثله من قبل . وهنا قد يتساءل الإنسان المعاصر : هل من المعقول ألا يعرف هؤلاء الناس أن كل حى مصيره إلى الموت إن عاجلا وإن آجلا ؟ والواقع أن البدائى لا ينظر إلى الأشياء من هذه الزاوية قط ، فهو يعتقد أن الأسباب التى تؤدى بالضرورة إلى موت كل شخص بعد عيشه عددا من السنين مثل ضعف الشيخوخة ، ووهن الأعضاء وعجزها عن أداء وظائفها ليست مرتبطة بالموت ارتباطا ضروريا ، أليس يرى أمامه شيوخا خائرى القوة يستمرون على قيد الحياة ؟ ولذلك إذا حدث الموت أرجعه إلى فعل قوة غيبية ، هذا إلى أنه يعتقد أن ضعف الشيخوخة نفسه لا يرجع إلى ما نسميه نحن بالأسباب الطبيعية ، بل أيضا إلى فعل القوى الخفية كجميع الأمراض الأخرى .والخلاصة أنه إذا كان البدائى لا يعير أسباب الموت الطبيعية أى التفات ، فذلك لأنه يعرف سببه مقدما ، وما دام يعرف لماذا حدث ؟ فلا يهمه بعد ذلك أن يعرف كيف حدث ؟ فنحن هنا أمام مبدأ سابق التقرير ليس للتجارب عليه أى سلطان .

ولا تعرف العقلية البدائية شيئا اسمه المصادفة ، كما أنها من جهة أخرى لا تبحث عن الشروط التى تعمل على وقوع إحدى الحوادث أو امتناعها ، ويترتب على ذلك أن هذه العقلية تتلقى الأشياء المفاجئة أو غير المتوقعة أو التى تخالف المعتاد بالانفعال أكثر مما تتلقاه بالدهشة ، وعلى ذلك فإن فكرة " المفاجىء " أو " غير المعتاد " مألوفة جدا للعقلية البدائية ، وإن لم يكن لها لديها نفس التحديد الذى لها فى ذهننا (٩٤) .

وقد يكون الشىء المفاجىء كثير الوقوع نسبيا . ولما كانت العقلية البدائية منصرفة عن الأسباب الطبيعية ، فإنها تستعيض عنها - إذا جاز لنا هذا التعبير - بيقظتها التامة والتفاتها الدائم إلى الدلالة الغيبية التى يمكنها أن تستخرجها من كل ما

يصدمها . ولذلك كثيرا ما لاحظ الباحثون أن البدائى الذى لا يدهش لشىء فى الحقيقة يعد فى نفس الوقت سريع القبول للانفعال ، فانعدام حب الاستطلاع العقلى مصحوب عنده بحساسية مرهفة نحو ظهور أى شىء يباغته (٩٥) .

ولعلنا بذلك نصبح أقدر على فهم السبب الذى من أجله تهمل العقلية البدائية البحث عما نسميه بأسباب الظواهر ، فعدم حب الاستطلاع هذا لا يرجع إلى شلل عقلى ، ولا إلى ضعف فى القوى العقلية ، بل إن ذلك فى الحقيقة لا يعتبر عدما ، إذ أن العدم ، على حد تعبير الفلسفة المدرسية ، يخلو من علة عجزية أو سلبية . أما علة ما لدينا فذات حقيقة إيجابية ، فهو نتيجة مباشرة وضرورية لهذه الحقيقة الواقعة : وهى أن البدائيين يعيشون ويفكرون ويحبون ويتحركون ويعملون فى عالم لا يتفق مع عالمنا فى عدد كبير من الوجوه ، ولذلك نرى أن كثيرا من الأسئلة التى تواجهنا بها التجارب غير موجودة بالنسبة إليهم ، لأن لديهم لها جوابا مجهزا من قبل أو بالأحرى لأن نظام تصوراتهم من شأنه ألا يجعل لهذه الأسئلة أية أهمية فى نظرهم (٩٦) .

وبعبارات أخرى ، تتوقف حياة البدائيين العقلية (وبالتالى أحداسهم) على هذه الحقيقة الجوهرية البدائية ، وهى أن العالم المحسوس ، والعالم الآخر لا يكونان فى تصوراتهم إلا شيئا واحدا ، ومجموع الكائنات غير المرئية لا ينفصل عندهم عن مجموع الكائنات المرئية . وليست الكائنات الخفية فى نظرهم بأقل وجودا ونشاطا من الكائنات المرئية ، بل إنها أكثر منها تأثيرا أو إرهابا ، ولذلك فهى تشغلهم أكثر من غيرها وتصرف عقولهم عن التبصر والتفكير فيما نسميه نحن بالمدرجات الموضوعية ، ولو إلى حد يسير . وما جدوى ذلك إذا كانت الحياة والنجاح والصحة ، ونظام الطبيعة وكل شىء يتوقف فى كل لحظة على القوى الخفية ؟ وإذا كان فى وسع الجهد الإنسانى أن يفعل شيئا ، ألا ينبغى له أن ينفقه أولا وقبل كل شىء فى تفسيره لمظاهر هذه القوى وتنظيمها ، بل فى استثارتها أيضا ؟ الواقع أن هذه هى الطريقة التى حاولت بها العقلية البدائية أن تنمى تجاربها (٩٧) .

ويمكننا على وجه الإجمال أن نقسم التأثيرات غير المرئية التى تشغل العقلية البدائية بصورة دائمة إلى ثلاثة أقسام ، وإن كانت كثيرا ما تتداخل بعضها فى بعض ،

وهذه الأقسام هى أرواح الموتى ، والأرواح بأعم معانى الكلمة ، أى تلك المؤثرات التى تجعل الحياة تدب فى الأشياء الطبيعية من حيوانات ونباتات وكائنات خامدة (الأنهار والصخور والبحار والجبال والأدوات المصنوعة ٠٠ إلخ) ، وأخيرا الطلاسم والتعاويذ التى تعد من فعل السحر (٩٨) ٠

ونعتقد أننا أصبحنا الآن على بينة من السبب الأساس الذى يجعل العقلية البدائية لا تبالى بالبحث عن العلل الثانية (الطبيعية) ، ذلك لأنها درجت على طابع من السببية يحجب عنها شبكة هذه الأسباب ، فالأسباب الطبيعية تكون عقدا أو مركبات تنبسط فى الزمان والمكان ، أما الأسباب الغيبية التى تتجه نحوها العقلية البدائية دائما تقريبا ، فإنها غير مكانية ، بل غير زمانية أيضا فى بعض الأحيان ، ولذلك نراها تستبعد مجرد التفكير فى هذه العقد والمركبات ، ولا يمكن لأثر هذه الأسباب الغيبية أن يكون مباشرا ومؤذيا ، وحتى حينما ينتج هذا الأثر على بعد (كما فى حالات السحر) ، وحين لا تظهر نتيجتهَ إلا بعد فترة ما ، فإن ذلك لا يمنع البدائيين من أن يتصوروا ، أو بتعبير أدق ، من أن يشعروا بأنه قد ينتج دون وسيط (٩٩) ٠

الوضـــع التربـــوى :

كثير من الموضوعات التى عرضناها على بساط البحث فى الصفحات السابقة ، هى عن التربية البدائية ، إذ لا يمكن أن تعد موضوعات عن الثقافة البدائية ، وكذلك اللغة ، والعقلية ونمط التفكير والأسطورة والدين ، وهكذا ، بعيدة عن التربية ، فماذا إذن نريد أن نقوله فى الجزء الحالى ؟ إننا نستطيع أن نضع كثيرا من هذا الذى قدمناه تحت مظلة التربية غير المباشرة ، أو التربية بمعناها العام ، أما الجزء الحالى ، فمن الممكن أن نصنفه فى فئة التربية المباشرة ، أو التربية بمعناها الفنى ، إذا صح هذا التعبير ٠

وإذا كان قد تبين لنا أن حياة الإنسان قد دارت حول مطلبى الحياتين " العمليـة " و " الروحية " ، فقد أدى هذا إلى تشكيل العمل التربوى ليدور حول محورين (١٠٠) :

أولا – الإعداد الضرورى اللازم للحصول على ضرورات الحياة العملية ، ولا يتضمن هذا الإعداد مجرد معرفة الطريقة التى بها يتحقق الغرض المعين ، كالصيد والقنص واستخدام الآلات وإعداد الجلود والبحث عن المأوى ، ولكن لابد مع ذلك من معرفة كيف يمكن القيام بمثل هذه الأشياء بالطرق المخصوصة المتداولة بين أفراد الأسرة والعشيرة ، كما وضعها كاهنهم أو ساحرهم أو طبيبهم ، بحيث يتجنب إغضاب الأشباه التى لها السيطرة على هذه الأشياء المادية ، وبذلك يمكن تحقيق الرغبات المطلوبة .

ثانيا – تدريب الفرد على الطرق المقبولة ، أو على ضروب العبادة التى بواسطتها لابد لكل فرد من أفراد الجماعة أن يبذل قصارى جهده لترضية عالم الأرواح أو إثارة إرادته الطيبة . وكل عملية من هذه العلميات تتطلب اتباع طريقة خاصة مناسبة لكل عمل ، عاديا كان ذلك العمل أو غير عادى ، وسواء أكان ذلك متصلا بحياة الفرد أو بحياة الجماعة .

والناحية الأولى هى عماد التربية العلمية ، والشطر الثانى هو عماد التربية النظرية لدى الإنسان البدائى .

وعلى هذا يمكن القول بأن غرض التربية البدائية هو إحداث توافق وانسجام بين الفرد وبيئته المادية والروحية ، وذلك بوسائل ثابتة وطرائق معينة فى القيام بالأعمال سواء أكان فى حالة العمل المصلحى أو فى حالة العبادة . وقد فرض على الإنسان البدائى اتباع الطرق نفسها التى يتبعها المجتمع ، وكل من الفرد والجماعة ، لا يشعر بالفرد شعورا واضحا ولا يدرك أحد أن حقوقه ورفاهيته منفصلة تماما عن حقوق المجتمع ورفاهيته . ومن أجل ذلك كانت تربية الإنسان البدائى مفروضة عليه بأدق تفاصيلها (١٠١) .

ويتم التعليم والتعلم فى المجتمع البدائى بصورة سهلة بسيطة ، لأن أدوات التعليم ووسائله فى متناول الفرد ، ويكون تعلمه من خلال الممارسة والتدريب عليها ، سواء كانت هذه الأدوات أو الوسائل رمحا أو محراثا أو قناعا للأطفال . ويكون ما يتعلمه الطفل البدائى ذا مغزى اجتماعى ووظيفى فى حياته ، ومرتبطا ارتباطا مباشرا بواقع

حياته (١٠٢) ٠ فالطفل البدائى يتولى تعليمه أبواه فيعلمانه – إلى جانب قيم وتقاليد القبيلة – أى الطرق يسلك ، وأى الثمار يأكل وأيها يترك ٠ وعندما يصحب الإبن والده للصيد ، يتعلم صيد الحيوانات وقتلها تعلما فعليا ، كما أن أخته فى المنزل تتعلم رعاية الأسرة والمنزل بمشاركة أمها فى أداء واجباتها المنزلية ٠

وقد يذهب الطفل إلى قريب له أو إلى خبير فى قبيلته ليتعلم كل ما يمكنه من نشاط مطلوب ، كالقنص وصيد الأسماك ونصب الفخاخ وغيرها ٠ وهو يتعلم هذه الأشياء لأنه يدرك علاقة التعليم بحياته الحاضرة والمستقبلة ، ومن ثم يكون التعليم عن رغبة حقيقية لديه ، وأنه يدرك أهمية ما يتعلمه ، ويدرك أيضا ما يعنيه ذلك من أجل بقائه واستمرار حياته (١٠٣) ٠

وفيما قبل المدرسة ، لم يكن هناك هيئات اجتماعية محددة ومخصصة للإشراف على التربية فى المجتمعات البدائية ، وكانت الأسرة ، وهى الوسيط الاجتماعى الأساسى ، هى نفسها الوسيط التربوى الوحيد فى أولى مراحل التطور الإنسانى ، وكان هذا يعنى أن الرقابة على العملية التربوية كانت فى يد الأسرة ، فكان عليها مسئولية تدريب الأطفال على العرف والتقاليد المقبولة من الجماعة القبلية ٠ وكان لبعض أولئك الأشخاص ، وهم عادة كبار رجال القبائل ورجال الطب والسحر ورواة الأخبار ، طبقة كهنوتية تشرف على تعليم الأطفال ٠ وهناك ما يدل على أن نوعا خاصا من التدريب كان يخضع له كل من ينضم لطبقة الكهنة ، وكان هذا التدريب يشمل عادة التعرف على بعض المهارات والمعارف الخاصة المتعلقة بالسحر والترانيم والطقوس والحفلات ٠ وكان لبعض القبائل ، بالإضافة إلى ذلك ، جماعات تقوم بحرف ووظائف مختلفة كبناء البيوت ، وتشكيل الأشياء من المعادن ، وصناعة الآلات والملابس ، ووشم الناس ٠ وكانت هذه الجماعات تدرب الصغار على التعرف على مهارات وأسرار هذه الحرف المختلفة (١٠٤) ٠

وكثيرا ما كانت بعض القبائل تقيم طقوسا لتدشين المراهقين أو صغار الشباب قبل قبولهم فى مجتمع الكبار فيها ٠ ورغم أن ممارسة طقوس التدشين لم تكن أمرا شائعا

بين كل القبائل إلا أنها كانت تمثل نوعا هاما من إشراف الكبار على تربية الصغار (١٠٥) .

وكانت بيئة الإنسان البدائى ، ثابتة نسبيا ، ولم تكن تتطلب القدرة العقلية بل تتطلب الشجاعة وتكامل الشخصية ، فكان الوالد البدائى يركز اهتمامه فى بناء شخصية ولده كما تركز التربية الحديثة اهتمامها فى تدريب القوة العقلية ، فقد كان يعنيه أن يبنى رجالا ، لا أن يكون العلماء ، ومن هنا كانت طقوس إدماج الناس فى القبيلة ، تلك الطقوس التى كانت الشعوب البدائية تعلن بلوغ الناس سن النضج وتعترف له بعضوية الجماعة ، ترمى إلى اختبار شجاعته أكثر مما تقصد إلى قياس معرفته . وكانت مهمتها أن تعد الشباب لمشاق الحرب وتبعات الزواج ، وهى فى الوقت نفسه فرصة تتاح للكبار أن يمرحوا (١٠٦) .

والتربية الفكرية لم يكن من شأنها أن تقدم لقدرات الناشىء إعدادا منهجيا عقلانيا ، غير أنها كانت تشحذ القدرات والمهارات الضرورية التى يستلزمها طراز الحياة لدى تلك الأقوام البدائية ، فالآباء ، وقد عرفوا أن عليهم أن يصارعوا شتى الأخطار ، يدركون بالنظرة والفطرة بأن عليهم أن يتعهدوا حواس أطفالهم وأن ييسروا لها ما يشحذها ويزكيها . والحق أن أول ما يدهشنا لدى الأقوام البدائية ذلك الإرهاف الرائع فى الإدراكات الحسية ، فالسمع عندهم مرهف ، والبصر حديد ، حتى أن بعض القبائل المتنقلة كانت تستطيع أن تتوسم عمر أشخاص يمرون بها مرورا عابرا ، بل أن تتفرس جنسهم وقومهم وعددهم ، من مجرد ملاحظة مظهرهم وهيأتهم .

ومن المعروف أن علم الفراسة عند القبائل العربية طرف من هذه القدرة الهائلة على الحدس النفسى والحسى . أما الشم عند هذه الأقوام البدائية ، فقد ينافس حاسة الشم عند كلابهم . ومثل هذا يصدق على الذاكرة ، فراعى القطيع ، وهو يرى قطعانه الكثيرة تمر أمام ناظريه ، كثيرا ما يستبين له نقصها أو تمامها بلمحة عين ، بل كثيرا ما يصف الرؤوس الناقصة (١٠٧) .

وكانت هناك أيضا التربية الجسمية ، حيث كانت أهم مشاكل الإنسان البدائى هى أن يحمى نفسه وأسرته من الأعداء سواء كانوا من البشر ، أو من الحيوانات ، فكان عليه أن يعنى بجسمه وبنيانه ، وقد مارس من أجل ذلك تدريبات بدنية مختلفة ، وكان من عادتهم تشجيع الأطفال على لكم آبائهم كى لا يشبوا جبناء ، وعندما يكبر الأطفال ، عليهم أن يتقبلوا بكل شجاعة اللكمات القوية التى يسددها إليهم آباؤهم (١٠٨).

أما عن التربية الدينية ، فكانت فى بداية الأمر فى يد الأسرة ، ولكن عندما انضمت الأسرة لتكون قبائل ، وأصبحت عادات القبيلة جزءا من ميراثها الاجتماعى ، صارت الضرورة إلى العبادة الجماعية بين أفراد القبيلة ، ولهذا كان لابد من وجود قائد للقبيلة ، وقد اختير لقوته أو سنه ، أو منظره أو قدرته . ومن المحتمل أنه كان يسمى رجل الطب أو الطبيب ، أو الساحر أو الكاهن . وكان من أهم اختصاصاته طرد الأرواح الشريرة ، وابتكار الرقصات وإعداد المراسم والطقوس والطلاسم ، وكل ما يرتبط بالعبادة .

كان قائد أو مختار القبيلة ، زعيمها الدينى ، وكان عليه أن يعرف الأسباب التى من أجلها تقام الطقوس والمراسيم ، وشكلت هذه المعرفة المنابع الأولى للمعرفة التى ستنضم وتتنوع فيما بعد لتكون المناهج التى يدرسها التلاميذ والطلبة . ولكى تنقل هذه المعرفة من جيل إلى آخر ، نظمت فصول لتدريب الشباب من القبيلة الذين اختيروا لتولى الوظائف الكهنوتية فيما بعد . وكان لابد إذن لهذه الطائفة من رجال الدين أن تحجب الأسرار الدينية عن سواد الجماهير . وعندما ظهرت الكتابة ظلت هذه المعرفة أيضا قاصرة على رجال الدين الذين زادوا عليها جيلا بعد جيل ، فكان الكهنة هم المعلمين وحاملى المعرفة وتنظيمها وهم الذين ابتكروا اللغة والأدب (١٠٩) .

وليس فى وسعنا أن نقدر ما أداه الإنسان فيما قبل التاريخ تقديرا تاما ، لأننا من جهة لا ينبغى أن ننساق وراء الخيال فى تصوير حياتهم بحيث تجاوز ما تبرره الشواهد ، ولكننا قد نشك من جهة أخرى أن الدهر قد محا آثارا لو بقيت لضيقت مسافة الخلف بين الإنسان الأول والإنسان الحديث (١١٠) . ومع ذلك فمما قد بقى لنا من أدلة خطوات التقدم التى خطاها إنسان العصور الحجرية ، يكفى وحده لتقديره : فحسبنا ما

تم فى العصر الحجرى القديم من صناعة الآلات واكتشاف النار وتقدم الفنون ، وحسبنا ما ظهر فى العصر الحجرى الحديث من زراعة وتربية حيوان ونسج وخزف وبناء ونقل وطب وسيادة الإنسان على الأرض سيادة لم يعد منازعا فيها ، والتوسع فى عمرانها بأبناء الجنس البشرى • وهكذا وضعت للمدنية كل أساسها : كل شىء قد تم إعداده للمدنيات التاريخية ، إلا المعادن – فميا نظن – والكتاب والدولة ، فهيأ للإنسان سبلا لتسجيل أفكاره وأعماله ، بحيث يمكن نقلها كاملة آمنة من جيل إلى جيل ، فتبدأ المدنية •

ويمكن القول بلا مبالغة أن أوسع خطوة خطاها الإنسان فى انتقاله إلى المدنيـة هى الكتابة ، ففى قطع من الخزف ، هبطت إلينا من العصر الحجرى الثانى ، خطوط مرسومة بالألوان فسرها كثير من الباحثين على أنها رموز ، وقد يكون هذا موضعا للشك ، لكنه من الجائز أن تكون الكتابة بمعناها الواسع الذى يدل على رموز من رسوم تعبر عن أفكار ، وقد بدأت بعلامات مطبوعة بالأظفار أو بالمسامير على الطين وهو لين ، بغية زخرفته أو تمييزه بعد أن تتم صناعته خزفا (١١١) • ويرى " فلندرز بيترلى F.Petrlie " أن مجموعة كبيرة من الرموز قد استخدمت شيئا فشيئا فى العصور الأولى لأغراض شتى ، فقد تبودلت مع التجارة ، وانتشرت من قطر إلى قطر (١١٢) •

ومهما يكن من أمر تطور هذه الرموز التجارية الأولى ، فلقد سايرها جنبا إلى جنب ضرب من الكتابة كان فرعا من الرسم والتصوير ، وكان يعبر بالصور عن فكر متصل • وما جاء عام ٣٦٠٠ق•م – وقد يكون قبل ذلك التاريخ بزمن طويل – حتى كانت " عيلام " و " سومر " و" مصر " قد طورت مجموعة من الصور التى يعبرون بها عن أفكارهم وأطلقوا عليها " الكتابة الهيروغليفية " ، لأن معظم من قام بها كان من الكهنة •

وسنرى فيما بعد كيف استحالت هذه الكتابة الهيروغليفية التى تمثل كل صورة منها فكرة كيف استحالت بخطأ الإستعمال ، ثم بما تناولها من تنسيق وتنظيم عرفى ، إلى مقاطع ، أى إلى مجموعة من الرموز يدل كل منها على مقطع ، ثم كيف استخدمت

العلامات آخر الأمر لا لتدل على المقطع كله ، بل على أول ما فيه من أصوات . وبهذا أصبحت حروفا ، وربما كان تاريخ هذه الكتابة الهيروغليفية يرتد فى التاريخ إلى عام ٣٠٠٠ق.م فى مصر (١١٣) .

الظاهر إذن أن الكتابة من نتائج التجارة ، وهى إحدى وسائل التجارة المسهلة لأمورها ، فهاهنا أيضا نرى الثقافة كم هى مدينة للتجارة ، ذلك أنه لما اصطنع الكهنة لأنفسهم مجموعة من رسوم يكتبون بها عباراتهم السحرية والطقوسية والطبية ، اتحدت الطائفتان : الدنيوية والدينية ، وهما طائفتان متنازعتان عادة ، اتحدتا مؤقتا لتتعاونا على إخراج أعظم ما أخرجته الإنسانية من مخترعاتها منذ عرف الإنسان الكلام ، نستطيع أن نقول أن تطور الكتابة هو الذى كان ينشىء الحضارة إنشاء ، لأن الكتابة هيأت وسيلة تسجيل المعرفة ونقلها ، كما كانت وسيلة لازدهار العلم وازدهار الأدب ، وانتشار السلام والنظام بين القبائل المتنافرة ، لكنها متصلة على تنافرها ، لأن استخدام لغة واحدة أخضعتها جميعا لدولة واحدة . إن بداية ظهور الكتابة ، هى الحد الذى يعين بداية التاريخ ، تلك البداية التى يتراجع عهدها كلما اتسعت معارف الإنسان بآثار الأولين (١١٤) .

الهوامـــــش

١- مجمع اللغة العربية : المعجم الكبير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١، ج٢، حرف الباء ٠

٢- شاكر مصطفى سليم : قاموس الأنثروبولوجيا ، جامعة الكويت ، الكويت ، ١٩٨١

٣- أشلى مونتاغيو(محرر) : البدائية ، ترجمة محمد عصفور ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (٥٣) ، مايو ١٩٨٢، ص٢٢

٤- المرجع السابق ، ص٢٣

٥- العنكبوت /٢٠

٦- الأعراف /٢٩

٧-مونتاغيو ، مرجع سابق ، ص ١٠٨

٨- المرجع السابق ، ص ١٠٩

٩- وهيب إبراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١، ص ٤٦

١٠- Butts.R.Freeman:A Cultural History of Western Education.McGraw Hill Company Inc.1955.pp4-5

١١- مونتاغيو ، مرجع سابق ، ص ١٥

١٢- المرجع السابق ، ص٢٣٣

١٣- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥، الجزء الأول من المجلد الأول ، ص١٥

١٤- إبراهيم رزقانة : الأنثروبولوجيا ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٠٩

١٥- المرجع السابق ، ص١١٠

١٦- المرجع السابق ٠

١٧- صوفى حسن أبو طالب : مبادىء تاريخ القانون ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٥٩

١٨- المرجع السابق ، ص ٦٠

١٩- ثروت أنيس العيوطى : نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين ، دار الكاتب العربى ،

القاهرة ، د.ت ، ص ١٠١

٢٠- محمد السيد غلاب ، يسرى الجوهرى : الجغرافيا التاريخية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص٣٠١

٢١- ديورانت : قصة الحضارة ، ج١ ، م١ ، ص ١٨

٢٢- ب.برينتيس : نشوء الحضارات القديمة ، ترجمة جبرائيل يوسف كباس ، الأبجدية للنشر ، دمشق ، ١٩٨٩ ، ص ٢٠

٢٣- ديورانت : قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ٣١

٢٤- قاموس الأنثروبولوجيا ، مرجع سابق ، ص ٧٧٣

٢٥- أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعى ، الهية المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ط٢ ، د.ت، ص٢٠٠

٢٦- المرجع السابق ، ٢١٠

٢٧- ج.سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة محمد خلف الله وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ج١ ، ص ٢٦

٢٨- ا.و.ف. توملين : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبد الحميد سليم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٣

٢٩- رالف لينتون : دراسة الإنسان ، ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٤٠٤

٣٠- المرجع السابق ، ص ٤٢١

٣١- ديورانت ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ٢٣

٣٢- المرجع السابق ، ص ١٧٣

٣٣- حسين مؤنس ، الحضارة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة(١) ، يناير ١٩٨٧ ، ص ٧٢

٣٤- المرجع السابق ، ص٧٣

٣٥-أحمد أبو زيد : الطاقة والحضارة ، فى (عالم الفكر) ، وزارة الإعلام ، الكويت ، م٥، العدد٢، يوليو/سبتمبر١٩٧٤، ص ١٦٨

٣٦- المرجع السابق ، ص ١٧٠

٣٧- م. كاريذرس : لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة ؟ ترجمة شوقى جلال ، المجلس

الوطنـى للثقافـة والفنـون والآداب ، الكويـت ، سلسـلة عـالم المعرفـة (٢٢٩) يناير ١٩٩٨ ، ص ٦٣

٣٨- بول مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، ترجمة صالح عبد العزيز ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ج١، ص ص ٣،٢

٣٩- سعد مرسى أحمد : التربية والتقدم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٧

٤٠- ج٠ل٠مايرز : فجر التاريخ ، ترجمة على عزت الأنصارى ، مركز الشرق الأوسط ، القاهرة ، ١٩٦٢، ص٢٤

٤١- سارتون ، تاريخ العلم ، مرجع سابق ، ص ٥٠

٤٢- المرجع السابق ، ص ٥١

٤٣- ديورانت ، قصة الحضارة، مرجع سابق ، ص ١٣٧

٤٤- سارتون ، تاريخ العلم ، مرجع سابق ، ص ٦٣

٤٥- ديورانت ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ١٣٤

٤٦- المرجع السابق ، ص ١٣٥

٤٧- سارتون ، مرجع سابق ، ص ٦١

٤٨- إبراهيم رزقانة ، الأنثروبولوجيا ، مرجع سابق ، ص ١٤٤

٤٩- ديورانت ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ٥٥

٥٠- رالف لينتون ، دراسة الإنسان ، ص ٢٠٥

٥١- المرجع السابق ، ص ٢٠٦

٥٢- م٠ هاريس : الأنثروبولوجيا الثقافية ، ترجمة السيد أحمد حامد ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص١٣٦

٥٣- ثروت أنيس العيوطى ، نظام الأسرة والدين ، مرجع سابق ، ص ١٠٨

٥٤- المرجع السابق ، ص ١١٤

٥٥- هاريس ، الأنثروبولوجيا ، مرجع سابق ، ص ١٣٥

٥٦- صوفى أبو طالب : مبادىء تاريخ القانون ،مرجع سابق ، ص ٩٤

٥٧- ديورانت ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ٤٧

٥٨- صوفى أبو طالب ، مبادىء تاريخ القانون ، ص ٩٧

٥٩- عبد الباسط سيدا : من الوعى الأسطورى إلى بدايات التفكير الفلسفى النظرى ، دار الحصاد ، دمشق ، ١٩٩٥ ، ص ٦٩

٦٠- المرجع السابق ، ص ٧٠

٦١- فراس السواح : مغامرة العقل الأولى ، دار علاء الدين ، دمشق ، ١٩٩٦ ، ص ١٩

٦٢- المرجع السابق ، ص ٢٠

٦٣- عبد الباسط سيدا ، مرجع سابق ، ص ٢١

٦٤- ه٠فرانكفورت وآخرون : ما قبل الفلسفة ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٧

٦٥- المرجع السابق ، ص ١٨

٦٦- ديورانت ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ١٠٠

٦٧- المرجع السابق ، ص ١٠٢

٦٨- أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٥٣٦

٦٩- المرجع السابق ، ص ٥٣٨

٧٠- فتحية محمد إبراهيم ومصطفى حمدى الشنوانى : مدخل لدراسة الأنثروبولوجيا المعرفية ، دار المريخ ، الرياض ، ١٩٩١ ، ص ١٥٨

٧١- المرجع السابق ، ص ١٥٩

٧٢- سيد محمد غنيم : اللغة والفكر عند الطفل ، فى (عالم الفكر) م٢، ع١، أبريل/يونيو١٩٧١ ، ص ٩٢

٧٣- أحمد أبو زيد : حضارة اللغة ، فى المرجع السابق ، ص ١٢

٧٤- ر٠ه٠روبنز : موجز تاريخ علم اللغة (فى الغرب) ، ترجمة أحمد عوض ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (٢٢٧) ، نوفمبر ١٩٩٧ ، ص ٢٤٥

٧٥- المرجع السابق ، ص ٢٤٨

٧٦- محمود فهمى حجازى : أصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الإثنولوجية ، فى (عالم الفكر) ، وزارة الإعلام ، الكويت ، م٣، ع١، أبريل/يونيو ١٩٧٢، ص ١٥٧

٧٧- سيد أحمد الناصرى : قضية التاريخ القديم ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، سلسلة المكتبة الثقافية (٢٧٢) ، ١٩٧١ ، ص ٦٦

٧٨- أحمد أبو زيد : حضارة اللغة ، مرجع سابق ، ص ١٩

٧٩- المرجع السابق ، الصفحة نفسها ٠
٨٠- زكريا إبراهيم : مشكلة البنية ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٤٩
٨١- المرجع السابق ، ص ٥٠
٨٢- محمد بن أحمودة : الأنثروبولوجيا البنيوية دار محمد على الحامى للنشر، تونس ، ١٩٨٧ ، ص ٥٤
٨٣- هاريس الأنثروبولوجيا الثقافية ، ٤١
٨٤- المرجع السابق ، ص ٤٢
٨٥- فرانكفورت وآخرون : ما قبل الفلسفة ، ١٥
٨٦- المرجع السابق ، ص ١٦
٨٧- الإسمانية Nominalism مذهب فلسفى ظهر فى أواخر القرون الوسطى ، مفاده أن كل المصطلحات الكلية المجردة هى من مستلزمات الفكر أو اللغة ، ولا وجود لها إلا كأسماء ليس لها ما يوازيها فى عالم الواقع ٠
٨٨- هذا لا يعنى أن البدائيين وجوديون أو إسمانيون بالمعنى الاصطلاحى الدقيق ٠
٨٩- مونتاغيو : البدائية ، ص ١٩٤
٩٠- المرجع السابق ، ص ١٩٥
٩١- زكريا إبراهيم : مشكلة البنية ، مرجع سابق ، ص ١٠٤
٩٢- ليفى بريل : العقلية البدائية ، ترجمة محمد القصاص ، مكتبة مصر ، د٠ت ، ص ٢١
٩٣- المرجع السابق ، ص ٢٤
٩٤-المرجع السابق ، ص٤٨
٩٥- المرجع السابق ، ص ٤٩
٩٦- المرجع السابق ، ص٥١
٩٧- المرجع السابق ، ص٥٣
٩٨- المرجع السابق ، ص ٥٤
٩٩- المرجع السابق ، ص ٩٠
١٠٠- مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، مرجع سابق ، ج١، ص٤
١٠١- المرجع السابق ، ص ٥
١٠٢- محمد منير مرسى : تاريخ التربية فى الشرق والغرب ، عالم الكتب ، القاهرة ،

١٩٧٧ ، ص٢٠

١٠٣- المرجع السابق ، ص ٢٠

١٠٤- وهيب سمعان ، الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، ص ٥٧

١٠٥- المرجع السابق ، ص ٥٨

١٠٦- ديورانت ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ١٢٧

١٠٧- عبد الله عبد الدايم : التربية عبر التاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٢١

١٠٨- سعد مرسى أحمد : التربية والتقدم ، ص ١٨

١٠٩- المرجع السابق ، ص ١٩

١١٠- ديورانت : قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ١٧٦

١١١- المرجع السابق ، ص ١٨١

١١٢- المرجع السابق ، ص ١٨٢

١١٣- المرجع السابق ، ص ١٨٣

١١٤- المرجع السابق ، ص ١٨٤

الفصل الثالث

بلاد الرافدين

مدخل :

يطلق على المنطقة الممتدة فى آسيا وشمال إفريقية ، بين إيران شرقا ووادى النيل وليبيا غربا اسم عام مبهم وهو " الشرق الأدنى " ، وهو ما يطابق تقريبا اصطلاح " الشرق الأوسط " الشائع فى أيامنا ، إلا أن الأنجلو- ساكسون يميلون إلى مد مدلول هذا الاصطلاح الأخير إلى حدود العالم الهندى ، وفى هذا الشرق ، الذى يشكل مشرقنا العربى أهم رقعة فيه ، وحدات جغرافية - تاريخية : الأناضول فى آسيا الصغرى وأوراتو حول بحيرة وان وميدية جنوبى بحر قزوين وفارس فى جنوب إيران ۰ وتمتد بلاد الرافدين فى الشمال الشرقى من بلاد العرب ، من جبال كردستان شمالا إلى الخليج العربى (١) ۰

وقد أتى المصطلح الأوربى Mesopotamia من المصطلح الجغرافى اليونانى القديم Mesopotamios ويترجمونه ببلاد ما بين النهرين -دجلة والفرات - وهى ترجمة أمينة ، لولا أنه ينبغى أن يقدر أن مواطن الحضارة العراقية القديمة لم تقتصر على ما بين النهرين وإنما امتدت إلى ما حولهما أيضا ، بل إن طائفة من أقدم المواطن الأثرية مثل العبيد وإريدو وأور قامت غرب الفرات وليس فيما بينه وبين دجلة ۰ كما قامت إشنونا (تل أسمر) ونوزى شرق دجلة وليس فيما بينه وبين الفرات ۰ وقد فطن بعض الكتاب الإغريق أنفسهم إلى قصور لفظ ميزوبوتاميا ، فأضافوا إليه بارابوتاميا Parapotamia ، أى خارج النهرين أو ما حولهما (٢)۰

وإذن فالمصطلح على وجه العموم يدل بصورة عامة على المنطقة المعروفة باسم العراق حاليا ، بالإضافة إلى الجزيرة السورية ، لكن الوضع الجغرافى - التاريخى لم يكن هكذا فى مراحل تاريخية أقدم ، فمن المعروف أن أوضح استعمال لتسمية mesopotamios هو الذى ورد عند المؤرخ الكلاسيكى " بوليبيوس

Polybius ٢٠٢ ق٠م " ، على الرغم من احتمال استعمال المصطلح قبله ٠ وتبع " بوليبيوس " الجغرافى " سترابون ٦٤ ق٠م – ١٩م " فى استعمال هذا المصطلح لإطلاقه على ذلك الجزء من العراق المحصور ما بين دجلة والفرات من الشمال إلى حدود بغداد تقريبا (٣) ٠ وقد كان هذا المصطلح يطابق إلى حد كبير مصطلح الجزيرة الذى استخدمه البلدانيون العرب للدلالة على القسم الشمالى من وادى الرافدين ، وهذا مؤداه أن المنطقة التى كان يحددها هذا المصطلح كانت تضم جزءا من الأراضى العراقية ، إلى جانب جزء من الأراضى السورية (٤) ٠

أما القسم الجنوبى من العراق الحالى فقد أطلقت عليه تسميات عدة عبر عصور التاريخ المختلفة ، مثل " بلاد سومر وأكد " ، وغيرها ٠

ويطابق باحث آخر بين اسم " بلاد الرافدين " والاسم الحديث ، العراق ، الذى يشكل مع سوريا القديمة وفلسطين ووادى النيل ما دعاه " برستيد " (الهلال الخصيب) ٠ وقد قامت بين هذه الأقطار منذ فجر التاريخ وبدايات الحضارة صلات يمكن أن ترقى إلى العصور الحجرية أى إلى ما قبل الكتابة واستمرت خلال المراحل المتعاقبة ودون انقطاع (٥) ٠

وليس معنى هذا أن هناك اتفاقا على تسمية محددة لأرض الرافدين ، إذ لم يتفق المؤرخون على ذلك ، فكلمة عراق يتأرجح معناها بين عدة آراء : فهناك من يرجعها للأصل العربى بمعنى الجرف أو الساحل ، وهناك من يرجعها لأصل قديم " سومرى " أو " سامى " ، مشتق من كلمة " أوروك " بمعنى المستوطن ٠ وقد أطلق عليها كذلك " أرض السواد " ، نسبة للقسم الجنوبى ٠ وهناك من يرى أنه سمى كذلك " لتواشج عروق الشجر والنخل فيه "٠

والذى حصل مع الوقت هو أن نطاق دلالة اسم العراق اتسع ليشمل ، بالإضافة إلى القسم الجنوبى من العراق الحالى ، القسمين الأوسط والشمالى أيضا ، كما حصل الأمر نفسه بصورة عكسية لمصطلح بلاد ما بين النهرين ، فالدلالة الأوربية له لم تعد هى

نفسها التى كان يعنيها المؤرخون اليونان والرومان ، فبموجب الاستخدام الأوربى الحديث لهذا المصطلح ، بات هذا الأخير يشمل بالإضافة إلى الجزيرة (العراقية - السورية) القسمين الأوسط والجنوبى من العراق الحالى (٦) ٠

وتاريخ بلاد الرافدين هو أقرب ما يقرن بتاريخ مصر القديم ، من حيث السبق الزمنى والثراء المتنوع والطابع المتميز واتصال التطور فى مجال الفكر والمادة معا ، وكان فيما بقى من آثار العراق ، وما أتت به قصص التوراة عن الأشوريين والبابليين وعلاقتهم بمناطق فلسطين والعبرانيين ، ثم ما سجله الرحالة والمؤرخون والإغريق والرومان الكلاسيكيون عنهم وعنها ما أثار تطلع عدد من الرحالة والباحثين ، بل والمغامرين فى بداية العصر الحديث إلى محاولة كشف النقاب عن آثار بلاد العراق وتاريخها القديم (٧) ٠

وكانت بلاد الرافدين مهد حضارات قديمة ، وكان إنسانها الأول متفرقا فى مجموعات بشرية انتشرت بين الشمال والجنوب ، وقد استطاع هذا الإنسان أن يحيا حياة قامت على أسس حضرية متقدمة منذ أول عصور فجر التاريخ ، وهذه الأسس أخذت تتطور تطورا رتيبا فى سلسلة متعددة الحلقات ٠ ويجب علينا ألا نعتقد بأن هذا التطور كان يحدث على مسرح واحد ، بل تعددت مسارحه واختلفت أسبابه ، ولكن من الصعب علينا أن نحدد ونتتبع التطور الحضارى بشكل تفصيلى بالنسبة لمجموعة بعينها من البشر طوال عصور متتابعة من التاريخ سكنت مكانا واحدا ، وذلك لسبب بسيط وهو أن المخلفات البشرية التى تركوها لنا فى أمكنة معيشتهم غالبا ما اندثرت واختفت على مر السنين ، ولأنهم أيضا لم يكونوا قد وصلوا فى مدنيتهم إلى الحد الذى استطاعوا معه استعمال أدوات فى حياتهم اليومية تغالب الدهر أو أنهم استعملوا الكتابة على نطاق واسع (٨) ٠

ويحرص باحثون عرقيون على إثبات الأصل السامى العربى ونفى الأصل السومرى لحضارة بلاد الرافدين كما يروج دائما المؤرخون الغربيون ، حيث يشيع القول بأن السومريين ليسوا ساميين ، ومما يستدلون به على ذلك أن الخبير الآثارى " سيتون

لويد " الذى كان يعمل خبيرا فى دائرة الآثار العراقية عدة سنوات كتب مقالا عن " اريدو" نشر فى مجلة سومر سنة ١٩٤٧ يستغرب فيه كيف يجروء " كرامر " الخبير الآثارى فى موضوع " السومريات " أن يصرح فى كتابه " الأساطير السومرية " الصادر عام ١٩٤٤ أن معظم أراضى السهل الرسوبى من بلاد ما بين النهرين كان بلا شك يسكنها الساميون عندما نزح السومريون إلى العراق من غير أن يخشى العاقبة ، فيقول ما نصه : " كرامر لم يخش أن يصرح فى كتابه (الأساطير السومرية) بأن معظم أراضى ما بين النهرين دجلة والفرات كان بلا شك يسكنها الساميون " (٩) .

ويلفت الباحث العراقى " سوسة " النظر إلى ما ورد فى هذا عن " العاقبة " ، إذ يبدو أن كرامر قد واجه صورة من هذه العاقبة بدليل أن كلامه المشار إليه اختفى فى الطبعات التى تلت سنة ١٩٤٤ ، إذ لم نجد له أثرا فى طبعة ١٩٦١ . وكرامر لم يكتف بحذف تصريحه من الطبعات الجديدة لكتابه بل أصدر كتابا للتأكيد على أنه عدل عن رأيه الأول سماه : " التاريخ يبدأ فى سومر **History begins at Sumer** " .(١٠)

ويسوق " سوسة " براهينه وأدلته التاريخية لإثبات الأصل السامى العربى لحضارة بلاد الرافدين فى النقاط التالية (١١) :

– أن أهم المدن فى السهل الرسوبى فى جنوب العراق التى اعتبرت سومرية ترجع إلى أصل سامى ، بدليل أنها كانت تقوم فوق قرى سكنية تعود إلى طبقات حضارة العبيد التى ثبت أنها كانت محاطة من كل الأطراف بحضارة عبيدية بأقطار مجاورة سامية بنفس المستوى الفنى ونفس الزمن ، وهى سوريا وجزيرة العرب والخليج العربى التى هى من أصل سامى عربى . وقد دلت الدراسات الأنثروبولوجية للهياكل العظمية التى وجدت فى مقبرة اريدو والتى تنتمى إلى حضارة العبيد أن سكان العبيد وأريدو هم من أجناس حوض البحر المتوسط الذين منهم الساميون العرب الذين نزحوا من جزيرة العرب إثر الجفاف الذى حل بها .

– أن السومريين لم يكونوا قد ظهروا إلى عالم الوجود فى عصور العبيد والوركاء وجمدة نصر فى ما قبل التاريخ ، لأنهم أسسوا حضارتهم (العصر السومرى القديم

والحديث) بعد عصر العبيد بألفى سنة على أقل تقدير ، فى حين أن هذه العصور اعتبرت سومرية ٠

- اعتبرت حضارة الوركاء فى ما قبل التاريخ سومرية ، فى حين أن السومريين ظهروا على مسرح الأحداث بعد عصر هذه الحضارة بألف وخمسمائة سنة على أقل تقدير ، لذلك ينبغى اعتبار حضارة الوركاء فى هذا العصر سامية مثل حضارة العبيد ، وقد وجدت آثار حضارة الوركاء فى سوريا السامية وهى تعود لنفس زمن الوركاء ، لذلك كانت وركاء ما قبل التاريخ غير وركاء ما بعد التاريخ ، يدل على ذلك أن الأولى تعد سامية وليس سومرية ٠

- أن أقدم مدينة فى المنطقة وهى اريدو التى اعتبرت سومرية فى حين أنها سامية أيضا بدليل ما جاء فى اثبات الملوك السومريين من أن أول وأقدم ملك حكم فى المنطقة قبل الطوفان ملك أريدو " ايلولم " وهو يحمل اسما ساميا ٠ وهذا ما ينطبق على كل المدن التى اعتبرت سومرية الأصل وهى كانت قائمة فوق طبقات حضارة العبيد السامية ٠

- أن حضارة جمدة نصر تعتبر سامية أيضا بدليل أنها كانت تقع فى المنطقة السامية وأثارها تعتبر أيضا سامية (١٢) ٠

ونحن لا نملك ، مع الأسف الشديد ، ما يمكننا أن نقبل هذا الرأى أو ننفيه ، فلسنا من أهل الاختصاص ، لكننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الاندهاش لهذه النوعية من الجدل حول " الأصول الجنسية الأولى " ، ذلك أننا نعتقد أن شعبا إذ أقام حضارة فى منطقة ، فلا يمكن أن يقيمها بين يوم وليلة ، فمن المؤكد أن أفراده لم يجيئوا جميعا كتلة واحدة ، وإنما هى عادة أفواج وأمواج ، ويمر عليهم وقت طويل حتى يستقروا وينظموا أنفسهم مجتمعا موحدا ، فإذا تم هذا أصبحوا جزءا لا يتجزء من البلد الذى استوطنوه ، خاصة إذا كانوا لم يستقروا بعد غزو منظم مقصود لإقامة دولة بالحيلة أو بالقوة ، وبالتالى ، فماذا يضيرنا إن كان هؤلاء أصولهم سامية أو غير سامية ؟! هل الجنس أو السلالة عامل حاسم فى التكوين الحضارى ؟ إننا إذا أجبنا بالإيجاب فسوف

نقدم ذريعة لمن رددوا عكس ما نردد ، وهو أن الجنس الآرى هو الذى يملك القدرة على التفوق والتحضر والتقدم ، وهذا وذاك من الأساطير حقا .

فجر الحضارة العراقية :

ظل القسم الجنوبى من العراق القديم مغطى بالمياه مما جعل حياة الناس فيه بالتالى غير ممكنة إلى ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد . أما شمال العراق فالوضع فيه مختلف : الجزء الغربى منه هضبة واسعة من السهوب المتموجة ، والجزء الشرقى فيما وراء دجلة فيه كثير من التلال المليئة بالغابات والوديان التى تجرى فيها أنهار مهمة .وبالتالى فقد هيأ الله فى ميزوبوتاميا العليا الشروط الملائمة لحياة الإنسان ، لذا كان طبيعيا أيضا أن يكون هذا الإقليم المهد الأول الذى نشأت فيه طلائع الحضارة العراقية القديمة (١٣) .

ففى هذه المنطقة عاش العراقيون الأوائل على شكل جماعات كانت تسكن الكهوف وتعتمد فى حياتها على الصيد وجمع الغذاء . ومع تطور القوى المنتجة ، وبالدرجة الأولى أدوات العمل ، انتقل العراقيون القدامى إلىممارسة الزراعية المعزقية وتأهيل الحيوان وتربية المواشى إلى جانب الصيد . وبنيت القرى وارتقت الثقافة ولكن رقيا بطيئا ، وظهرت بوادر التصورات الدينية . ومن هذا الإقليم نزح العراقيون القدامى إلى الجنوب ، عندما تراجعت مياه الخليج وتشكل السهل الغرينى الخصيب ، حاملين معهم إلى ميزوبوتاميا السفلى تقاليدهم الحضارية ، وشرعوا فى تجفيف المستنقعات وتنظيم الرى وحراثة الأرض وتربية المواشى وبناء القرى على تلال اصطناعية . وعندما وصل السومريون إلى هذه المنطقة انصهروا مع سكانها الأوائل وأخذوا حضارتهم وطوروها بفضل العمل الدؤوب والتعاون المشترك بين القادمين والمستوطنين القدامى (١٤) .

وقد تم الكشف عن آثار أشارت إلى صور من التقدم الحضارى فى مواقع مختلفة بالعراق القديم ، نذكر منها :

حضارة تل حسونة : حيث عثر الآثاريون فى قرية حسونة ، التى تقع على بعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب من مدينة الموصل الحالية على مخلفات أقدم الجماعات البشرية التى استوطنت بلاد الرافدين ، تاريخها حوال ٦٥٠٠ ق٠م ، فمن هذه المخلفات ما يخص جماعات اعتادت حياة الاستقرار ، إذ شيدوا لأنفسهم مساكن بدائية من الطمى غير المشكل واستعملوا نوعا من الفخار تزينه زخارف مرسومة ، هذا إلى بعض الآلات التى تساعدهم على قطع سنابل حبوبهم (١٥) ٠

حضارة تل خلف : حوالى ٥٠٠٠ق٠م تمتد من زاغروس إلى البحر المتوسط ، وقد انتشرت آثار مواقع هذه الحضارة فى حوض دجلة الأعلى ، و المستوى التقنى لهذه الحضارة رفيع وتميز الصناع بالبراعة والجرأة فى التنفيذ ، وهذا ما يلاحظ من خلال الأدوات التى عثر عليها ٠ وبدأت منذ أواخر ذلك العصر صناعة المعادن وبخاصة النحاس والرصاص ، وظهرت نزعة للاهتمام بالعمران (١٦) ٠

حضارة العبيد : نسبة إلى أحد التلول الأثرية جنوبى العراق المعروف ب " تل العبيد " ، وقد عين البعض بداية هذه الحضارة بعام ٤٥٠٠ ق٠م ، وهى أول حضارة فى العراق القديم تنتشر فى الشمال والجنوب ، رغم كونها جنوبية الأصل ، وقد ظهر إنتاجها فى كثير من المجالات ، مثل صناعة الأوانى الفخارية الملونة والمزينة ، وعبر مهرة الصناع عن فنون عصرهم على أفضل إنتاجهم من الأوانى الفخارية ٠ وكان من أهم منتجات حضارة العبيد الجنوبية ما كان يتصل بمهنتى صيد الأسماك والزراعة ٠ هذا وقد اهتم القوم ببناء دور للعبادة (١٧) ٠

حضارة الوركاء : نسبة إلى مدينة " أوروك " فى جنوب العراق ، ويرجع زمنها إلى الحقبة من سنة ٣٨٠٠ ق٠م إلى سنة ٣٥٠٠ ق٠م ٠ ولعل أهم ما يصور الرقى النسبى فى حضارة الوركاء ، هو نقوش أختامها ، وصورت النقوش نفسها حيوانات بيئتها ، كذلك لعبت صور المراكب دورها فى مناظر الأختام ٠ وواصل التطور المعمارى طريقه فى أبنية المعابد والمساكن الرئيسية فى عهده (١٨) ٠ ومن مقومات حضارة الوركاء بوادر الكتابة ، وكانت على هيئة صور استعملت لتسجيل واردات المعابد ٠

حضارة جمدة نصر : ويرجع إلى آخر العصور الحجرية فى الفترة التى تمتد من سنة ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق٠م ، وتقع أطلالها على مسافة ٥٥ كم من شمال مدينة الحلة الحالية (١٩) ٠ ومن أهم مميزاتها تقدم فن الكتابة وبدء انتقالها من طور الصور إلى رموز وعلامات ثم صارت مقاطع ذات قيم صوتية ٠ وفى هذا الدور تقدمت الصناعات وازداد استعمال الأختام ٠

السياق الزمنى :

سوف يكون السياق الزمنى لحديثنا عن التربية فى حضارة بلاد الرافدين هو هذا التقسيم الذى أورده " عبد الباسط سيدا " إلى العصور التالية (٢٠) :

١ - عصر السلالات أو عصور دول المدن ٢٨٠٠ - ٢٣٧٠ق٠م :

ا - عصر السلالات الثانى (٢٨٠٠-٢٦٠٠ق٠م) مسيلم - سلالة كيش الأولى - سلالة الوركاء الأولى - ألواح تل فارة ٠

ب - عصر السلالات الثالث (٢٦٠٠ - ٢٣٧٠ق٠م) :

المقبرة الملكية : مس - كلام - دوك ، آ - كلام - دوك ، جلجامش سلالة لجش الأولى (سلالة أور - نانشة) ٠

" أوما " وغيرها من المدن السومرية ، سلالة " أور الأولى "

ميسانيدا " لوكال - زاكيزى ٠

٢ - العصر الأكدى (السلالة الأكدية) (٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق٠م)

سرجون (٢٣٧٠ - ٢٣١٦) ، (نرام - سين) (٢٢٩٠ - ٢٢٥٥ ق٠م)

٣ - الدور الكوتى وسلالة لجش الثانية (٢٢٣٠ - ٢١٢٠ ق٠م) عصر كودية (حودية) ٠

٤ - سلالة أور الثالثة (٢١١٢-٢٠٠٤ق٠م)

أور - نمو(٢١١٢-٢٠٩٥ ق٠م) شولجى (٢٠٩٤-٢٠٤٧ ق٠م)٠

" أما - سين " أو " بوسين " (٢٠٤٦-٢٠٣٨ ق٠م)

شورسين (٢٠٣٧ - ٢٠٢٩ ق٠م) أبى - سين (٢٠٢٨ - ٢٠٠٤ ق٠م) ٠

٥- العصر البابلى القديم (٢٠٠٠-١٥٩٥ق٠م) ٠

ا - سلالة لارسا (٢٠٢٥-١٧٦٣ ق٠م) مؤسسها (نبلانم)٠

ب - سلالة ايسن (٢٠١٧-١٧٩٤ ق٠م)، مؤسسها اشبى -ارا) ٠

ج- سلالة " أشونا " (٢٠٠٠-١٧٦١ ق٠م) من مشاهير ملوكها " شمسى - ادد "الأول و" اباليل الأول و " نرام - سين " و " دادوشا " ٠ واباليل الثانى (١٧٩٠؟-١٧٦١ق٠م) ٠

د- بلا آشور (٢٠٠٠؟ - ١٧٦٠ق٠م)

" شمس - ادد الأول (١٨١٣ - ١٧٨١ق٠م) ٠

ه - سلالة بابل الأولى (١٨٩٤ -١٥٩٥ق٠م) ٠

مؤسسها ، سوموآيم) وسادس ملوكها حمورابى (١٧٩٢-١٧٥٠ق٠م) ، وآخر ملوكها " سمبسو - ديتانا " (١٦٢٥-١٥٩٥ق٠م) ٠

٦ - العصر الكشى (١٧٠٠-١١٥٧ ق٠م)

الكشيون فى بلاد بابل باسم سلالة بابل الثالثة (١٥٩٥-١١٥٧ق٠م)

٧ - سلالة القطر البحرى (سلالة بابل الثانية ١٧٤٢-؟)

٨ - العصر البابلى الوسيط (١٥٠٠-٦٢٧ ق٠م) ٠

السلالة الكشية السابقة والسلالات البابلية من الرابعة إلى العاشرة ٠

٩ - العصر البابلى الحديث (٦٢٧-٥٣٩ ق٠م)

سلالة بابل الحادية عشرة : نبوبولاصر (؟ - ٦٠٥ق٠م) وابنه نبوخذ نصر (٦٠٥-٥٦٢ ق٠م) ونبو نيدس (٥٥٥- ٥٣٩ ق٠م)

استيلاء : كورش على بلاد بابل (٥٣٩ق٠م)

١٠ - العصر الفارسى الأخمينى فى العراق (٥٣٩-٣٣١ قق٠م) ٠

أشهر ملوكه : كورش الثانى (٥٥٩-٥٣٠ ق٠م)، ودارا الأول ٠

الأدوار التاريخية فى بلاد آشور ٠

١ - عصر ما قبل التاريخ ٠

٢ - دور سيطرة دول الجنوب إلى نهاية سلالة أور الثالثة (٢٥٠٠؟ -٢٠٠٠ق٠م)

٣ -العصر الآشورى القديم (٢٠٠٠-١٥٠٠قق٠م)

من مشاهير ملوكه : ايرشم الأول ٠ سرجون الأول (المستعمرة الآشورية فى

تركيا فى كول تبه ، كانيش القديمة - شمسى - ادد الأول(١٨١٣-١٧٨١ق٠م)
٤ - العصر الآشورى الوسيط (١٥٠٠-٩١١ ق٠م)
من مشاهير ملوكه آشور - أو بالط الأول (١٣٦٥-١٣٣٠ق٠م) شيلمنصر الأول(١٣٧٤-١٣٤٥ ق٠م) وتوكلتى - ننورتا الأول (١٣٤٤-١٢٠٨ق٠م) (٢١) ٠

صناع حضارة بلاد الرافدين :

السـومريـون : تقع بلاد سومر وأكد فى الوادى الأسفل لنهرى دجلة والفرات ، وإلى جنوبها وغربها تقع الصحراء الغربية والخليج العربى الذى كان يمتد فى أيام سومر المبكرة شمالى مجاورات أريدو ، وربما كان نهر دجلة يكون أصلا حدا طبيعيا من ناحية الشرق ، وهى الناحية التى كان من الممكن التوسع من ناحيتها ٠ ومما تجدر ملاحظته أن مدن سومر وأكد إنما كانت تقع جميعا على ضفاف الفرات ، أو أحد أو بعض روافده ، وليست على ضفاف دجلة ، إلا ما ندر (٢٢) ٠

ولم يكن هناك حد فاصل طبيعى بين سومر وأكد ، كالحد الذى يفصلهما معا عن إقليم أشور وميزبزتاميا فى الشمال ، وكان النصف الشمالى الشرقى يحمل اسم " أكد " ، كما كان القسم الجنوببى الشرقى عند رأس الخليج العربى يعرف باسم " سومر " (٢٣) ٠

وقبل قيام السومريين ، وجدت فى المنطقة بين غرب إيران وجنوب العراق مدينة " السوس " القديمة - كانت فيما مضى مركز إقليم يسميه اليهود عيلام (أى الأرض العالية) ٠ فى هذا المكان أنشأ شعب لا نعرف أصله ولا الجنس الذى ينتمى ، إحدى المدنيات الأولى المعروفة فى تاريخ العالم ٠ وقد وجد علماء الآثار الفرنسيون فى هذا الإقليم منذ جيل مضى ، آثارا بشرية يرجع عهدها إلى عشرين ألف عام ، كما وجدوا شواهد تدل على قيام ثقافة راقية يرجع عهدها إلى عام ٤٥٠٠ ق٠م ، وإن كان هناك من المؤرخين (مثل برستد) من يعتقد أن هناك مبالغة فى قدم هذه الثقافة (٢٤)٠

أما السومريون الذين ظهروا بعد ذلك فى جنوب العراق فقد كانوا جماعات ، ليس فى وسعنا ، رغم ما قام به العلماء من بحوث ، أن نعرف إلى أية سلالة من السلالات البشرية ينتمون ؟ وأى طريق سلكوه حتى دخلوا بلاد سومر ، وفى ذلك تختلف النظريات والاتجاهات ، ومن يدرى ؟ فلعلهم جاءوا من آسيا الوسطى ، أو من بلاد القفقاس أو من أرمينيا واخترقوا أرض الجزيرة من الشمال متتبعين فى سيرهم مجريى دجلة والفرات ، حيث توجد – كما فى آشور مثلا – شواهد دالة على ثقافتهم الأولى ، أو لعلهم قد سلكوا الطريق المائى من الخليج العربى – كما تروى الأساطير – أو من مصر أو غيرها من الأقطار ، ثم اتخذوا سبيلهم نحو الشمال متتبعين على مهل النهرين العظيمين ، أو لعلهم جاءوا من السوس حيث يوجد بين آثارها رأس من الأسفلت فيه خواص السومريين كلها . ويذهب ديورانت فى تعديد الاحتمالات إلى احتمال أنهم قد يكونون من أصل مغولى قديم موغل فى القدم ، ذلك بأن فى لغتهم كثيرا من التراكيب الشبيهة بلسان المغول (٢٥) .

وقد دفعت إلى الحيرة فى تحديد الأصل الجنسى واللغوى للسومريين عدة أسباب ، منها (٢٦) : اختلاف لغتهم المكتوبة عن اللغات السامية المألوفة مع صعوبة تقريبها فى الوقت نفسه إلى مجموعة اللغات الآرية المعروفة . وقد ذهب فرض حديث إلى تقريبها إلى مجموعة اللغات قليلة الشيوع التى تأخذ بطريقة الإلصاق ، مثل المجموعة الأسيانية (نسبة إلى آسيا) ، أو مجموعة الأورال طاى (ومن مظاهر الإلصاق اللغوى إدراج لفظين أو أكثر لتكوين كلمة جديدة ، وإدماج الضمير فى الفعل المتصل به) ، ولكن بغير أدلة مقنعة . ولوحظ من ناحية أخرى أن من أسماء المعالم الرئيسية فى أرض العراق والتى تضمنتها النصوص السومرية نفسها ما يختلف فى لفظه عن مفردات لغة أصحابها السومريين ويختلف عن مسميات اللغة السامية فى الوقت ذاته مثل أسماء : دجلة (لإديفلات) ، والفرات (بورانون ، بورنونا) ، وإريدو ، وشوروباك .. إلخ ، وذلك مما يوحى باختلافهم فى الجنس أو اللغة عمن لحقوا بهم أيضا . ثم ازداد الشك فى وحدة جنسهم أن تبين بعض الباحثين أن جماجمهم الباقية قد جمعت بين خصائص الرؤوس السامية الطويلة وبين خصائص أصحاب الرؤوس العريضة من غير الساميين .

وينقل " سوسة " عن " طه باقر " بأن السومريين هم إحدى الجماعات المنحدرة من بعض الأقوام المحلية فى وادى الرافدين فى عصور ما قبل التاريخ البعيدة ، وأنهم عرفوا باسمهم الخاص ، أى السومريين ، نسبة إلى الإقليم الذىاستوطنوا فيه أخيرا فى القسم الجنوبى من العراق ، أى أن التسمية لاحقة للاستيطان ومشتقة من اسم موضع جغرافى ولا تحمل مدلولا قوميا . يؤيد هذا أن كثيرا من الأقوام التاريخية التى اشتهرت فى وادى الرافدين وأسهمت فى تكوين حضارته وأحداثه سميت باسم المواضع التى حلت فيها مثل الأكديين ، نسبة إلى مدينة " أكد " أو " أكاد" العاصمة التى أسسها سرجو سرجون الأكدى ، والبابليين نسبة إلى مدينة بابل ، والآشوريين نسبة إلى مدينة آشور ، على ما يرجح (٢٧).

ويشارك " فرازات " و " مرعى " فى هذا بقولهما أننا حصلنا على اسم السومريين من ألقاب الملوك الأكديين والبابليين الذين اتخذوا لقبا مزدوجا : (ملك سومر وأكد) = (شر شومرى أو أكدى) . أما الاسم المقابل لكلمة سومر فى اللغة السومرية فهو (كى – إن – جى/ر) . فليس لكلمة سومر أى مدلول عرقى ، وإنما لها مدلول جغرافى – سياسى ولغوى بالدرجة الأولى فى مجتمع مزدوج اللغة سادت فيه اللغة السومرية ثقافيا قبل أن تسلم الدور إلى اللغة الأكدية ، فالمزارعون والفلاحون فى المجتمع السومرى هم من عناصر السكان المحليين الذين ينحدرون من عصر العبيد وهم أسبق من الذين عرفوا باسم السومريين (٢٨) .

ولا مفر أمامنا إلا أن نثنى على ما ينتهى إليه باقر وسائر الباحثين بالنسبة لأصل السومريين ومهدهم أن ذلك من القضايا التى لم تستطع حلها الدراسات اللغوية والآثارية ، وأن كل ما قيل ويقال بشأنها مجرد تخمين وافتراضات لا يمكن البرهنة عليها ولا نقضها بوجه قاطع (٢٩) .

وعلى الرغم من صغر بلاد سومر البالغة ٢٥ ألف كم٢ فقد قامت فى بداية الألف الثالث ق.م دويلات سومرية متفرقة فى مدن عديدة فى جنوبى العراق يحكم فى كل منها سلالة مستقلة عن جارتها ، وقد تطورت الكتابة فى ذلك الحين وأصبحت ملائمة لتدوين الوقائع التاريخية ، فقد أخذ ملوك السلالات يصفون حروبهم وإنجازاتهم

ويسطرون ذلك على ألواح الطين والحجر ، وبذلك انتقل الناس إلى عهد جديد سمى بالعصور التاريخية لأن الكتابة باكتشافها وتطورها أصبحت وسيلة لتدوين التاريخ (٣٠).

وقد بلغ السومريون مرتبة عالية من الحضارة ، فقد بدءوا شق القنوات واستغلال التربة بعقل وتدبير ، وإقامة المعابد والتماثيل . وتركت الحضارة السومرية طابعها المباشر أيضا فى آشور وسوريا ومصر ، ولكن لم يقابلها هذا اتساع فى النفوذ السياسى ، فالواقع أن السومريين كانوا عاجزين دائما من الناحية السياسية عن بناء دولة كبيرة (٣١) .

وقد عثر المنقبون فى بلاد سومر على أنواع شتى من الأحجار ولم تكن البلاد نفسها تحويها ، فمن المعروف أن أهل هذه الحضارة سكنوا دلتا الدجلة والفرات التى تكونت من ترسيبات الغرين على مر السنين ، ولم توفر كبيئة لسكانها غير البوص وأشجار النخيل والطمى ، فإذا استعمل السومريون أنواعا شتى من الأحجار مثل الحجر الجيرى والأبستر والمرمر والديوريت والعقيق ، ثم إذا حذقوا صناعة صهر الذهب والفضة والنحاس ، فمعنى هذا أن كل هذه الأحجار والمعادن ، كانوا يستوردونها من خارج البلاد ، وطبعا دل هذا أيضا على وجود علاقات تجارية واسعة النطاق ، امتدت حتى وصلت إلى بلاد الهند شرقا وآسيا شمالا ، وسوريا غربا ، ثم مصر جنوبا (٣٢).

ويلخص ديورانت الحضارة السومرية تلخيصا موجزا باهرا ، فى هذا التناقض بين خزفها الفج وحليها التى أشرفت على الغاية فى الجمال والإيمان . لقد كانت هذه الحضارة مزيجا مركبا من بدايات خشنة وإتقان بارع فى بعض الأحيان . وفى تلك البلاد - على قدر ما وصل إلى علمنا - نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وإمبراطوريات ، وأول نظم الرى ، وأول استخدام للذهب والفضة فى تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب القوانين ، وأول استخدام للكتابة فى نطاق واسع ، وأول قصص الخلق والطوفان ، وأول المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأول أصباغ التجميل والحلى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل ، وأول استعمال للمعادن فى الترصيع والتزين . وهنا نجد فى

البناء أول العقود والأقواس وأول القباب ، وهنا كذلك تظهر لأول مرة فى التاريخ المعروف بعض مساوىء الحضارة فى نطاق واسع : يظهر الرق والاستبداد وتسلط الكهنة وحروب الاستعمار ، لقد كانت الحياة فى تلك البلاد متنوعة ، مهذبة ، موفورة النعم ، معقدة ، وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة والنعيم للأقوياء ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس ، وفى تلك البلاد كانت بداية ما نشأ فى تاريخ العالم من اختلافات يخطئها الحصر (٣٣) ٠

الأكـــــاديون : إذا ألقينا نظرة على خريطة بلاد النهرين ، وبدأنا عند الخليج العربى حيث يصب المجرى المشترك لنهرى دجلة والفرات ، ثم تتبعناه نحو الشمال حتى ينفصل المجريان وسرنا مع نهر الفرات لوجدنا مدينة " بابل " التى استمتعت فى يوم من الأيام بشهرة واسعة كعاصمة للبلاد ٠ وإلى الشرق من بابل القديمة نجد مدينة " كش " مقرِ أقدم ثقافة عرفت فى هذا الإقليم وإلى جوارها نجد مدينة " أكد " التى تنسب إليها دولة " الأكديين " (٢٣٤٠-٢١٨٠أو ٢٣٧١-٢٢٣٠ق٠م) (٣٤) ٠

وقد جاء اسم أكد أو أكاد من كلمة أكادو Akkadu / أغاديه Agade ، وهو الاسم الذى أطلق على مدينة أكد عاصمة الدولة الأكدية التى أسسها شروكين (Sharru-ken) ، أى الملك الصادق ، أو الملك الشرعى أو شىء من هذا القبيل ، واعتادت كتب التاريخ على أن تحور هذا الاسم إلى نطقه الإغريقى وهو " سرجون " ٠وقد ورد ذكر الأكديين فى نصوص سومرية من الألف الثالث فى شروباك فارة ، وهى موطن أوت نابشتيم/ نفشتيم = نوح البابلى ، وفى أور ٠ وأخيرا ذكرت فى نصوص (أبو صلابيخ) المشابهة لنصوص فارة ، والمعاصرة لنصوص إيلا فى سوريا (٣٥) ٠

وكان الأكديون فرعا من هجرات سامية متوالية تكاثرت أعدادها فى بوادى العراق والشام قبيل منتصف الألف الثالث ق٠م ، ثم انشعبت فروعا كثيرة ، فكان منها ما انتشر فى نواحى الشام واتجهت آمال بعض جماعاته إلى مناطق الهلال الخصيب فيها ، كما كان منها ما اقتربت جماعاته من المناطق الخصبة فى أواسط حوض نهر الفرات بالعراق ٠ وعرف أصحاب الشعبة الأولى باسم أطلقه السومريون عليهم وهو " الأموريون " ربما بمعنى أهل الغرب (وإن ذكرت نصوص بابلية أحد آلهتهم الكبرى

باسم أمورو مما يحتمل معه نسبتهم إليه) . أما جماعات الشعبة الأخرى فكان أظهر فروعها فرع " الأكديين " الذين اكتسبوا اسمهم بالانتساب مؤخرا إلى العاصمة أكد (٣٦) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أننا لا نستطيع أن نؤكد أن " الأكديين " إنما كانوا ينتمون أصلا إلى " المارتو " الساميين ، الذين وجدوا على التخوم الغربية لمنطقة الفرات الأوسط ، وقد وصفهم السومريون بالبداوة ، غير أن مثل هذا الافتراض إنما يبدو مقبولا ، فلقد تركزت العناصر السامية التى نزحت إلى السهل الميزوبوتامى فى تواريخ لاحقة – وخاصة الأموريين – فى نفس المنطقة التى وجد فيها " المارتو " ، كما تعتبر شبه الجزيرة العربية – وخاصة أطرافها الشمالية – هى المنطقة التى صدرت عنها الهجرات السامية فى العصر التاريخى ، ونقرأ فى نقش للملك الأكدى " سرجون الأول " ما يفهم منه صراحة أنه وعشيرته قد نزحوا إلى العراق من شبه الجزيرة العربية (٣٧) .

البابليون : حوالى سنة ٢٠٠٠ق.م أثبت شعب سامى جديد وجوده فى فلسطين وسوريا ، وفى أرض الرافدين فى الوقت نفسه ، ونعنى بهذا الشعب " الأموريين " الذين أسسوا سلسلة من الدول ، وفى آخر الأمر ظفرت إحدى هذه الدول الأمورية بالصدارة ، وهى التى تسمى الدولة البابلية الأولى (حوالى ١٨٣٠-١٥٣٠ق.م) .(٣٨)

وبابل هى مدينة قديمة تقع على الفرات ، على مبعدة ٩٠ كم جنوبى بغداد ، ويقوم على أطلالها حاليا ، تل بابل والقصر وعمران بن على والمركس وقرى أخرى مثل عنانة وكويرش وجمجمة واندسار . ورغم أن التنقيبات فى بابل لم تتقدم بسبب ارتفاع مستوى المياه الجوفية إلى أكثر من طبقة العصر البابلى القديم ، إلا أنه يجوز الافتراض أن المدينة كانت قبل وصول الأموريين – أو الساميين الغربيين – إليها ، مجرد بلدة عادية ، عرفها السومريون باسم " كدنجيرا " ، فأحالها الأموريون إلى حاضرة كبيرة ، وأحسنوا استغلال موقعها التجارى والزراعى فى أضيق منطقة خصبة يتقارب فيها نهر دجلة والفرات ، وأطلقوا عليها اسم " بابل " ، وهو اسم ليس هناك ما

يمكن تأكيده عن معناه ، وإن كان الشائع هو ترجمته بمعنى " باب ايلو " أى ' باب الإله" (٣٩) .

وتعتبر بابل من حيث تاريخها وجنس أهلها نتيجة امتزاج الأكديين والسومريين ، فقد نشأ الجنس البابلى من تزاوج هاتين السلالتين ، وكانت الغلبة فى السلالة الجديدة للأصل السامى الأكدى (٤٠) .واللغة البابلية كلغة لا مفر من القول بأنها كانت خليطا فى تركيبها ، إذ كانت تحوى كلمات سومرية وآكادية كتبت غالبيتها بالحروف السومرية ، التى لم تكن تصور حروفا بل مقاطع ، ولكن بالتدريج أخذ العنصر السومرى تحل محله مفردات تسودها السامية ، وصارت اللغة السومرية ذاتها لغة كلاسيكية لم يكن يدرسها إلا العلماء والكهنة ، (٤١) .

وكان أبرز ملوك الدولة البابلية " حمورابى " الذى عاش فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وقد لاحظنا أن النظام السياسى السائد فى بلاد الرافدين قبل عهد حمورابى يقوم على وجود عدد من الدويلات على رأس كل منها أمير ، ومنذ تولى حمورابى السلطة أخضعها جميعا لنفوذه ووحدها تحت سلطانه ، وأحل حكاما للأقاليم محل الأمراء القدامى ، وكان من نتائج تركيز السلطة بين يديه أن توحد القانون فى البلاد التى يحكمها كما توحدت الديانة ، إذ ظهرت ديانة للدولة هى ديانة الإله " مزدك " إله بابل وبذلك اختفت آلهة الدويلات القديمة . وقد دلت الآثار التى خلفتها المدينة البابلية على أن تلك البلاد وصلت – فى عهد حمورابى – إلى درجة كبيرة من التقدم والحضارة (٤٢) .

ومن دليل الأختام ومختلف النقوش التى فكت طلاسمها يمكننا أن نصل إلى أن حمورابى كان أساسا رجل عمل ، ولكن على الرغم من أنه كان يفاخر جهارا بمآثره العسكرية ، لم يكن أقل اهتماما بأنه يجب على الأجيال القادمة أن تعلم عن إنجازاته المدنية فى مجال البناء والرى . وسواء لأنه كان ينقصه الميل إلى القوة التى كان يلجأ إليها الغزاة بمنتهى السهولة أو لأنه كان يعتبر نفسه قويا بما يكفيه لأن يكون فى غنى عن مثل هذا الأسلوب من إثارة الرعب فى أعدائه فهو لم يخلف وراءه بيانا بمذابحه وتخريباته مثل تلك البيانات التى بقيت من عهود غيره من الفاتحين الأقدمين (٤٣).

ولم تعتمد شهرة حمورابى على فتوحاته ومنشآته ورعايتـه لاقتصاديات بلده بقدر ما اعتمدت على تشريعاته الإدارية والقانونية المتنوعة التى بدأ بإصدارها منذ العام الثانى من حكمه وحتى أواخر أيامه ٠ ولم تعد هذه التشريعات تعتبر هى الأولى من نوعها فى تاريخ بلاد الرافدين كما كان يظن من قبل ، حيث سبقتها ثلاث محاولات للتشريع ولتدوين نصوص العرف القديم وتقنينه ، فى أور ، وإشنونا ، وإسين (وإصلاحات لجش احتمالا) ، ولم تكن مرة أخرى بنت عهدها ولا جديدة كلها ولا صدرت فى سنة واحدة ، وإنما تضمنت كثيرا مما سبقها من نصوص الأعراف الاجتماعية واللوائح الإدارية ونصوص التقنين ، وأبقت بعضها على حاله ، وعدلت بعضها الآخر وزادت عليه ، واكتسبت بعض شهرتها بناء على نقشها على أكبر سجل قديم عثر عليه حتى الآن احتفظ بقوانين عهده والعهود التى سبقته ٠ وأغلب الظن أنه تولى تجميع هذه التشريعات فى أواخر عهد حمورابى عدد ما من رجاله القانونيين والمؤرخين الإداريين أغفلت النصوص أسماءهم ونحلت فضلهم إلى ملكهم ، بل وجعلتها من وحى ربه إليه ، وهو مسلك كثيرا ما تكررت أمثاله فى العصور القديمة ، بل والعصور الحديثة أيضا !! (٤٤) ٠

وزادت الثروة فأنتجت فى بابل ما تنتجه فى سائر بلاد العالم ، ذلك أن من السنن التاريخية التى تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذى يخلق المدنية هو نفسه ينذر بانحلالها وسقوطها ، فالثراء يبعث الفن كما يبعث الخمول ، وهو يرقق أجسام الناس وطباعهم ، ويمهد لهم طريق الدعة والنعيم والترف ، ويغرى أصحاب السواعد القوية والبطون الجائعة بغزو البلاد ذات الثراء ٠ وكان على الحدود الشرقية لهذه الدولة الجديدة قبيلة قوية من أهل الجبال هى قبيلة الكاشيين تحسد البابليين على ما أوتوا من ثروة ونعيم ، وبعد وفاة حمورابى بعدة سنوات استطاع هؤلاء الجدد أن يقوضوا أركان الدولة البابلية لينشئوا بدورهم دولة جديدة (٤٥) ٠

ويمكن تقسيم العهد الكاشى فى بلاد الرافدين إلى فترتين ، ففى إبان الفترة الأولى التى تمتد إلى الربع الأخير من القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، واجهت البلاد تخريبا هائلا وأضرارا اقتصادية بالغة ، فشرعت الحكومة بتنفيذ أعمال كبرى لإصلاح شبكة

الرى وإعادة بناء السدود وتنظيم تخزين المياه . وفى نهاية القرن الخامس عشر ق.م تبدأ الفترة الثانية ، وفى خلالها تطورت الحياة الاقتصادية تطورا كبيرا (٤٦) .

الآشوريون : الآشوريون من الأقوام العربية السامية ، قدموا من سوريا إلى شمال العراق واستقروا فى منطقة حوض دجلة الأوسط حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م . وتتصف هذه المنطقة بطابعها الجبلى وكثرة وديانها النهرية ونمو الغابات وأشجار الفاكهة والمراعى الطبيعية ، وهى غنية بأحجارها ومعادنها ، خصبة فى غلالها وثمارها (٤٧) . وتشكل جبال كردستان من الشمال وزاغروس من الشرق حدودها الطبيعية . أما من الجنوب والغرب ، فالحدود مفتوحة نحو بلاد الهلال الخصيب . وقد أثر الطابع الجبلى لهذه المنطقة فى اقتصاد آشور وتاريخها الاجتماعى والسياسى .

وتقع مدينة آشور على الضفة اليمنى لنهر دجلة إلى ما دون ملتقاه بالزاب الأعلى : ففى شمالها سهل منخفض غرينى كونته مياه دجلة ، وتنحدر المدينة إلى الجنوب . أما من الغرب فهضاب صخرية ، وأما إلى الشرق فسهل يعرف بسهل " مخمور ". وسميت المدينة باسم آشور نسبة إلى القبيلة وإلهها آشور ، كما سميت بلادهم ببلاد آشور ، وتبعد آشور مسافة ٣٥٠كم إلى الشمال من بابل ، وأصبحت عاصمة للبلاد فى عهد الدولة الآشورية القديمة (٤٨) .

ويقسم المؤرخون تاريخ بلاد الآشوريين إلى حقبتين ، تمتاز الأولى ، وهى التى تمتد من حوالى سنة ٢١٠٠ إلى ٩٠٠ ق.م بفترة نضال عنيف ، تكون فيها الآشوريون تكوينا سياسيا وعسكريا ، وهى فترة طويلة تعرض فيها الآشوريون إلى محن وأخطار خلقت منهم القوة العسكرية التى سجلها التاريخ على صفحاته ، أما الحقبة الثانية ، وتمتد من سنة ٩٠٠ إلى سنة ٦١٢ ق.م فهى تمثل طور النضج السياسى ، بعد أن اجتاز الآشوريون محنهم ، واستقرت لهم الأمور ، وأسسوا امبراطورية واسعة الأطراف امتازت بطول عصرها ، وتفوق الأنظمة الإدارية التى اتبعوها لإقرار سيطرتهم ، وذلك بالنسبة إلى الإمبراطوريات التى ظهرت على أيدى رجال خرجوا من البيئة الجنوبية (٤٩) .

ونشأت الدولة الجديدة حول أربع مدن ترويها مياه نهر دجلة وروافده ، وهى آشور ، وأربلا ، والكلخ ، ونينوى ، على الضفة المقابلة لمدينة الموصل شمال العراق (٥٠).

هذا وتشير لغة الآشوريين إلى أصولها السامية ، فلقد تحدث القوم بلهجة من لهجات اللغة الأكادية ، وهى اللغة التى انتشرت فى أنحاء العراق منذ أواسط الألف الثالثة ، وحتى أواخر الألف الأولى ق٠م ، واستخدموا الخط المسمارى ذاته الذى ابتدعه السومريون ، وطوره الأكديون والبابليون ، كما اتصفت معتقداتهم الدينية وأفكارهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من نظمهم المختلفة ، بالصفات العامة التى اتصفت بها مثيلاتها عند بقية سكان العراق القديم ، حتى بات من الصعب علينا أن نميز بين أصول العناصر المختلفة : أهى سومرية أم أكدية ؟ بابلية أم آشورية ؟ (٥١) .

وقد استمرت هذه المنطقة أكثر من عشرة قرون فى مهب الريح ، لا تعرف راحة ، ولم تذق طعم الطمأنينة ، فالخطر يحيق بهم من كل جانب ، وكان عليهم أن يقاوموا ، ويقاوموا حتى لا يستسلموا ، فخبروا القتال ، وجعلوا منه وسيلتهم للمحافظة على كيانهم ، ولعل آشور هى الأمة الأولى التى عرفت قيمة الجيوش القائمة ، بل وقامت حياتها على النظم العسكرية ، ولذلك نراهم عندما ظهروا فى التاريخ كأمة متماسكة الأطراف ، قد برزوا وتفوقوا فى نظامهم ، وتماسكوا ، ولم يفشلوا فى تاريخهم السياسى بالسرعة التى رأيناها ، بالنسبة إلى الدول التى قامت فى الجنوب ، والتى عاشت وامتدت أطرافها تحت حكم ملك معين من ملوكها ، ثم لا تلبث أن تتفكك وتتلاشى بموته (٥٢) .

وفى فترة من الفترات وجدنا حكومة آشور بانيبال تضم تحت جناحيها امبراطورية ضخمة تشمل بلاد : آشور ، وبابل ، وأرمينيا ، وميديا ، وفلسسطين ، وسوريا ، وفينيقيا ، وسومر ، وعيلام ، ومصر (٥٣) .

وفى الفترة من عام ٦٢٦ – ٥٣٩ ق٠م دخلت بلاد الرافدين عصر " الكلدانيين " ٠ وهم قبائل " كلدو ، فرع من الآراميين كانوا قد جعلوا من ضفاف العراق قبلتهم منذ القرن الرابع عشر ق٠م أو نحوه ٠ وتسلل الآراميون إلى بابل فى أواخر عصرها الكاشى ، واستمر الآراميون فى توسعهم ، فامتدت قبائل كالدو فى جنوبى العراق حتى الخليج العربى ٠ ولم يكن الآراميون بغير أثر فى المجتمع العراقى ، على الرغم من تفرقهم واعتمادهم على حضارة البابليين والآشوريين ، فقد ترتب على انتشارهم فى أجزاء شتى من بلاد الرافدين ، وتدخلهم فى المعاملات عن طريق التجارة ، ووجود بعضهم خدما وأرقاء فى بيوت الأثرياء وضياعهم ، أن وجدت لهجاتهم سبيلها إلى السكان الأصليين ، وكتب بها بعض المتعلمين بالخط المسمارى (٥٤) ٠

وعلى أنقاض الدولة الآشورية قامت دولة الكلدانيين على يد " نابو بولاسر (٦٢٦–٦٠٤ ق٠م) ، وكان أبرز الحكام الكلدانيين " نبوخذ نصر الثانى (٦٠٥–٥٦٢ ق٠م)، الذى استطاع أن يدعم من مركز الدولة ويوسع من سلطنها عبر المناطق المجاروة ٠

اللغـة والكتابــة :

سبق لنا أن أشرنا فى الفصل السابق إلى ما تمثله اللغة بالنسبة للعملية التربوية ، أما بالنسبة للكتابة ، فهى أدة تسجيل الإرث الحضارى ، والذى هو المادة الأساسية التى يقوم عليها العمل التربوى ، فضلا عن الكثير مما يمكن الإشارة إليه من حيث ما تمثله الكتابة من موقع " مفصلى " فى التطور الحضارى للإنسان ، ويكفى أن التاريخ الإنسانى إنما ببدأ التدوين الكتابى ، فمع أن التاريخ الإنسانى قد يمتد فى عمق الزمن إلى مئات الألوف من السنين ، إلا أن التاريخ " المكتوب " لا يزيد عمره عن آلاف قليلة من السنين قد لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، ومن هنا فإن التأريخ للكتابة فى حضارة بلاد الرافدين إنما هو تأريخ لأهم أركان ومقومات العمل التربوى٠

وهناك ما يشبه الإجماع بأن الكتابة هى أهم ما قام باختراعه العقل الإنسانى إبان الحضارة السومرية ، وقد اصطلحنا على تسميتها بالكتابة " الإسفينية " ، وذلك لأن

الكاتب كان يرسم علاماته فوق سطح لوحات طينية لا تزال طرية مستعملا فى ذلك قلما يشبه " الإسفين " مثلثا ومنشورى الشكل يمسك به مائلا وهو يضغط على سطح اللوحة بخفة ،وكان الركن يترك خطا رفيعا بينما تترك القاعدة علامة أكثر عمقا واتساعا ، وتقرأ الكتابة السومرية من اليمين إلى اليسار ، وكانت تتكون فى أول الأمر من صور تعبر كل منها عما ترمز إليه ، ثم بعد ذلك تطورت نحو السهولة فى الاستعمال باختصار الخطوط التى تتكون منها الصورة (٥٥) ،

والخطوة التالية لذلك كانت استعمال العلامة ليس للتدليل عما تمثله بل كحروف نطق ومثل ذلك " السهم " استعمل أولا للتدليل على أداة القتال ، ثم استعمل نطقها " تى " للتدليل على " الحياة " ، وهى كلمة تنطق فى لغتهم " تى " أيضا ، وللتفرقة بين المعنيين أردفوا علامة السهم " تى " بمخصص هو قطعة من الخشب للتدليل على أن الكاتب يقصد " السهم " المصنوع من الخشب وليس " الحياة " ، وتمتاز الكتابة السومرية بأنها عرفت الحروف المتحركة ، وهذا مما يسهل على القارىء نطق الكلمات (٥٦) ،

وإن ما يميز الكتابة التى أوجدها السومريون فى وادى الرافدين قديما هو اعتمادهم مادة خاصة ، فبينما نلقى مناطق أخرى استخدمت مواد الخشب والجلد والبردى للتعبير عن الفكر عبر رموز متفق عليها ، مع شىء يسير من أنصاب حجرية نقشت عليها بعض الكتابات ، نرى شعوب وادى الرافدين تستخدم الصلصال ، بحيث أن القاص الكتابى للتوراة ، لدى وصفه لتشييد برج بابل ، يحدد خاصية حضارة بلاد النهرين بقوله أنهم استعاضوا عن الحجر باللبن ، ولا عجب ، فقد كانت أرض جنوب العراق منطقة فيضانات ، لذى نرى الناس الذين سكنوها ، يلجأون إلى استخدام المادة الوحيدة المتوافرة لديهم وهى الطين ، وكان للخطوط التى يرسمونها نهايات مدببة بسبب رأس قلم الكتابة ، الذى كان أشبه بالمسمار ، ومن هنا جاءت تسمية هذه الكتابة بالكتابة المسمارية (٥٧) ،

وقد ظهرت الكتابة المسمارية فى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ، وتوثقت فى تضاعيف الألف الثالث ، وطرأ عليها تغير فى أواسط الألف الثانى ، حتى انشطرت فى

الألف الأول إلى فرعين : آشورى وبابلى • وتجدر الملاحظة إلى أن جميع البلدان المحيطة ببلاد الرافدين – ما عدا بلاد فينيقية وكنعان التى لم تستخدمها إلا فى المراسلات الدبلوماسية – استخدمت الكتابة المسمارية ، كبلاد عيلام أو الحيثيين فى آسيا الصغرى (٥٨) •

ويشير أحد الباحثين (٥٩) إلى فرضية تقول إن السومريين قد تعلموا الكتابة من أحد الشعوب الذى كان على ضفاف نهر الدانوب ، ولكنهم قاموا بدورهم بتطوير هذه الكتابة • وقد أصبحت هذه الفرضية – كما يقول باحثنا – مقبولة أكثر منذ أن تم العثور فى عام ١٩٦١ على الرقم الطينية التى تعود إلى العصر الحجرى الجديد فى منطقة تارتاريا برومانيا ، فالتشابه بين الإشارات الواردة فى هذه الألواح وبين أقدم الكتابات التى خلفها السومريون واضح فى ظل هذه الفرضية ، ولذلك فقد استخلص علماء الآثار أن هذه الإشارات ، بالإضافة إلى الكثير من أمثالها التى تم اكتشافها قبل وبعد ١٩٦١ فى ضفاف الدانوب ، قد نشأت تحت تأثير الحضارات الكبيرة للشرق الأوسط ، إلا أن نتائج التحاليل الراديوكربونية قد فاجأت وحيرت الخبراء لأنها أوضحت أن تلك الإشارات من ضفاف الدانوب أقدم بمئات السنين من أقدم الرقم السومرية • وليس من المستبعد أن تفاجئنا التحاليل الراديوكربونية فى المستقبل أيضا ، ولذلك فإن الوقت مبكر جدا لاستخلاص رأى نهائى حول هذا ، أى من الذى تأثر بالآخر •

ولأن هناك من يقولون بأن المصريين القدماء هم الذين اخترعوا الكتابة يطرح " سارتون " تساؤلا عما إذا كان الاختراع السومرى قد ظهر مستقلا عن الاختراع المصرى ؟ وهو هنا يذكرنا بأن انتقال اختراع ما من إقليم إلى آخر يمكن فهمه على صورتين مختلفتين تمام الاختلاف ، حسبما ينظر الباحث إلى ذلك الاختراع فى ظاهرته العامة أو فى ظاهرته الفنية (٦٠) ، فالظاهرة العامة فى هذه الحالة أن اللغة المحكية يمكن أداؤها على وجه الدقة وترتيبها بواسطة علامات مكتوبة • وهذه الظاهرة اهتدى إليها كثير من الشعوب كل على حدة ، وهى فى مرحلتها الأولى ظاهرة طبيعية بسيطة ، لأنه من اليسير أن تكون الرموز المصورة دالة على الأفكار أوالحقائق •

وقد استعمل الهنود الأمريكيون والهنود والصينيون والسومريون والمصريون وشعوب أخرى مثل هذه الرموز ٠ ونحن لا نزال نستعمل البعض منها ، ومثال ذلك صورة الجمجمة والعظمتين المرسومة على عبوات الأدوية ، وهى لا تحتاج إلى تفسير ٠ غير أن بعض المفكرين من هذه الشعوب أدركوا عاجلا أو آجلا أن ذلك النمط من الكتابة يكثر فيه الغموض والإبهام ، وأن استعماله محدود بحدود ضيقة ، فهو لا يستطيع التعبير الخطى عن المعانى المجردة أو المشاعر أو أسماء الأشخاص أو الأمكنة ٠ أما من ناحية الأداء الفنى الذى تحققت به تلك الظاهرة ، فالطريقتان المصرية والسومرية مختلفتان بعضهما عن بعض ، بحيث نستطيع أن نقول بأن أحد الشعبين لم يؤثر فى الآخر (٦١) ٠

أما الباحث العراقى " سوسة " فيرى أن الخط المسمارى الذى نسب اختراعه إلى السومريين ، إذا كان قد ظهر فى الألف الرابعة قبل الميلاد لأول مرة ، فهذا يعنى ظهوره قبل أن يكون السومريون قد وجدوا بعد ، على هيئة ألواح صورية (أى أن كل علامة مسمارية كانت تمثل صورة الشيء المراد كتابته) ، أو الكلمة المطلوب التعبير عنها ٠ ويؤكد سوسة أن الثابت لدى العلماء أن أول وأقدم كتابة صورية معروفة وصلت إلى الآن ، وصلت إلينا من كيش السامية وليس من سومر ، ولم تكن هذه الكتابة على الطين كما كانت عليه الرقم السومرية التى اكتشفت فى الوركاء فيما بعد ، بل كانت منقوشة على الحجر ويرقى تاريخها إلى حوالى عام ٤٠٠٠ ق٠م (٦٢)٠

وعلى هذا فإن الساميين هم الذين اكتشفوا الخط المسمارى واستعملوه على نطاق واسع فى كل البلاد التى سيطروا عليها ، خاصة وقد ثبت لدى الباحث أن الساميين تواجدوا فى المنطقة قبل السومريين ، كما سبق وأن عرضنا ، ولو كان الخط المسمارى من نتاج السومريين وحدهم لكان الساميون قد أخذوا معه اللغة السومرية التى كانت تستعمل مع الأكدية السامية فى كيش ٠ بل إن السومريين هم الذين استعاروا كلمات أكدية سامية وأدخلوها فى لغتهم السومرية ، وهذا ما يدل على أن الساميين سبقوا السومريين فى الاستيطان فى وادى الرافدين ، فاقتبس السومريون كلمات سامية استعاروها من الأكدية السامية (٦٣) ٠

ويسوق باحث آخر دليلا يؤيد رأى سوسة ، بأن الكتابة واللغة السومرية احتوت على كلمات كثيرة مقتبسة عن السكان الأوائل الذين استوطنوا المنطقة ، فمن ذلك (٦٤) :

أبين	محراث	أبسين	خط محراث
إيغار	فلاح	سيباد	راعى
باخار	خزاف	أوشيار	حائك
أشلاغ	لباد	أشغاب	دباغ
أوتول	راعى	كابار	معاون زراعى
موخالديم	طباخ	شيدرتوم	حجار
ناغار	نجار	سيموغ	حداد ٠٠الخ

إضافة إلى هذا كانت أسماء كثير من آلهة السومريين مأخوذة من لغات الشعوب التى سكنت بلاد الرافدين قبل السومريين ، فمثلا : أوشار : الأرض ، أشنان : حنطة ، أينين : إلهة الخصب ، نيرغال وأريشكيجال : إلها الموت ٠ ومن ناحية أخرى نجد أن المدن السومرية كلها تحمل تقريبا أسماء غير سومرية تعود أصولها إلى الحضارات التى سبقت السومريين إلى بلاد الرافدين ٠

وإذا كان هناك من فارق بين السومريين والأكديين ، فإنه يتركز بصفة أساسية فى مجال اللغة ، فالسومريون كما هو معروف كانوا يتكلمون اللغة السومرية ، وهى لغة ملصقة ما زالت عائلتها اللغوية مجهولة ، بينما استعمل الأكاديون اللغة الأكدية التى هى واحدة من عائلة لغوية كبيرة درج المختصون على تسميتها بعائلة اللغات السامية ، إذ لاحظ علماء اللغة منذ بضعة قرون أن هناك تقاربا واضحا بين عدد من لغات الشرق الأدنى القديم كالأكدية (ولهجاتها : البابلية والآشورية) ، والكنعانية ، والعبرية ،/ والفينيقية ، والآرامية ، والنبطية ، والعربية ، ويتجلى هذا التقارب فى جوانب أساسية لعل من أبرزها الآتى (٦٥) :

١ – إعتمادها بصورة أساسية على الحروف الصحيحة (consonants) ، وليس على حروف العلة (vowels) ، كما هى الحال فى اللغات الآرية ٠ ثم إن فيها حروفا صحيحة إضافية غير موجودة فى اللغات الآرية ٠

٢ – إن الغالبية العظمى من الكلمات مشتقة من أفعال ذات جذور ثلاثية ٠

٣ – وجود جنسين فقط هما المذكر والمؤنث وعدم وجود ما يعرف ب " لا مؤنث ولا مذكر " ٠

٤ – وجود مجموعة كبيرة من المفردات فى هذه اللغات تتطابق لفظا ومعنى ٠

إن نقاط التشابه هذه ، وأخرى كثيرة غيرها ، كانت السبب المباشر للبحث عن أصل قديم مشترك ترجع إليه تلك اللغات ٠

واللغة البابلية القديمة لغة سامية ، نشأت من تطور لغتى سومر وأكد ، وكانت تكتب بحروف سومرية الأصل ، ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مر الأيام (كما اختلفت الفرنسية عن اللاتينية) ، حتى استلزم هذا الاختلاف بين اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد فى النحو والصرف يستعين بها العلماء والكهنة من الشبان على تفهم اللغة السومرية " الفصحى " والكتابات السومرية الكهنوتية ٠ ومن أجل هذا نرى نحو ربع الألواح التى عثر عليها المنقبون فى المكتبة الملكية بنينوى معاجم فى اللغات السومرية والبابلية والآشورية وكتبا فى نحوها وصرفها ٠ وتقول الروايات التاريخية إن هذه المعاجم قد وضعت من عهد موغل فى القدم هوعهد سرجون ملك أكد (٦٦) ٠

وإذا كان الباحثون قد اتخذوا من الكتابة حدا فاصلا بين التاريخ وما قبل التاريخ ، فإنها فى الواقع لم تصبح أداة نافعة للتدوين على نطاق واسع إلا بعد قرون من ظهورها فى سومر ، ولذلك سميت الحقبة التى شهدت ظهور الكتابة فى مراحلها الأولى ب " الدور الشبيه بالكتابى " ، وهو دور كانت فيه الكتابة ما تزال فى أطوارها الأولى ومحدودة فى انتشارها ، وقد استعمل المختصون بالمسماريات مصطلح " النصوص البدائية " للدلالة على رقم الطين التى تعود إلى هذا الدور الذى يمتد من ٣٠٠٠ إلى ٢٦٠٠ ق٠م ، والتى تم اكتشافها فى مدن عديدة مثل الوركاء ، جمدة نصر ، العقير ،

أور وشروياك ، وهى نصوص ذات مضامين اقتصادية كليا وغير مفيدة لدراسة قواعد اللغة السومرية ، باستثناء نصوص شروياك (٦٧) .

ويشير وجود المدارس وخزانات الكتب إلى أنه كان لاختراع الكتابة غرض آخر عدا حفظ السجلات ، وهو غرض عميق فات انتباه الكاتب العادى ، ولكنه شغل عقول اللغويين الأولين . أما ذلك الغرض فهو حفظ اللغة نفسها وتصويبها وجعلها مادة قياسية ، لأنه ما دامت اللغة غير مكتوبة لم يكن بد من أن يطرأ عليها التغيير والتبديل بسرعة ، ولعله بسرعة أكثر مما يجب ، والكتابة هى التى تساعد على تثبيتها (٦٨) .

على أنه ينبغى أن ندرك أن اختراع الكتابة عملية استغرقت زمنا طويلا ، لأنه مع أن الفكرة الأساسية بسيطة فمهما عظم فهم اللغويين الأوائل الذين حاولوا تحقيقها لا يحتمل أنهم أدركوا جميع المصاعب وطرق التغلب عليها مرة واحدة ، ذلك أن عملية تحويل لغة من اللغات إلى مرتبة الكتابة تولد مشاكل لغوية ، وباستطاعتها أن تثير نوعا من الوعى اللغوى فى عقول فئة من أهل العبقرية ، وأن النحويين الأوائل الذين يحتمل أنهم كانوا كذلك أوائل المعلمين (لأن تعليم موضوع ما هو أحسن الوسائل دائما لإتقانه) جمعوا قوائم بكلمات مصنفة هى أصل فكرة المعاجم و " القواميس " ، وكشفت الحفائر فى الموضع السومرى المعروف باسم " أورك " (الوركاء) على مجموعة من هذه القوائم يرجع عهدها إلى ما قبل ٣٠٠٠ ق.م ، ثم وضع الغزاة الساميون قوائم أكثر تفننا ، وهى تحتوى على كلمات سومرية ومرادفاتها الأكادية ، أو بحثوا فى تراكيب هاتين اللغتين وأساليبهما (٦٩) .

وفى حدود منتصف الألف الثالث قبل الميلاد (٢٥٠٠ ق.م) بدأت تظهر فى سومر الكتابات الخاصة بحكام وملوك السلالات السومرية التى تعرف بين المختصين بالكتابات الرسمية أو الملكية ، والتى تسجل أعمال الحكام والملوك كبناء المعابد وتقديم القرابين للآلهة ، وغير ذلك من أعمالهم السياسية وفتوحاتهم العسكرية ، وبعض كتابات هذا العصر الذى يعرف بين المختصين بالمسماريات ب " عصر ما قبل سرجون " طويلة نسبيا .

ومن مظاهر تطور الكتابة المسمارية أنها انتقلت بخصائصها من لوحات الطين الشائعة إلى لوحات الحجر والمعدن حيث توافرت (مع بقاء الغلبة للوحات الطين) ، وكانت جهود السومريين الأوائل فى تطويرها بمثابة حجر الزاوية لها ، وظلت تختلف عن الكتابة المصرية القديمة التى نافست شهرتها فى العالم القديم فى أربعة أمور، وهى : سهولة التعبير نسبيا عن الحركات فى مقاطعها ، وتخليها فى أغلب الأحوال عن الصور الطبيعية الأصيلة ، وكذلك فى عدم تطورها إلى مرحلة الحروف الهجائية ، وعدم استفادة أصحابها من مواد الكتابة التى عرفها المصريون لا سيما صفحات البردى وأنواع المداد ٠

لكن هذه الاختلافات كلها لم تحل دون استمرارها قرونا طويلة عند السومريين وعند من تلاهم من الساميين ، بل ولم تقف دون شيوعها من العراق إلى ما يتصل به فى غرب إيران وشمال بلاد الشام وشرق الأناضول ٠ وعندما قل استخدامها فى أواخر التاريخ العراقى وغلبت الكتابة الأرامية عليها شيئا فشيئا ، انطوت فى ظل النسيان ، وأصبحت مجرد رموز وطلاسم ، حتى بدأت الدراسات الحديثة تكشف النقاب عنها مرة ثانية ، منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى (٧٠) ٠

وسجل السومريون الأعداد الحسابية على هيئة دوائر وأنصاف دوائر أحيانا ، وعلى هيئة خطوط مسمارية قائمة ومائلة تشبه فى جملتها هيئة المربعات والمعينات الأخرى ، واعتبروا العدد ٦ بداية الكثرة فى الآحاد بعد العدد ٥ الذى يمثل نهاية العد على أصابع اليد الواحدة ، كما اعتبروا العدد ٦٠ بداية الكثرة فى العشرات ، وكانوا يرمزون إليه بعلامة مسمارية قائمة شأنه فى ذلك شأن الواحد بداية العد ٠ ولعل التقسيم الستينى الحالى للساعات والدقائق ، كان متأثرا نوعا ما فى أصله البعيد بعلم الفلك البابلى ، المتأثر بدوره بعلم الرياضيات السومرى ٠

وتوافرت للكاتب السومرى مكانته فى مجتمعه ، وكان الكتبة لا يزالون قلة أو يبدو أنهم ظلوا ألصق بالمعابد منهم بغيرها ٠ وظل الناس يحسون بأهميتهم حتى يعاملونهم بأسماء الحكام ورؤساء المعابد ، وحين يلجأون إليهم لكتابة العقود وتحرير الرسائل أو قراءتها ، وكان كتبة المحفوظات يحفظون لوحاتهم الهامة فى جرار وسلال يعنونونها

ببطاقات صغيرة مسطحة أو بيضاوية أو مستديرة ويسجلون عليها طبيعة محتوياتها (٧١) .

المدرسة العراقية القديمة :

وكان نشوء المدرسة السومرية نتيجة مباشرة لاختراع طريقة الكتابة المسمارية وتطورها ، فقد وجدت بعض ألواح تشتمل على جداول دونت لغرض التمرين والدرس . فالنصف الأخير من الألف الثالث ق.م هو الوقت الذى بلغ فيه نظام المدرسة السومرية طور النضج والازدهار . ومن خلال النصوص نعلم أن عدد الكتبة الذين كانوا يمارسون مهنة الكتابة كان كبيرا ، حتى أن البعض ليقدره بعدة آلاف ، وهو الأمر الذىقد يحمل بعض المبالغة . وأولئك الكتبة على أصناف ودرجات ، منهم الكتبة الصغار المبتدئون ، والكتبة المتقدمون ، والكتبة الملكيون ، وكتبة المعابد ، وكتبة من ذوى التخصص العالى فى بعض نواح خاصة بالشئون الإدارية ، وكتبة أصبحوا من كبار موظفى الحكومة (٧٢) .

وليس من الألواح القديمة العهد التى وصلتنا ما يبين لنا بطريقة مباشرة كيف كان نظام المدرسة السومرية وإدارتها والطريقة التى كانت تسير عليها فى ذلك العهد ، وقد كشفت التنقيبات عن مئات الألواح المنقوشة بمختلف أنواع التمارين المدرسية التى كانت تهيأ فى واقع الحال من جانب الطلاب أنفسهم كجزء من أعمالهم اليومية المدرسية . وتختلف خطوط هذه الألواح من حيث الدقة والمهارة ، فبعضها مدون بخط ردىء بعيدا عن الإتقان مما كان يكتبه المبتدئون ، وبعضها مكتوب بخطوط منتظمة مما كان يكتبه الطالب المتقدم الذى كان على وشك الانتهاء من دراسته (٧٣) .

وكان الهدف الأساسى للمدرسة السومرية ما يصح تسميته بالتخصص أو التدريب المهنى لسد المتطلبات والحاجات الاقتصادية والإدارية الخاصة بالبلاد ، ولا سيما ما يختص بالمعبد والقصر . وقد أصبحت المدرسة نتيجة للتوسع فى مناهجها مركز العلم والثقافة فى بلاد سومر ، فقد عاش وازدهر بين جدرانها العالم الباحث الذى يتزود بجميع فروع المعرفة فى زمانه . كما أن المدرسة السومرية كانت مركزا لما يمكن

تسميته بالتأليف الإبداعى ، فكانت المؤلفات الأدبية المنحدرة من الماضى تدرس وتستنسخ ، وفيها ايضا كانت توضع مؤلفات أدبية جديدة . وكان الطالب المتقدم فى بلاد سومر يخصص شطرا كبيرا من مدة دراسته فى حقل القانون ، فكان يمارس على الدوام ضبط العبارات والمصطلحات القانونية ، وكذلك استنساخ نصوص القوانين وقرارات المحاكم (٧٤) .

ومن المتخرجين فى المدارس السومرية من خصصوا حياتهم للتدريس وتحصيل العلم ، يعتمدون فى عيشهم على الرواتب التى كانوا يتقاضونها ، وكانوا يخصصون أنفسهم للبحث والكتابة فى أوقات فراغهم ، وأصبحت المدرسة السومرية التى بدأت حياتها على ما يرجح ملحقة بالمعابد مؤسسة دنيوية مع مرور الزمن وكذلك منهج تدريسها .

أما المدرسون فإن رواتبهم كانت على ما يبدو تدفع من أجور التدريس التى كانت تجمع من الطلاب ، على أن التعليم لم يكن عاما ولا إلزاميا ، فكان معظم الطلاب من الأسر الغنية . أما الفقراء فكان من الصعب عليهم توفير المال والوقت اللذين يتطلبهما التعليم طويل الأمد . كما أنه لم يرد فى الوثائق أى اسم لامرأة كاتبة فيؤخذ من هذا على ما يرجح أن قوام طلاب المدرسة السومرية من الذكور فقط (٧٥) .

ورئيس المدرسة السومرية يدعى " أوميا Ummia " ، أى " الخبير " أو " الأستاذ " . وكان يلقب أيضا " أبو المدرسة " . أما التلميذ ، فكان يسمى " ابن المدرسة " وسموا " الأستاذ المساعد " باسم " الأخ الكبير " ، وكان من بين واجباته كتابة الألواح الجديدة لينسخ منها الطلاب ، وفحص النسخ التى يعدها الطلاب والاستماع إليهم وهم يستظهرون دروسهم من الذاكرة . ومن أعضاء هيئة التدريس الآخرين المدرس " المشرف على الرسم " ، و " المدرس المشرف على اللغة السومرية " ، كما كان من هيئة المدرسة " العرفاء " أو المرشدون المنوط بهم أمر المواظبة على الحضور ، ثم " الرجل الموكل بالسوط " ، الذى كان مسئولا عن حفظ النظام النظام (٧٦) .

وكان نهج الدراسة مكونا من قسمين رئيسيين : القسم الأول يمكن وصفه بأنه شبيه بالعلمى وقائم على أساس البحث ، الثانى : خاص بالإبداع والإنتاج الأدبى ، فكان الهدف الأساس للمدرسة السومرية هو تعليم الكاتب كيف يكتب اللغة السومرية ٠ ولكى تتحقق هذه الحاجة فى فن التعليم أوجد معلمو الكتبة السومريين طريقة فى التعليم كانت تقوم أولا على التصنيف اللغوى بتصنيف وتبويب اللغة السومرية إلى مجموعات من الكلمات والعبارات ذات صلة ببعضها ، وفى الألف الثالث ق٠م أصبحت مثل هذه " الكتب المدرسية " متكاملة تامة ، وصارت بالتدريج قياسية مطردة ، فى هيئتها ومحتوياتها وتستعمل فى جميع المدارس فى بلاد سومر ٠

وقد هيأ رجال المدرسة السومرية جداول رياضية متنوعة ، وكثيرا من المسائل الرياضية مع حلولها ٠ أما فى حقل علم اللغة فكانت دراسة نحو اللغة السومرية تحتل مكانة بارزة فى مؤلفات ألواح الطين المدرسية ، كما نجد أن السومريين هيأوا أقدم " المعاجم " اللغوية كما مر بنا ، فى تاريخ الإنسان ٠ ومن هنا فإن استنساخ " نصوص كتابية " واستذكارها ، كان يشمل قائمة طويلة من الكلمات والعبارات ، كان فيها أسماء شجر وحيوان وطير وحشرات ، وبلدان ومدن وقرى وحجارة ومعادن (٧٧) ٠أما المنهج الخاص بالإبداع والإنتاج الأدبى فى مناهج المدرسة السومرية فقد كان يعتمد أساسا على الدرس والاستنتساخ وتقليد مجموعة كبيرة مختلفة الموضوعات من التآليف الأدبية التى ينبغى أن تكون نشأت ونمت فى النصف الأخير من الألف الثالث ق٠م٠ إن هذه التآليف القديمة التى تبلغ المئات كانت غالبيتها العظمى شعرية فى تراكيبها ٠

وكان تعليم النسخ يقوم على التدقيق الشديد ، ومن هنا نجد أن النساخ كانوا يحرصون دائما على أن يتركوا فى نهاية معظم النصوص المسمارية هامشا أو تذييلا يدل ، ضمن أشياء كثيرة ، على شعورهم بعظم المسئولية الملقاة على عاتقهم فى عملية نقل الموروث ، ولهذا فإنهم كانوا يثبتون فى تلك الهوامش ديباجة تنص فى معظم الأحيان على أنه " نقل من النسخة الأصلية ودقق بموجبها " مع ذكر اسم الناسخ وتاريخ الاستنساخ ، ولأمر من تم ذلك ٠ وأخيرا استنزال لعنة الآلهة على كل من يحاول تحريف النص أو أخذه أو إتلافه ، فنحن نقرأ على سبيل المثال فى القصة

البابلية الساخرة عن مكائد جميل – سين (gimil-sin) فى مدينته التذييل التالى : (٧٨)

" كتب ودقق وفق النسخة الأصلية
الناسخ نبو – رختو -- أصر (Nabu-rehtu-useir)
الناسخ المساعد ، عضو مجمع
نبو – أخا -- أدن (Nabu-Aha-iddin)
كل من يأخذ الرقيم عسى أن يأخذه أيا (Ea)

ولا نعرف إلا النذر اليسير عن طرق التدريس والوسائل التى كانت تتبع فى المدرسة السومرية ، فعندما يصل الطالب إلى المدرسة فى الصباح ، كان عليه أن يدرس اللوح الذى أعده فى اليوم السابق ، ثم يهيىء " الأخ الكبير " لوحا جديدا يشرع الطالب فى استنساخه ودرسه . وكان كل من " أبى المدرسة " و " الأخ الكبير " على ما يرجح يفحصان استنساخه ليتأكدوا من صحته . وكان الاستظهار له دور كبير فى سير درس الطالب ، كما أن المدرسين ومساعديهم كانوا يشفعون تلك الجداول المجردة والنصوص الأدبية التى كان على الطالب أن يستنسخها ويدرسها بتفسيرات شفهية وتوضيحات . (٧٩)

ومع أن المدرسين ، على ما يرجح ، كانوا يشجعون طلابهم ليحسنوا عملهم عن طريق المديح والإطراء ، إلا أن جل اعتمادهم فى تقويم أخطاء طلابهم عند تقصيرهم هو التجاؤهم إلى " العصا " . ولم تكن حياة الطالب فى المدرسة بالأمر السهل اليسير ، فكان عليه أن يواظب على دروسه فى المدرسة يوميا من شروق الشمس إلى غروبها ، وكان يخصص سنين كثيرة للدراسة ، فكان الطالب ملازما للمدرسة من صباه إلى أن يصبح رجلا شابا .

وتدلنا رسالة أو مقالة سومرية عن النشاط اليومى لتلميذ فى المدرسة السومرية ، أنه يخشى إذا تأخر عن موعد بدء العمل فى المدرسة " مخافة أن يضربه معلمه بالعصا " ، فبعد أن يستيقظ يحث أمه أن تهيىء له طعام الغداء على عجل ، وفى المدرسة نجد المعلم ومساعديه " يضربونه بالعصا " كلما أساء السلوك . أما عن حال المعلم فإن ما

كان يحصل عليه من مرتب ، كان يبدو ضئيل القدر ، وعلى ذلك فكان يسعده كثيرا إذا حصل على بعض المال الإضافى القليل من آباء الطلاب ليزيدوا قليلا فى دخله .

وهذا الموضوع الإنشائى التالى ، بلا شك كان من تأليف أحد أساتذة " بيت الألواح " – أى المدرسة – ويبدأ بسؤال موجه إلى طالب المدرسة نفسه : " أيها الطالب ، إلى أين كنت تذهب منذ أيامك المبكرة ؟ فيجيب عليه الطالب : كنت أذهب إلى المدرسة ، ثم يسأل المؤلف : وماذا كنت تفعل فى المدرسة ؟ فيجيب الطالب : كنت أستظهر لوحى ، وآكل طعام غدائى ، وأهيىء لوحى لأكتبه وأكمله ، ثم يعينون لى درس الشفهى ، وفى العصر يخصصون لى درسى المكتوب . وعندما تنصرف المدرسة أعود إلى بيتى فأدخل الدار وأجد أبى جالسا هناك ، فأطلع أبى على درسى المكتوب ، ثم أستظهر لوحى ، فيسر أبى لذلك .. وعندما أستيقظ فى الصباح الباكر أواجه أمى وأقول لها : اعطينى طعام غدائى لأننى أريد الذهاب إلى المدرسة فتزودنى أمى برغيفين . وعندئذ أشرع بالمسير إلى المدرسة ، وفى المدرسة قال لى العريف : " لم أنت متأخر ؟ ثم دخلت وأنا وجل خافق القلب فى حضرة مدرس وحييته باحترام ..

ونتيجة لمعاناة التلميذ طوال اليوم الدراسى وضربه بالعصا يشير على أبيه ناصحا إياه بأن خير ما يفعله فى هذا الشأن أن يدعو المدرس إلى بيته ويسترضيه ببعض الهدايا : " لقد استمع الأب إلى نصيحة ابنه التلميذ وجاء المدرس من المدرسة ، وبعد أن دخل البيت أجلسه فى أشرف مكان وقام التلميذ على خدمته وأخذ يستعيد أمام أبيه كل ما تعلمه من فن كتابة " الألواح " ، ثم إن الأب قدم الخمر للمدرس ، وقدم له الطعام وكساه بحلة جديدة أهداه هدية ووضع خاتما فى إصبعه وطابت نفس المعلم من هذا الإكرام وحسن الضيافة ، فأخذ يطمئن ذلك الناشىء الطامح بتعلم فن الكتابة ، وقال له فى لغة شعرية كلاما كثيرا :

" أيها الشاب لأنك لم تهمل قولى ولم تنبذ إرشادى عساك أن تبلغ القمة فى فن الكاتب وعسى أن تتقنه غاية الإتقان ، ولعلك تكون القائد بين إخوتك وأن تصبح رئيسا على جميع أصدقائك ، وليتك تبلغ أعلى الرتب بين طلاب المدرسة . حقا لقد أحسنت فى إنجاز أعمال المدرسة كل الإحسان وأصبحت رجل علم !! " (٨٠) .

وتتيح لنا الأساليب البابلية السليمة لتعليم الكتبة أن نتعرف على مشاكل التعليم وطول مدته ، فقد كان الطالب يبدأ دروسه وهو صغير جدا فيرد فى نصوص بأن المتعلم كان ينهض مع الفجر باكرا ، وبعد التغسيل والتنظيف ، يتناول على عجل طعام فطوره الذى تعده له أمه ، ويأخذ معه خبز شعير كوجبة غداء ، ويسرع إلى المدرسة ، وإن هو وصل متأخرا ، فعليه أن يندس فى مقعده دون أن يلحظه المعلم ، وإلا نال التوبيخ والقصاص مع تذكيره بالأخطاء السابقة أيضا كقيامه مثلا من دون طلب إذن ، أو عدم احترامه معلميه ، أو انتقاد عملهم بقوله " أن كتابتهم ليست على ما يرام ٠٠٠" ، ولا تمر هذه الأمور عادة دونما ضرب بالعصا (٨١) ٠

وتتكون الصفوف التى عثر عليها فى حفريات سيبار ومارى ، من مقاعد من الطابوق مرصوفة بكل انتظام ، مهيأة لجلوس الطلبة فوقها ٠ كما كان فى متناول أيديهم أوان فخارية مدورة يعجنون فيها الطين بالماء الموضوع فى أكواز طينية صغيرة مخصصة لهم ، ويستنسخون بقصبة محددة ومحدبة الأمثلة التى يعطيهم إياها المعلم ، وذلك إما بكتابته نموذجا واحدا لهم ، أو بكتابته المثال لكل واحد منهم فى أعلى ألواحهم التى يمسكونها باليسار ، كما نلاحظ الأمر على المنحوتات الأشورية التى تصور مشهد كتبة يخطون على الألواح ، أو نراهم يكتبون أحيانا على جلد غزال فى عهود تسبق بكثير العهود التى ظن فيها العلماء أنها زمن بدايات الكتابة على جلود الغزلان ، إذ قيل عادة أن الكتابة على جلد الغزال لم تبدأ إلا فى العهد الوسيط وفى مدينة برغامو الإيطالية ٠٠٠وفى حالة عدم نجاح الطالب فى تمرينه كان عليه أن يخلط اللوح ويستأنف الكتابة من جديد ٠ لنا من ذلك آلاف الأمثلة التى عثر عليها فى التنقيبات التى أجريت على مقربة من الهياكل ٠ وقد كانت العبارات المستخدمة قصيرة ووجيزة وذات معنى ، ليسهل على الطالب حفظها بسرعة ، فيزداد علما يوما بعد يوم (٨٢) ٠

وكان على التعليم أن يتحاشى الغرابة مهما كان نوعها ، كما نلاحظ ذلك فى الحوليات (أو أخبار الوقائع والأحداث الملوكية) حيث التنسيق والتركيب فى التأليف هما عينهما دوما، لذا فإن العبارات هى هى نفسها فى أكثر من عصر وعهد ، فلا نلقى مثلا ذكر خسارة منيت بها اشور ، لأن العقلية السائدة كانت تفترض بأن العدو هو

مستتر دوما فى مكان يتعذر أحيانا الوصول إليه ، لذا فلا ذكر فى هذه الدروس للخصوصيات والجزئيات مهما كان نوعها ، بينما يكفينا مطالعة أخبار أعداء آشور للتعرف على الخسائر التى لحقت بالآشوريين ٠ ولم يكن التعليم المدرسى يعرف تغييرا لأنه لا يسمح للكتبة أن يبرهنوا عن مواهبهم الخاصة ، لذا فإننا نادرا ما نلقى الناسخين يضيفون ابتكارات شخصية ، وحين تغدوا هذه الابتكارات مقبولة تدخل رأسا فى عداد المعارف ويتناقلها الخلف (٨٣) ٠

ومما نعرفه أيضا بالتأكيد أن الصفوف كانت مقسمة تقسيما متمايزا ، لكل صف مواده الثابتة ٠ وحين يتم اختيار المادة من قبل المتعلم ، فإن تعلمها يقتضى منه سنوات عديدة ، غير أن مشاق هذه المهنة لم تكن جزافا ، لأن أصحابها ينالون تقديرا واعتبارا كبيرين فى المجتمع ، لذا نرى الكتبة ، وبخاصة من هم من سلالة ملوكية ، يتمتعون بمنزلة اجتماعية تفوق الحدود ٠ وما عدا نصوص قليلة تلعن أيام الدراسة السود ، تمتدح النصوص عادة الكتبة الجيدين المضلين كالشموس ٠

ولم يكن التعليم قاصرا على الكهنة والكتاب فقط ، بل تعداهما إلى أفراد الطبقة الأرستقراطية ٠ ولما كانت دور الكتب مفتوحة للجميع فقد استفاد منها هؤلاء استفادة خاصة ٠ وعلى كل حال فإننا نجد عند مطالعتنا لتاريخ أمم شرقية أن ملوكهم كثيرا ما كانوا يأخذون الشبان النبلاء ليتعلموا فى القصر الملكى كى يخدموا الأمة فى المستقبل (٨٤)٠ ولقد استمرت هذه العادة عند الكلدانيين إلى ما قبل الميلاد بقرون قليلة ، ولدينا مثل تاريخى عظيم يثبت قولنا هذا ، والمثل مأخوذ من العهد القديم ، فلقد جاء فى الإصحاح الأول من سفر النبى دانيال أنه عندما ذهب " نبوخذ نصر " ملك بابل إلى أورشليم وحاصرها وامتلكها:

" أمر الملك (اشفنز) رئيس خصيانه بأن يحضر من بنى إسرائيل ومن نسل الملك ومن الشرفاء فتيانا لا عيب فيهم حسان المنظر حاذقين فى كل حكمة وعارفين معرفة وذوى فهم بالعلم والذين فيهم قوة على الوقوف فى قصر الملك فيعلموهم كتابة الكلدانيين ولسانهم ، وعين لهم الملك وظيفة (طعام) كل يوم بيومه من أطايب الملك ومن خمر مشروبه لتربيتهم ثلاث سنين ، وعند نهايتها يقفون أمام الملك ٠ وكان

بينهم من بنى يهوذا دانيال وحننيا وميشائل وعزريا فجعل لهم رئيس الخصيان أسماء فسمى دانيال بلطشاصر وحننيا شدرخ وميشائل وعزريا عبد نغو " .

تربيــة الأســرة :

وكانت الأسرة فى مجتمع بلاد الرافدين القديم ، مثلها فى ذلك مثل كل المجتمعات فى كل العصور ، وفى مختلف البقاع والحضارات ، هى القوة المربية الأولى والأساسية ، فوفقا لتنظيمها ، وما تحمله من قيم ، وما يقف عليه كبارها من معارف ، ووفقا لمركزها فى المجتمع ، يتشكل الصغار فى أغلب الأحوال ، مما يجعلنا فى حاجة إلى معرفة بعض أوضاع هذه الأسرة العراقية القديمة ، حتى يمكن أن نعرف بالتالى مدى ما كانت تتمتع به من تأثير فى تشكيل الشخصية العراقية قديما .

فقد كان للمرأة السومرية من الحقوق على أولادها ما لزوجها نفسه ، وإذا غاب زوجها ولم يكن لها ابن كبير يقيم معها كانت تدير هى المزارع كما تدير البيت ، وكان لها أن تشتغل بالأعمال التجارية مستقلة عن زوجها ، وأن تحتفظ بعبيدها أو تطلق سراحهم . غير أن الرجل كان هو السيد المسيطر فى جميع الأزمات ، وكان من حقه فى بعض الظروف أن يقتل زوجته أو يبيعها أمة وفاء لما عليه من الديون . وكان الحكم الأخلاقى على الرجل يختلف عن الحكم الأخلاقى علىالمرأة حتى فى ذلك العهد السحيق ، وكان ذلك نتيجة لازمة لاختلافهما فى شئون الملكية والوراثة ، فزنى الرجل كان يعد من النزوات التى يمكن الصفح عنها ، أما زنى الزوجة فكان عقابه الإعدام ، فقد كان ينتظر منها أن تلد لزوجها وللدولة كثيرا من الأبناء ، فإذا كانت عاقرا جاز طلاقها لهذا السبب وحده ، أما إذا كرهت أن تقوم بواجبات الأمومة ، فكانت تقتل غرقا ، ولم يكن للأطفال شىء من الحقوق الشرعية ، وكان للآباء إذا تبرءوا منهم علنا أن يحملوا ولاة الأمور على نفيهم من المدينة (٨٥).

وفى العصر الأكدى ، نجد الأسرة تقوم على نفس الأسس التى سادت بلاد سومر ، وهى أن الرجل له الحق فى زوجة شرعية واحدة ، وإن كان القانون يسمح له بأكثر من محظية . ومما يؤسف له أننا لم نعثر على نصوص قانونية تحدد لنا الأسس التى

كان يقوم عليها كيان الأسرة أو تحدد لنا التزامات الأب نحو أبنائه ، كما أننا لا نستطيع أن نتفهم ما كان يسود المجتمع فى ذلك الوقت من علاقات مدنية تربط بين الفرد والآخر . ولعل أول من حدثنا عن هذا هو " حمورابى " الذى سنفصل قوله بعد قليل . وعلى كل حال فيبدو من بعض النصوص التى وصلت إلينا من العصر الأكدى أن الحياة كانت تقوم على أسس اجتماعية تهدف نحو الفضيلة ، فمثلا نعرف أن الشاب الذى يغرر بفتاة يتحتم عليه أن يتزوجها ، وإذا حدث أن رفض أهل الفتاة تزويج ابنتهم من هذا الشاب حق عليه الشنق . كما كان هناك تشريع يحرم على المرأة الزواج من رجلين ، ومثل هذا التشريع يدل على أن ميولا جانحة ظهرت فى المجتمع الأكدى اعتبرت غير متفقة مع العرف المتوارث واضطروا إذ ذاك إلى منعها بواسطة تشريع خاص (٨٦) .

وفصلت تشريعات " حمورابى " (٨٧) صلات الأولاد فى بابل بأبويهم وحقوقهم فى المواريث ، فجعلت من حق كل ولد على أبيه أن يعينه بمهر يتزوج به ، فإذا مات الوالد دون أن يتزوج أحد أبنائه ، أفرد له إخوته قيمة مهر تناسب ثروة أبيه قبل أن يقتسموا ميراثه (المادة ١٦٦) ، وكفلت نفس الأمر بالنسبة للإبنة ومخصصاتها ، بحيث إذا مات أب دون أن يزوج ابنته ودون أن يفرد لها مخصصات مسجلة أفرد لها إخوتها مخصصاتها المناسبة من ميراثه (١٧٨-١٧٩).وقيدت حق الوالد فى حرمان ولده بحكم القضاة فى مدى عصيانه ، فإن أدانوه أنذروه ، فإن لم يرتدع وعاود الإساءة إلى أبيه وافقوا على حرمانه ، وإن تبنوا براءته حموه من أبيه (١٦٨-١٦٩).

وجعلت تشريعات حمورابى للأبناء الذكور حصصا متساوية فى ميراث أبيهم ومخصصات أمهم ، إلا إذا أوصى الأب لولده البكر بوصية (١٦٥) . وجعلت للإبنة كاهنة كانت أو مدنية أم خنثى (؟) حق استغلال ما يعادل ثلث نصيب أخيها على أن تبقى الرقبة لإخوتها ولا يحق لها أن تتصرف فيها (١٨١) ، وجعلت للأب أن يكتب لابنته فى حياته حق اختيار من يتولى مسئولية إدارة إرثها منه ، فإن لم يفعل قام إخوتها بإدارته والإنفاق عليها من ريعه . فإن قصروا فى ذلك جاز لها أن تؤجره لمن تشاء ولكن دون أن يكون لها حق بيعه أو استخدامه فى سداد دين شخص ما ، وعلى أن تؤول الرقبة فى أمركها بعد وفاتها إلى إخوته ، واستثنيت من عملت بالكهانة العليا

فى معبد مردوك رب بابل فسمح لها بأن تستغل حصتها كما تشاء ، وتهبها لمن تشاء بشرط ألا ترث حقوقا إقطاعية ، حتى لا تنتقل إلى أسرة غير أسرتها (١٨٢).

وألحقت التشريعات الأبناء بخير الأبوين ، فنصت على أنه إذا تزوج عبد بحرة احتفظ أولادها بحريتهم ، فإذا مات عنها زوجها استردت مخصصاتها ، وإذا كانت ذات ولد قاسمت مولى زوجها المقتنيات التى شاركت زوجها فيها بعد زواجها به ، واحتفظت بنصفها من أجل أولادها (١٧٥و١٧٦). وسمحت التشريعات للأب بحق الاعتراف بأولاده من جاريته ، فإذا اعترف بهم شاركوا أولاده الشرعيين ميراثه بشرط أن يتركوا لوده الشرعى البكر حق اختيار نصيبه بنفسه (١٧٠) ، وإن لم يعترف صراحة ببنوتهم حرموا من ميراثه ، مع حرمان إخوتهم الشرعيين من استرقاقهم (١٧١) .

ونظمت التشريعات أمور التبنى فسمحت للرجل بأن يتخذ ربيبه ولدا له يورثه ، فإن فعل واعترف به ولدا ، ثم تنكرر له ربيبه ، وكان لقيطا وأبى أبوته وتطلع إلى اللحاق بأبويه بعد أن عرفهما ، قطع لسانه الذى نطق بالمنكر فى حق من رباه ، أو سملت إحدى عينيه أو قطعت أذنه . وحرمت انسحاب الربيب إذا تبناه صانع ورباه وعلمه صنعته . ولكنها من ناحية أخرى أجازت رجوع الربيب إلى أبويه إذا عرفهما ولم يكن متبنيه قد اعترف به ولدا له . كما أجازت رجوع الربيب إلى أبويه إذا لم يعلمه متبنيه الصانع حرفته . واشترطت على من يتبنى طفلا ثم يستغنى عنه بعد أن ينجب أولادا من صلبه ، ألا يرده إلى أهله صفر اليدين وأن يهبه ما يساوى ثلث نصيب ولده من صلبه من ثروته المنقوله (١٨٥-١٩٣) . وإذا اقتصرت فعلة ربيب الكاهنة المتزوجة على إنكار أمومتها قص نصف شعر رأسه ، وطيف به فى البلدة ، وإذا اقتصرت على إنكار أبوة الزوج قص شعره قصة العبيد وأقصى عن البيت .

ونصت الشريعة على أن من باع جاريته أم بعض أولاده أو أجرها (أم أعارها ؟) لآخر فى سبيل توفير الضرائب المستحقة عليه ، حق له أن يستردها من شاريها أو مستأجرها بنفس ما أداه فى مقابلها (١١٩). وحفظت مكانة الزوجة الشرعية إزاء الجارية ، بمثل ما قدمنا لها به ، وبأن نصت على أنه إذا وهبت زوجة زوجها جارية لتعوضه من عدم الإنجاب منها وتغنيه عن التزوج بأخرى ليست من أسرتها ، فأحبها

وشجعها ذلك على أن تعتبر نفسها ندا لها حق للزوجة أن تعيدهـا إلـى الـرق وتبيعهـا (إن استطاعت) ، فإن كانت قد حملت منه أو ولدت له دمغتهـا بميسم العبوديـة وأبقتهـا فى دارها من أجل أولادها (١٤٥-١٤٧)٠

وقضت التشريعات على من ضرب أباه بقطع يده (١٩٥) ، وعلى من ضاجع أمه بعد وفاة أبيه بأن يحرق معها (١٥٧) ، وعلى من ضـاجع زوجـة أبيـه الأرمـل ذات الأولاد باستبعاده من أسرته (١٥٨) ، وقضت بالنفى على من يضاجع ابنته (١٥٤) ، وبالهلاك غرقـا علـى مـن يضـاجع زوجـة ابنـه بعد دخولـه بهـا (١٥٥)، وكـان فـى اقـتراف هـذه الأوضـاع الشـاذة ما ينم عن تفشى الفساد فى المجتمع ٠

ولم تكن الروابط بين أفراد الأسرة الأشورية بتلك القوة التـى ربطـت بيـن أفـراد الأسرة البابلية ٠ ونحـن نلاحـظ أن قـانون " حـامورابى " قـد حـافظ بشـكل واضـح علـى الحقوق الشخصية لكل أفراد الأسرة ، بينما نجد أن الأشوريين أعطوا سلطة مطلقة لرب الأسرة وصلت إلى حد أنـه يسـتطيع بيـع أطفالـه ، وربمـا قتلهـم أيضـا ٠وكـان القـانون يسمح للرجل بامرأة واحدة ، على أن يتخذ له ما يشاء من السرارى ٠ ولـم يكـن لأبنـاء المحظيات أية حقوق فى وراثة الأب ، وخاصة إذا كان للزوجة الشرعية أطفال ٠

لقد كانت حقوق المرأة عند الأشوريين ضئيلة ، ومنزلتها غير سامية ، فعندما يختار شاب فتاة ليتزوج منها ، فإنها تعطى من يريدها من إخوته البالغين ، وإذا لم يكن هنـاك إخوة ، فعليها أن تتزوج من أحد أحفاد حميها البالغين سن الزواج ، أى عشر سنوات ، ومن الغريب أنه إذا حدث أن الفتاة هى التى ماتت ، فلم يكن الشاب يضطر إلـى الـزواج من إحدى أخواتها ٠ ولم يكن يسمح للمتزوجات من السيدات اللاتى ينتمين إلـى الطبقـة الحرة أن يخرجن إلـى الطريـق العـام دون أن يغطيـن رءوسـهن ، وبهـذه الوسـيلة كـان يمكن تمييزهن من نساء الطبقات الأخرى ٠ وكانت القوانيـن تهـدف إلـى إحاطـة المـرأة الحرة بكثير مـن الضمانـات ، لكـى تبقـى عفيفـة ، أمينـة علـى عرضـهـا ، ولذلـك كـانت عقوبة الزوجة الزانية شديدة ، تبلغ حد الإعدام لها ولعشيقها (٨٨) ٠

وكانت أشور تشجع الإكثار من النسل ، شأنها فى ذلك شأن جميع الدول العسكرية ، وكان الإجهاض عندهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، بل إن المرأة التى تتهم بأنها أجهضت نفسها ، يحكم عليها بأن توضع على الخازوق ، وإن ماتت قبل تنفيذ الحكم عليها ، تحرم من الدفن (٨٩) .

ومما يصور الدور الذى كانت تساهم فيه ، مثلا ، الأسرة الكلدانية فى التعليم ، ما نقرؤه فى وصف " ديودورس " تعليم الكتبة الكلدانيين حيث كتب يقول (٩٠) :

" غير أن هذه المعارف لم تكن تعلم بالطريقة عينها إلا لدى الإغريق ، بينما فلسفة الكلدانيين تقليد عائلى ، يرثها الإبن عن أبيه كوظيفة عامة ، وبما أن مدربيهم هم أهاليهم فهم ينعمون سواء بتعلم المعارف كلها دونما تحفظ أو قيد ، كما بزيادة الكثير على قول معلميهم ، وأنهم بتعودهم على الدرس منذ الصغر ، نلقاهم يتقدموا بوضوح فى التنجيم ، سواء بسبب سهولة تعلم ذلك فى الصغر ، وسواء لأن مرحلة التعليم لديهم هى أطول ... وبينما يظل الكلدان على العلم الذى يتقبلونه تقليديا دونما تغيير ، نرى الإغريق .. يناقضون بعضهم بعضا ، حتى فى التعاليم الأساسية ".

الكتب والمكتبات :

يحتل الكتاب منزلة رفيعة بالنسبة للعملية التعليمية ، فهو " مستودع " ما يتم تعليمه وتعلمه ، مما يحتم استقراء وضع الكتاب والمكتبات فى المجتمع العراقى القديم ، كركن من أركان عملية التأريخ للتربية فيه .

وإذا كان المصريون والسومريون قد اخترعوا الكتابة وارتقوا فى اختراعهم وانتفعوا به وتوسعوا فى استعماله ، فإن المصريين قد استطاعوا - بفضل ما لديهم من مادة للكتابة أصلح مما لدى السومريين - أن يحققوا اختراعا آخر هو " الدرج " أى الكتاب المكون من لفيفة بردية واحدة ، وبذلك أمكن المحافظة على نص بكامله مهما بلغ طوله (٩١) . أما السومريون فلم يكونوا محظوظين فى ذلك ، فدونوا نصوصا مطولة على أشكال مجسمة كبيرة أو على قطع كبيرة من الصخر ، (مثل نص قانون حمورابى) ، لكنه من الواضح أنه ، حتى فى هذه الحالات لم يستطع السومريون أن

يخرجوا ما يصح أن يسمى كتابا ، بل كان النص المطول فى أغلب الحالات يدون فى ألواح كثيرة منفصلة مستقلة بقدر الحاجة ، ولضمان ترتيبها الصحيح كان الكتبة يدونون فى أسف كل لوح عبارة " لوح كذا من سلسلة كذا " ويكتبون فى اللوح المنتهى مطلع السطر الأول من اللوح التالى ، دون أن يكون ذلك كافيا للمحافظة على النص بتمامه ، أما الدرج البردى ، فالغالب فيها أنها وجدت سالمة كاملة ، على حين أن الألواح التى تؤلف نصا واحدا لم تصل إلينا بترتيبها ، لأن الألواح تعرضت لتغيير ترتيبها مرارا ، وفقد بعضها أو تشتت بعضها عن بعض ، بحيث صارت إعادة تأليف النص تشبه حل ألعاب الألغاز المتناهية فى التعقيد (٩٢) ،

ولعل إخفاق السومريين فى اختراع الكتاب هو الذى أدى بهم إلى العمل على إيجاد دور السجلات وخزانات الكتب وإنشائها بسرعة ، ومع التسليم بأن المعابد والقصور المصرية احتوت على مجاميع من درج البردى ، فإن الحاجة إلى المحافظة على ألواح الطين فى ترتيب سليم كانت أشد منها إلى جمع الكتب كاملة ، ولذلك فمن المرجح كثيرا أن تكون دور السجلات وخزانات الكتب وجدت فيما بين النهرين فى أزمان قديمة جدا ،

وكان السومريون ، فى ضوء هذا يحتفظون بالرقم (الكتابات) الطينية فى أماكن خاصة داخل المعابد أو القصور الملكية أو المدارس ، وقد تم العثور على بقايا هذه المكتبات أو مراكز الوثائق فى المدن السومرية الكبيرة كلاغاش وأوروك ونيبور إلخ ، وفى الواقع أننا لا نعرف الكثير عن مظهر هذه المكتبات أو مراكز الوثائق ، ولا نعرف شيئا عن تنظيمها وعملها ، ومع ذلك فإن الخبير الأمريكى بتاريخ وثقافة السومريين س٠ن٠كرامر قد سلط أخيرا ضوءا ساطعا على هذه القضية المثيرة ، فقد كشف عن أن أحد النصوص المدونة على رقم طينى محفوظ فى المتحف الجامعى فى فيلادلفيا ، ولاية بنسلفانيا - الولايات المتحدة الأمريكية ، ما هو إلا فهرس لإحدى المكتبات ، وفى الواقع أن هذا الرقم الطينى يعود إلى حوالى ٢٠٠٠ ق٠م ، وقد تم العثور عليه فى بقايا مدينة نيبور ، المركز الدينى والثقافى للسومريين ، حيث اكتشفت أيضا الكثير من الرقم الطينية ، بالإضافة إلى ورشة للكتابة فى حالة جيدة ومدرسة أيضا ، وعلى

الوجه الأمامى لهذا الرقم الطينى نجد سجلا لاثنين وستين كتابا فى موضوعات مختلفة ، حتى أن الكتب ال٣١ الأخيرة تنتمى إلى مجموعة " الحكمة " (٩٣) .

وإن مما يبين اعتزاز العراقيين القدامى بالحفاظ على مدوناتهم للحفاظ على العلم والمعرفة وعلى تاريخ البشرية من الضياع ، فينعكس فى رواية بيروسس الخاصة بالطوفان والتى مفادها أن رجل الطوفان زيثوروس Xisouthros ، أى " زيوسدرا " فى النسخة السومرية ، تلقى أشعارا من الإله كرونس بقرب حلول الطوفان ، وأمرا بحفر حفرة يدفن فيها " أول ووسط ونهاية الكتابات " ! أى كل ما بحوزته من ألواح مكتوبة ، وأن رجل الطوفان نفذ الأمر الإلهى ودفن كل الكتابات فى مدينة سبار " فى اليوسفية " . ويذكر بيروسس أيضا أنه بعد انتهاء الطوفان سمع الناس هاتفا يأمرهم بأن يتوجهوا إلى أرض بابل ليستعيدوا الكتابات المدفونة وينشروها بين الناس (٩٤) .

لقد كان الأمر الإلهى بدفن الألواح المكتوبة بالذات ، دون غيرها من متاع الدنيا ، دليل واضح على أن تلك الألواح كانت فى نظر سكان وادى الرافدين أثمن شىء يمتلكه الإنسان ، فلو قدر لها أن تضيع أو تتلف بسبب كارثة الطوفان لفقد الإنسان أغلى ما عنده : تاريخه ، ونتاجه العلمى والأدبى .

ولقد كان أول عمل للكاتب استنساخ الألواح ، فثمة مجموعة كبيرة من الوثائق كانت تنسخ مرارا حتى تشكل الخزانات أو المكتبات التى لقيناها فى خرائب الهياكل والقصور . وكان لابد من تنسيق هذه الخزانات وضبط محتوياتها وفرز القديم منها ، وترتيبها وفق موادها بحيث يتهيأ لنا ما يمكن تسميته بمكتبة بحوث منسقة وفق المواد المختلفة . وكان المستنسخ يورد فى نهاية كل فصل ذيلا يبين فيه مصدره وتاريخه واسم كاتبه . كما كان ثمة " قانون " للمكتبات يمنع من الاستيلاء على الألواح أو إتلافها تحت طائلة عقاب اللعنة الإلهية (٩٥) . وكان احترام النص القديم على أنه " شىء مقدس " باعتبار العلم أمرا موحى به ، يحمل الكتبة على استنساخ القوائم حرفيا ، حتى فى حالة ورودها متكررة أو متناقضة ، كما فى قوائم السلالات مثلا ، لأن أية سلطة من السلطات كانت تنسب إلى إحدى السلالات المحلية الشرعية ، حتى فى حالة

اندحارها وعدم تعاقبها على الخلافة وهذا أمر يعقد كثيرا قضية إثبات التسلسل التاريخى للحاكمين ٠

ولعل من الاكتشافات الضخمة حقا مكتبة الملك الآشورى آشور بانيبال الذى تولى الحكم خلال الفتررة من ٦٦٩-٦٢٧ ق٠م (٩٦) ، فقد وجد فى هذه المكتبة أكثر من عشرين ألف رقم طينى ، انتقلت إلى المتحف البريطانى فى لندن ، وكشفت هذه الرقم عن أن هذا الحاكم الأشورى الكبير الذى روت المصادر التاريخية الكثير عن شدته ضد جيرانه ، كان فى الوقت ذاته عالما كبيرا ومحبا للكتب ٠ وفى الواقع كان هذا الحاكم هو أول من توصل إلى الفكرة بأن يجمع فى مكان واحد كل ما أبدعته الأجيال السابقة فى الشرق الأوسط فى حقل المعرفة والأدب ، وهى المبادرة التى ندر أن يكون لها مثيل فى التاريخ ٠

وتروى المواد التى اكتشفت فى المكتبة الملكية بنفسها كيف تم إنجاز هذه المبادرة ، فمن خلال هذه الرقم أصبحنا نعرف كيف أن جيشا كاملا من الكتاب قد كلف بأمر ملكى بأن ينسخ عدة مرات كل نص قديم يتم الحصول عليه ٠ وقد كان الكتاب يسجلون بفخر أصل وقدم الأصلى ٠ وبالإضافة إلى هذا فقد تم ببساطة نقل الكثير من الرقم من المدن الأخرى للامبراطورية الآشورية إلى هذه المكتبة ، فمن هذه الرقم نفسها نعرف الآن أنه تم نقل مكتبة خاصة بكاملها من كلاح إلى نينوى (٩٧)٠

ويبدو أن كتب هذه المكتبة كان يمكن أن تخدم دائرة واسعة من المتعلمين ، وبالدرجة الأولى أولئك الذين يدخلون القصر الملكى ، فوجود المعاجم اللغوية المتعددة وكتب القواعد وما شابه ذلك من الكتب يدل فى ذاته على كثرة تداولها ، إلا أن ذلك لا يمكن أن يقودنا إلى أن مكتبة آشور بانيبال كانت مكتبة عامة بالمفهوم الشائع فى وقتنا هذا ٠بعبارة أخرى لم يكن فى وسع أى شخص أن يأتى ويستفيد مما هو متوافر فى هذه المكتبة (٩٨)٠

العلـــــوم والفنــون :

العلوم بمختلف مجالاتها تشكل مركز الصدارة فى العمل التعليمى ، فهى محتواه ومضمونه ، وهى بطبيعتها تقوم على عمليتى تعليم وتعلم ، فالجهد الذى يبذله الإنسان كى يعرف هو تعلم ، وإذا تلقى ما يعرف عن طريق إنسان آخر أكثر منه علما ومعرفة ، فهنا تعليم ، ومن ثم فإن الحديث عن التقدم العلمى فى العراق القديم ليس مجرد تأريخ للعلم ، وإنما هو محاولة الكشف عن محتوى مهم للتعليم فى هذه الحضارة العريقة حقا ٠

وأول ما يستوقفنا هو الرياضيات ٠ ولم يبق لنا من الاكتشاف الكبير الذى قام به البابليون وطواه النسيان سوى تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، وقياس الزوايا إلى درجات ، ودقائق ، وثوان ، وقسمة الزمن إلى ساعات ودقائق ، وثوان ، وقد وصلتنا هذه كلها عبر اليونان ٠

وينسب اختراع النظام الستينى إلى السومريين ، وليس إلى البابليين ، وقد احتفظ البابليون ورثتهم بالنظام الستينى فى النصوص العلمية ، بينما استخدموا عادة النظام العشرى ، فلم يكن النظام الستينى نظاما حكيما فى بداية الأمر ، لأن السومريين بدأوا بالعد على أصابعهم ، وذلك من ١ إلى ٥ ، ثم زائدا ٢ ، و٥ زائدا ٣ ، وهكذا حتى العشرة ، وبعد العشرة كان يشار إلى الأعداد على النحو التالى : ١٠ زائدا ١ ، ١٠ زائدا ٢ ، وهكذا حتى العشرة مرتين (٢٠) ، ثم حتى العشرة ثلاث مرات (٣٠) ، وكذلك حتى (٦٠) على أنها الوحدة الأعلى ٠ وكان يعبر عن الأعداد اعتبارا من ٦٠ بالعدد ٦٠ زائدا ١٠ وهكذا دواليك ، ويرمز إلى الستين بعلامة الواحد عينها (٩٩) ٠

أما النقص الكبير فى مجال الحساب فهو عدم وجود علامة الصفر الذى لم يعرف إلا فى العهد السلوقى ، واستخدم لحفظ المرتبة العددية الخالية من العدد ٠ وقد توصل البابليون إلى معرفة جداول الضرب المطولة ، وكان لهم جداول لرفع الأعداد إلى القوى المختلفة وجداول للجذور وجداول تبين معكوس العدد وهو الرقم الذى إذا ضرب فيه

العدد كان حاصل الضرب ٦٠ (ما دام رقم ٦٠ هو أساس العد فى الطريقة الستينية)٠ وقد استعملت هذه الجداول الأخيرة نفسها للقسمة وذلك بضرب العدد المراد قسمته بمعكوس العدد المراد القسمة عليه أى — = — ويؤخذ معكوس العدد المراد من الجداول ، ويؤخذ حاصل ضرب العدد فى معكوس العدد الثانى من جداول الضرب كذلك ٠ وقد مكنت هذه الجداول الرياضيين من توفير الجهد والوقت فى الحساب والانصراف إلى القضايا الرياضية ، واستطاع البابليون بهذه الجداول إجراء عمليات الضرب والقسمة فى الأعداد الكبيرة (١٠٠)٠

وعرف البابليون من عهد ٢٢٠٠ – ٢٠٠٠ ق٠م كيف يقيسون مساحة المستطيلات والمثلثات المتساوية الساقين والقائمة الزاوية ، كما عرفوا بنظرية " فيثاغورس " بعض المعرفة ، وأدركوا أن الزاوية المرسومة فى نصف الدائرة هى زاوية قائمة ، واستطاعوا أن يقيسوا حجم متوازى المستطيلات القائم وحجم الاسطوانة القائمة وحجم المخروط المقطوع وحجم الهرم الرباعى المقطوع ، واختلف حلهم لمسألة حجم الهرم الرباعى المقطوع اختلافا قليلا عن حل المصريين (١٠١) ٠

وبلغ الجبر مرحلة متقدمة فى بلاد الرافدين ، ويقول بعض المؤرخين أن العرب اعتمدوا على المعلومات الرياضية التى توصل إليها البابليون أكثر من اعتمادهم على اليونانيين فى هذا المجال ، ويعتبر الجبر الحديث تطورا للجبر البابلى الذى تعثر لدى الإغريق ٠

ولم يستعمل البابليون الرموز فى الجبر ، ومع ذلك فقد توصلوا إلى أسس هامة فى خصائص الأعداد ، كما عرفوا المعادلات الجبرية الأساسية من الدرجات الأولى والثانية والثالثة ، واتبعوا فى حلها طرقا عملية تبعث على الإعجاب وبعضها يتضمن مبدأ المتواليات ، ففى المتحف البريطانى لوح يحتوى مسائل تحل بمعادلات الدرجة الثانية ومنها المسألة التالية " لو أضفت مساحة مربع إلى طول ضلعه كان الناتج ثلاثة أرباع ، فما هو طول الضلع ؟(١٠٢)

وكان الفلك هو العلم الذى امتاز به البابليون ، وهو الذى اشتهروا به فى العالم القديم كله ، وإن كان السحر منشأ العلم ، فلم يدرس البابليون النجوم ليرسموا الخرائط التى تعين على مسير القوافل والسفن ، بل درسوها أكثر ما درسوها لتعينهم على التنبوء بمستقبل الناس ومصائرهم ، وبذلك كانوا منجمين أكثر منهم فلكيين (١٠٣) .

وقسموا السنة إلى إثنى عشر شهرا قمريا ، منها ستة فى كل منها ثلاثون يوما والستة الأخرى فى كل منها تسعة وعشرون . ولما كان مجموع أيامها على هذا الحساب لا يبلغ إلا ٣٥٤ يوما فإنهم كانوا يضيفون فى بعض السنين شهرا آخر لكى يتفق تقويمهم مع الفصول . وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع تتفق مع أوجه القمر الأربعة . وحاولوا أن يتخذوا لهم تقويما أسهل من هذا بأن قسموا الشهر إلى ستة أسابيع كل منها خمسة أيام ، ولكن ثبت بعد هذا أن أوجه القمر أقوى أثرا من رغبات الناس ، وبقى التقسيم الأول كما كان (١٠٤) .

ولم يكونوا يحسبون اليوم من منتصف الليلة إلى منتصف الليلة التى تليها ، بل كان عندهم من شروق الشمس إلى شروقها التالى ، وقسموا هذه المدة إلى اثنتى عشرة ساعة ، فى كل ساعة منها ثلاثون دقيقة ، وبذلك كان طول الدقيقة البابلية أربعة أضعاف ما قد يوحى إلينا اسمها ، وإذن فتقسيم الشهر إلى أربعة أسابيع ، وتقسيم أوجه الساعة إلى اثنتى عشرة ساعة (لا إلى أربعة وعشرين) وتقسيم الساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية ، كل هذه آثار بابلية لا شك فيها باقية من أيامهم إلى عهدنا الحاضر (١٠٥).

ويذكر فلكيو الملك باستمرار مرصد أربيل ، فى آشور ، وقد كان ، على ما يبدو ، المرصد الرسمى لال سرجون . ولعل اختيار مدينة اربيل كان بسبب عشتار التى كانت محترمة كعشتار المحاربة ، وهو دور منسوب إلى عشتار (Venus- lucifer) ذات الطبيعة الرجولية (١٠٦) . وكان ثمة كتب مدرسية فى علم الهيئة لاستعمال الطلبة ، منها : حين ترصد ذروة العشرين من شهر نيسان (آذار - نيسان) فعليك الوقوف صباحا بحيث يصبح الغرب عن يمينك والشرق عن شمالك (فيكون اتجاه الطالب إلى الجنوب) وعيناك مرفوعتان ومصوبتان نحو الجنوب ، فإن كانت نجمة الفهود

(Koumarou- Panthere) (النجمة آ) فى مركز السماء ، والذروة أمام صدرك ، فإن النجمة ب (Gamlou) ستشرق ٠

وبالنسبة للطب نجد أنه ومنذ عهد السومريين علا شأنه عندهم فكان لكل داء دواء خاص ، لكنه ظل يختلط بالدين فيعترف بأن المرض لا يمكن شفاؤه إلا إذا طردت الشياطين من أجسام المرض ، لأن الأمراض إنما تنشأ من تقمصها هذه الأجسام ، فالطب السومرى طب ثيوقراطى يجمع بين الأدوية الطبية والتمائم (١٠٧) ٠

واتخذ السومريون من أكباد الذبائح واالخطوط والبقع التى تكون مرسومة عليها دلائل تنبأوا بواسطتها بالغيب وتكهنوا بالمستقبل ٠ وكانوا يقولون بالجسم والروح ، كما كانوا يعدون القلب ، لا الدماغ ، مستقر الفهم والإدراك ٠ كما كشفت الوثائق السومرية عن وثيقة طبية منقوشة بأول صفة صيدلية فى تاريخ الإنسان ، مما يؤكد أن مهنة الأطباء كانت معروفة فى بلاد سومر خلال الألف الثالث ق٠م ٠

وتفيدنا النصوص المسمارية بأنه ، منذ السلالة البابلية القديمة (أى منذ مطلع الألف الثانى) ، كان للطب قواعده وضوابطه ٠ ويميز قانون حمورابى بين الطبيب ، والجراح ، والبيطرى ، والحلاق ، ويحدد أجورهم ، وذلك وفق حالة المريض الاجتماعية ، كما يحدد أيضا عقوبات الأخطاء المهنية ، التى قد تصل ، وفقا لجسامة الخطأ ، إلى حد قطع اليد ٠ كما يعاقب القانون الأفعال غير المشروعة (١٠٨) ٠ ونحن نلقى العمل الطبى مميزا بوضوح عن الممارسات السحرية ، فإن الطبيب هو فى ضمن حاشية الملك إلى جانب المعزم (طارد الشياطين) والموظفين الآخرين ٠

وكان الكتبة والعرافين والأطباء ومراقبى الطيور وموظفى القصر الساكنين فى المدينة ، خاضعون للقسم فى شهر أبريل ، فى اليوم السادس عشر منه ، لذا فعليهم أن يؤدوا القسم ، لكننا لعدم علمنا بنص هذا القسم ، لا يسعنا أن نقارنه بقسم الطبيب اليونانى الشهير أبقراط ٠ وقد كان الطبيب البابلى يستخدم طريقة المشاهدة والتجربة الشخصية ، كما يعلم أبقراط ، وبذلك تخلى عن الأفكار الفلسفية القائلة بنسب بعض الأمراض إلى الآلهة ، كالصرع ، بينما هى تعود إلى علل طبيعية (١٠٩) ٠

ولكن هذا العلم الذى تحرر من سلطان الدين تحررا يكاد يكون تاما كان عاجزا بسبب حرص الشعب على التشخيص القائم على الخرافات والأوهام ، وعلى العلاج بالأساليب السحرية ، ومن أجل هذا كان السحرة والعرافون أحب إلى الشعب من الأطباء ، وقد فرضوا على الناس ، بفضل نفوذهم عندهم ، طرقا للعلاج أبعد ما تكون عن العقل ، فكان منشأ المرض فى رأيهم تقمص الشيطان جسم المريض لذنب ارتكبه ، وكان أكثر ما يعالج به لهذا السبب تلاوة العزائم وأعمال السحر والصلوات ، فإذا ما استخدمت العقاقير الطبية ، فإنها لم تكن تستخدم لتطهير جسم المريض ، بل كان يستخدمها لإرهاب الشيطان وإخراجه من الجسم (١١٠) .

وكان اكتشاف المعادن واستخدامها أحد العوامل التى ساعدت على ظهور الكيمياء وتقدمها فى بلاد الرافدين ، فقد صنعوا البرونز منذ عهد جمدة نصر ، وتشير المكتشفات التى عثر عليها فى مقابر أور إلى معرفتهم مزج المعادن ، فهناك مركبات الإلكتروم (مزج الذهب بالفضة) فى بعض القطع الفنية المكتشفة . وقد مزجوا النحاس بالقصدير أولا ثم بالرصاص فيما بعد . أما الحديد فلم يتسع استعماله إلا منذ الألف الأول ق.م وشاع كثيرا فى العهد الآشورى الحديث . وقد حاولا صنع المعادن الثمينة من المعادن الخسيسة ووصلوا بمحاولاتهم إلى معلومات هامة عن خصائص المعادن وبعض الطرق الكيميائية . كما توصلوا إلى صنع الأصباغ والعطور والعقاقير والصابون والجعة والمشروبات .. إلخ (١١١) .

وبالنسبة للتاريخ ، نجد الكتاب جمعوا الأحداث ووضعوها فى سلسلة متصلة ، يؤرخون بها للملوك منذ تقلدهم السلطة ، ولم تكن الأحداث تشتمل أخبار الحملات الحربية ونشاط الملوك العمرانى وحسب ، بل تضمنت كذلك تعليقات وحوادث مهمة ومفيدة (١١٢) . والمدونات التاريخية مهمة ، لا من حيث ذكر الحوادث فحسب ، بل من حيث تتابع الملوك وتحديد عدد السنين التى حكم فيها الملك ، ثم عدد السنين التى حكمت فيها الأسرة المالكة (سلالة هذا الملك) ، وبجمع كل ذلك يكون عندهم إثبات (قوائم أو جداول) الملوك والسلالات .

وبالإضافة إلى قوائم الملوك والسلالات ، خلف لنا الأكاديون والبابليون نماذج أخرى من التدوين التاريخى هى " النقوش والكتابات التاريخية " التى هدف منها تمجيد مآثر الملوك والأمراء وتخليد أعمالهم وحروبهم ونشاطهم العمرانى ، دونوها على الحجر والأنصاب والتماثيل وألواح الطين ٠ وقد بدأت هذه السجلات منذ مطلع الألف ق٠م ، وتناهت إلينا من ذلك نماذج كثيرة متنوعة تعد من المصادر الأساسية فى معرفة تاريخ العراق القديم (١١٣) ٠

وقد ساعد على نمو المعارف الجغرافية لدى قدماء العراقيين ، توسع التجارة والفتوحات الخارجية وعمليات مسح الأراضى ، فقد ألف كتاب الجغرافيا جداول مطولة بأسماء البلدان والمدن والأنهار فى العراق والبلدان المجاورة ، فمن ذلك جدول مطول عثر عليه فى تنقيبات " تل حرمل " يرقى عهده إلى الزمن البابلى القديم (١١٤) ٠ وتناهت إلينا نماذج أخرى من هذه الجداول من العهد الأشورى المتأخر وكذلك من العهد الكلدانى ، وفيها إضافات بأسماء المعابد وتفسير أسماء بعض الأقاليم والمدن وهى مدونة باللغتين السومرية والبابلية ٠ ورسموا خرائط للمدن والقنوات وللعالم المعروف لديهم ٠ ولعل أقدم خريطة تناهت إلينا من هذا النوع خريطة مدينة نفر (نيبور) التى يعود تاريخها إلى الألف الثانى ق٠م ٠

وتمثل الفنون بأشكالها المختلفة مجالا مهما من مجالات التعلم والتعليم ، فما من أثر عثر عليه إلا ويدل على أن وراءه يد فنان موهوب استطاع أن يستثمر موهبته فتعلم أن ينقش أو ينحت أو يرسم أو يعزف أو يبنى أو يصنع هذا الشكل أو ذاك من الأشكال الفنية التى تدل عليها بعض المصنوعات ، فقد عثر ، مثلا ، فى خرائب تنتمى إلى العهد السومرى الأول على تمثال صغير من النحاس على شكل ثور ، عدا عليه الدهر ولكنه لا يزال يفيض حيوية وهمة ثورية ٠ وفى مدينة أور عثر المنقبون على رأس بقرة مصنوع من الفضة فى قبر الملكة شب – آد وهو آية فنية تشهد بما وصل إليه الفن من رقى عظيم (١١٥) ٠

وتقيدت أغلب النقوش السومرية بمبادىء الرسم والنقش الشائعة فى العالم القديم ، من حيث تصوير أشكالها فوق خطوط أفقية ترمز إلى الأرضية التى تقف عليها ،

وتضمن استواء صفوفها ، وتفصل بينها وبين صفوف المناظر التى تصور تحتها (وذلك مع استثناءات قليلة غير مقصودة لذاتها تخلى الناقش فيها عن تصوير أمثال هذه الخطوط) ، ثم من حيث تصوير وجه الإنسان وجذعه الأسفل من جانب مع تصوير عينه من أمام وتصوير كتفيه باتساعهما ، ومن حيث تصوير الأفراد يتعاقب الواحد منهم خلف الآخر حتى ولو كانوا يسيرون فى حليقتهم فى جماعات مختلفة (مع استثناءات قليلة أيضا) ، ثم من حيث تصوير الحكام بأحجام تزيد عن أحجام مرؤوسيهم وأتباعهم وأولادهم أيضا (١١٦) ٠

وتدل صور الطبول والأبواق والصنوج والآلات التى عثر عليها المنقبون أن قدماء العراقيين عرفوا الموسيقى واستخدموها فى شؤونهم الدينية والاجتماعية ، فهناك مثلا صورة عازف على القيثار فى معبد تعود إلى زمن جوديا ، وصورة أخرى مرسومة على شقفة مزهرية تمثل كاهنا يقرع طبلا ترجع إلى ما بعد زمن جوديا بقليل (١١٧)،وكان فى المعابد فئة من الكهنة هم المغنون والمرتلون الذين ينشدون التراتيل الدينية ، ويعرف الكاهن الذى يناط به تخفيف الغضب عن قلوب الآلهة بغنائه باسم " كالو " ، ويدعى كبير كهنة الكالو باسم " كلاماه " ٠ وكان يصحب الغناء والترتيل الضرب على الطبول والأدوات النحاسية ٠ وهناك فى المعبد كاهنات مغنيات وعازفات فى جوقة المعبد الموسيقية (١١٨) ٠

المضمون التربوى للأساطير العراقية :

سبق أن أشرنا فى الفصل السابق إلى ما تمثله الأساطير والصور الأدبية من " هنية قومية عامة " لها دورها المؤكد فى التوجيه الفكرى والإرشاد السلوكى ، مهما نظرنا إليها باعتبارها تقوم على " خرافات " ، ومن هنا نتوقف بعض الشىء أمام بعض المعانى والدلالات التربوية التى يمكن استقراؤها من بعض هذه الأساطير والصور الأدبية العراقية القديمة ٠

ومن أبرز الصور الأدبية " ملحمة جلجاميش " أبرز أساطير الأبطال ، والتى امتدت عبر حدود أرض الرافدين إلى أساطير الشعوب المجاورة (١١٩) • وجلجاميش رجل يبحث عن الخلود ، وتتميز الملحمة بأن موقفها من الحياة ذاتى جديد نسبيا ، وهو فى أساسه شديد التشاؤم ، فالأبطال أنفسهم لا يستطيعون الفرار من الموت و " طرق المجد لا تؤدى إلا إلى القبر " • والقصة التى تقصدها القصيدة قد لا تكون أسطورية فى جميع تفاصيلها ، فهى تصور البطل ملكا على مدينة " آرك Uruk " ، وكان هناك فعلا ملك عليها يسمى جلجاميش ، فلعل مغامراته بعد أن ضخمتها الأساطير هى منشأ هذه الأسطورة •

كان جلجاميش هو الرجل الذى رأى كل شيء وعرف الأسرار الخفية واكتشف سر الحكمة ، ولكنه كان يضهد شعبه ، فأرادت الآلهة أن تقيم منافسا يناوئه ، ولم يكن بين الأحياء ند له ، فخلقت الآلهة من يضارعه وسمته " إنكيدوEnkidu " ، ولكن البطلين ، بعد مغامرات مختلفة ، يصبحان صديقين ويقومان معا بأعمال فذة مروعة ، وبعد انتصارهما على المسخ المخيف الذى يسكن غابة الأرز ، تعجب الالهة " عشتر " نفسها بجلجاميش وتعرض عليه الزواج منها ، ولكنه يرفض العرض ، ويعيرها بقصص غرامها الكثيرة المتسمة بالقسوة غير آبه لغضبها •• إلى آخر الملحمة (١٢٠) •

وتستحق هذه الملحمة أن تتبوأ مكانها فى الأدب العالمى ، لا لأنها سبقت الملحمة الهومرية بألف وخمسمائة سنة على الأقل فحسب ، بل من أجل نوع القصة التى ترويها وطبيعتها ، فهى مزاج من المغامرات الخالصة والأخلاقيات والمأساة ، ونحن من خلال الحدث نشهد اهتماما بشريا غاية فى البشرية بالفناء والبحث عن المعرفة وعن مهرب من القدر المشترك للإنسان ، وليس من الممكن أن تكون الآلهة مأساوية طالما أن الآلهة لا تموت ، ولئن لم يكن جلجاميش هو أول بطل من البشر ، فإنه أول بطل مأساوى نعلم عنه شيئا ، وهو على الفور أقرب الأبطال إلى نفوسنا ، كما أنه النموذج الأكثر تمثيلا للإنسان الفرد فى سعيه إلى الحياة والفهم ، وهو سعى من شأن خاتمته أن تكون مأساة ، ولربما كان من المدهش أن شيئا ما قديما كقدم قصة ترجع إلى الألف الثالثة ق•م ، تبقى له القدرة على أن يتحرك ويظل يجتذب القراء فى القرن العشرين بعد الميلاد ، لكن هكذا كان شأنه ، وبالرغم من أن السرد ناقص ، وأن من

الممكن أن يظل السرد على نقص ، فإن ملحمة جلجاميش اليوم هى أجمل الشعر الملحمى الذى تبقى من أى فترة حتى ظهور الإلياذة لهوميروس ، وإنها لأقدم من هذا بزمان (١٢١).

ولعل من أبرز الأسباب التى أكسبت الملحمة شهرة واسعة (قديما وحديثا) كون موضوعها إنسانيا محضا (١٢٢). يقول أحد الباحثين فى هذا الصدد أن ملحمة جلجاميش تتعامل مع أشياء من عالمنا الدنيوى مثل الإنسان والطبيعة ، الحب والمغامرة ، الصداقة والحرب ، وقد أمكن مزجها جميعا ببراعة متناهية لتكون خلفية لموضوع الملحمة الرئيس ، ألا وهو " حقيقة الموت المطلقة ". إن الكفاح الشديد لبطل الملحمة من أجل تغيير مصيره الإنسانى المحتوم ، عن طريق معرفة سر الخلود من رجل الطوفان ، ينتهى بالفشل فى نهاية الأمر ، ولكن مع ذلك الفشل يأتى شعور هادىء بالاستسلام . ولأول مرة فى تاريخ العالم تجد تجربة عميقة على مثل هذا المستوى البطولى تعبيرا بأسلوب رفيع .

ويرتفع صوت بالنصيحة فى الملحمة لجلجاميش ، بألا يشغل ذهنه بالحياة بعد الموت ، وأن يفعل عكس ذلك ، بالاهتمام بهذه الحياة الدنيا التى نحياها (١٢٣):

أى جلجاميش ، لم هذا الجرى فى جميع الجهات ؟
إن الحياة التى تسعى لها لن تجدها أبدا ،
إن الآلهة حين خلقت بنى الإنسان قدرت الموت على بنى الإنسان .
واحتفظت بالحياة فى أيديها ،
أى جلجاميش ، املأ بطنك .
وكن مرحا بالنهار والليل .
بالنهار وبالليل ، كن مبتهجا راضيا ،
وطهر ثيابك .
واغسل رأسك ، اغتسل بالماء .
والق بالك إلى الصغير الذى يمسك بيدك ،
واستمتع بالزوجة التى تضمها إلى صدرك ،

وقضية الطغيان والقهر من أولى القضايا التى تثيرها الملحمة ، فعلى الرغم من أنها تبدأ بالتغنى بمعرفة جلجاميش وحكمته وبصيرته ، ثم تتجه للإشادة بأعماله النادرة وإنجازاته فى البناء والعمران ، وتعود بعد ذلك مباشرة إلى تصويره فى صورة البطل القوى الجميل الذى يفوق فى قوته وجماله سائر البشر ، فإنها لا تلبث أن تقدم بعض الوقائع الواضحة الدلالة على قهره لشعبه بالليل وفى وضح النهار ، فهو كالثور الوحشى أو النطاح مهيبة خطاه وبأس سلاحه ليس له نظير ، وهو يوقظ رعاياه على دقات الطبول مما يثير سخط أهالى أوروك . وهو لا يترك الإبن لأبيه ولا العذراء لحبيبها ولا ابنة البطل ولا زوجة المحارب . صحيح أن كل هذه الوقائع والتفصيلات لا تقدم الطغيان فى جوانبه الإرهابية والدموية التى نتصورها اليوم ، بل ربما أمكن تبريرها على نحو أو آخر فى الإطار الأسطورى والدينى والاجتماعى والتاريخى الذى تدور فيه الملحمة ، ولكن هل تبرر هذه الوقائع شكوى الناس للآلهة واستجابتها لهم ؟ ألا توحى بأن الكاتب أو الكتاب قد سكتوا عن جرائم أفظع وأبشع -- مضطرين أو مذعنين للعرف والتقليد الدينى الذى حكم بتأليه جلجاميش فى حياته وتوليته القضاء فى أرواح الموتى فى العالم السفلى بعد موته ، ثم التغنى بعدله ورعايته لشعبه وحب شعبه على مدى مئات السنين ؟ ! (١٢٤) .

واتسمت بعض نصوص الأدب البابلى بطابع يفوح برائحة التبرم ، وقوامه الشكوى من الظلم الاجتماعى ، والاحتجاج ضده أحيانا . ولما كانت النظرة البابلية العامة إلى مجريات الحياة الكونية والاجتماعية ترى أن الآلهة هى التى توجه الأمور وتتحكم بالمصائر ، فقد كان اللوم الأساسى يوجه إليها ، فى حين أن الطبقة الأرستقراطية التى كانت تمتلك القوة الاقتصادية وتمارس السلطة السياسية ، كانت تظل غالبا خارج نطاق الاتهام المباشر ، على اعتبار أن الآلهة هى التى مكنتها من تحصيل أسباب قوتها . إلا أنه من الملاحظ أن نزعة التبرم ، والميل إلى الاحتجاج لم يبلغا حدهما الأقصى .(١٢٥)

فى قصيدة تعرف ب " الإلهيات البابلية " أو " حوار بين صديقين " نجد هذه الإشارة الواضحة إلى أن من يمسك بيده مقاليد القوة يستطيع أن يعزز موقعه الاجتماعى ، ولنقرأ معا النص التالى (١٢٦) :

- انتبه ياصديقى وافهم أفكارى .
- التفت إلى صفوة العبارة من كلماتى .
- فالناس يمجدون كلام الشخص القوى الذى تمرس فى القتل .
- ولكنهم يهينون (يبخسون) الشخص الضعيف الذى لم يرتكب أى خطأ .
- وهم يؤيدون الشرير الذى جريمته هى ...
- ومع ذلك فهم يضيقون على الشخص الشريف الذى يرعى إرادة إلهه
- إنهم يملؤون مخازن الظالم بالذهب .
- ولكنهم يفرغون حقيبة الشحاذ من مأكولاتها .

ومن القواعد الأخلاقية التى أظهرتها النصوص العراقية القديمة : الثواب والعقاب ، ونرى فى مجتمع الآلهة الذى تصوره هذه النصوص أمثلة الثواب والعقاب ترتبط بمكافأة البطولة وارتقاء مرتبة الإله البطل ، وازدياد سلطته بين الآلهة ، وكذلك إقامة هياكل تعبدية له فى المعابد الرئيسية ، حيث تغدق عليه القرابين ، وهذا ما يتضح بالنسبة للإله " نينورتا Ninurta " ، فى صراعه مع الطائر " أنزو Ansu " ، وكانت المكافأة أيضا ترتبط بالولاء ، ولاء مدينة لمدينة أخرى ، ففى زيارة الإله القمر إلى مدينة نفر ، اعترافا منه بسلطة الإله إنليل Enlil ، كانت المكافأة تعنى الرخاء والوفر ، يمنحهما الإله إنليل لمدينة أور . ومن إريدو ، مدينة الإله أنكى تعود الآلهة إنانا Inanna محملة بكامل أسس الحضارة تقدمها لمدينتها أوروك (١٢٧).

ووضع البابليون ، فى آدابهم ، بما لديهم من ولع بالنظام ، قوائم بجميع أنواع الظواهر الملاحظة ، بما فى ذلك الأخطاء التى تستوجب ، فيما يبدو القصاص الإلهى فى صورة المرض أو الاضطراب بل وحتى الموت (١٢٨) . أما نتائج الأفعال الحسنة فكانت تسجل أيضا . وهناك نصوص من التعاويذ تصف الآثم بأنه ذلك الذى يأكل ما حرمه على إلهه أو آلهته ، وهو من يقول " لا " بدلا من أن يقول " نعم " أو يقول " نعم " بدلا من أن يقول " لا " . وهو من يشير بإصبعه إلى مواطن (باتهام باطل) ، وهو الذى يقول ما لا يجوز قوله ، وهو الذى يحتقر إلهه أو يسخر من آلهته ، وهو الذى ينطق بالباطل ولا يحكم بالحق ، وهو الذى يظلم الضعيف ويباعد بين الإبن وأبيه وبين الصديق وصديقه ولا يعتق الأسير .

وتتحدث بعض القصائد حديثا جنسيا صريحا (١٢٩):

يا حبيبى ، أيها الغالى على قلبى
اللذة التى تمنحها ، حلوة كالعسل
يا أسدى ، أيها الغالى على قلبى
اللذة التى تمنحها حلوة كالعسل
أنت فتنتنى ، ها أنذا أرتجف كلية أمامك
رغبتى يا حبيبى أن تحملنى إلى غرفتك
دعنى يا عشيقى أمنحك ملاطفاتى !

وبعد أن تشير قصيدة إلى أعضاء جنسية صريحة ، تقول عن قدرة إله على إخصاب إمرأتين (١٣٠) :

يميل " إيل " ويقبل شفتيهما ،
ها هما شفتاهما عذبتان
عذبتان كالرمان
وبعد القبلة ، الحمل
وبعد الاحتضان المتقد ،
أتى أجل ولادتهما ،
فولدتا سحر وشالم

وسعت بعض النصوص أن تبذر بذور " الوطنية " من خلال ما تحمله من تقدير بالغ وإعزاز صريح بالمدينة ، فمن ذلك (١٣١) :

ابتهج الجميع وسادت الأفراح الأرض ، فسبحانك يا إنكى أيها الإله المقدس الذى بعد أن قرر المصائر اختار سومر من بين بقاع الأرض مكانا لحياة عظيمة . .

سومر . . يا أيها البلد العظيم ، لقد غمرتك الأضواء المستديمة ، والجميع من مشرق الأرض إلى مغربها هم طوع شرائعك المقدسة .

إن شرائعك سامية لا يمكن إدراكها ، وقلبك عميق لا يمكن سبر أغواره .

المعرفة الصحيحة التى تأتين بها كالسماء لا يمكن بلوغها ، والملك الذى تلدين متوج بالتاج الأبدى ، والرب هو الذى يضع التاج على رأسه إلى الأبد .

....

أيتها المدينة الموفورة الزاد العميقة المياه القائمة كالثور القوى الثابت ، أنت منصة خير البلاد ، أنت خضراء كالجبل ...

الأبعاد التربوية للتفكير الدينى :

تضافرت عوامل عدة جعلت من التفكير الدينى هو صاحب المساحة الأوسع فى تفكير الإنسان القديم على وجه العموم ، والإنسان العراقى القديم على وجه الخصوص ، فالضعف الشديد الذى وجد الإنسان نفسه عليه ، جعله يتطلع إلى قوة أو قوى تملك ما يعجز عنه ، هى التى تشقيه وهى التى تسعده . ووجد الساسة من الحكام فى الدين أداة سحرية يحكمون بها الناس ، كالإدعاء بأنهم موكلون من قبل الآلهة بالحكم ، ومن ثم فإن طاعتهم واجبة ، ورجال الدين وجدوا فيه سوقا يغنمون فيه بالكثير من الأموال باعتبارهم خدمة الالهة والوسطاء بين الناس وبينهم ، وهو بكل هذه الاعتبارات ، وهناك غيرها بطبيعة الحال ، اعتبر قوة مهمينة على العقل والسلوك ، معرفة وقيما ، مما لابد معه أن نتوقف بعض الشيء أمام عدد مما تصورنا أنه يشكل أبعادا تربوية للتفكير الدينى فى العراق القديم .

كان الإله لدى الديانات العراقية القديمة قويا عليما مانح الحياة وسالبها ، فها هو الملك " جوديا " يدعو متضرعا للإلهة " بو " راعية " إكش " ونصيرتها (١٣٢) :

أى ملكتى ، أيتها الأم التى شيدت إكش

إن الذين تلحظينهم بعينيك ينالون العزة والسلطان .

والعابد الذى تنظرين إليه تطول حياته .

إن عندك علم الخير ، وأنت الى وهبتنى أنفاس الحياة .

وفى نص آخر نجد :

أتوسل إليك يا سيدة السيدات ، ياربة الربات يا عشتار ٠
أنت نور الدنيا ، أنت نور السماء ، يا ابنة " سن " العظيم ٠
ألا ما أعظم قدرتك ، وما أعظم مقامك فوق الآلهة أجمعين ٠
إليك تخضع قوانين الأرض والسماء والهياكل والأضرحة ٠
حيث تتطلعين تعود الحياة إلى الموتى ، ويقوم المرضى ويمشون ويشفى عقل المريض إذا نظر إلى وجهك ٠

ولا حدود لحكمة بعض الآلهة ، مما يبرر أن تكون هى الموجهة وأن تكون هى صاحبة الكلمة على الإنسان (١٣٣):

إنكى الذى هو رب الماء والفكر الذى يمنح الحكام والفطنة ، والحكماء العقل ، والسحرة القوى الخارقة ٠

إنكى ، يا من بعينيك السحريتين حتى ولو كنت ساكنا غارقا فى الفكر تنفذ إلى قلب كل شىء ٠

يا من لا حدود لحكمتك ٠٠
يا عميق العلم ، يامن تطاع عندما تقرر أمرًا وعندما تفصل منازعات الحق ٠
يا ناصحا من الشروق إلى الغروب ٠٠
يا سيد اللفظ الحكيم ٠٠ إياك أحمد ٠٠

وفى الآداب العراقية القديمة تكثر تلك الترانيم التى يضع الإنسان فيها أثقاله وآماله بين يدى الآلهة (١٣٤) :

متى يا إلهى ،
متى يا إلهى ، يتجه وجهك إلى ؟
متى ، يا إلهى ، يا من أعرفه ، ولا أعرفه ، يهدأ غضب قلبك ؟
متى يا إلهى : يا من أعرفها ولا أعرفها ، يهدأ قلبك الغضوب ؟
لقد فسد الإنسان ، وساء حكمه ،
ومن من الأحياء كلهم يعرف شيئا ؟
إنهم لا يعرفون أخيرا يفعلون أم شرا ؟
أى إلهى ، لا تنبذ خادمك ،

٤٢- صوفى أبو طالب : مبادىء تاريخ القانون ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧، ص ١٥٦

٤٣- فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ٩٢

٤٤- عبد العزيز صالح ، مرجع سابق ،ص ٥٢٩

٤٥- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ١٩٤

٤٦- برهان الدين دلو ، مرجع سابق ، ص ٢٢٧

٤٧- المرجع السابق ، ص ٢٣٠

٤٨- المرجع السابق ، ص ٢٣١

٤٩- عبد المنعم أبو بكر ، مرجع سابق ، ص ٣٢١

٥٠- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٦٥

٥١- محمد مهران ، مرجع سابق ، ص ٣٢٦

٥٢- عبد المنعم أبو بكر ، مرجع سابق ، ص ٣٢٠

٥٣- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢، ص ٢٢٧

٥٤- عبد العزيز صالح ، مرجع سابق ، ص ٦٢٣

٥٥- عبد المنعم أبو بكر ، مرجع سابق ، ص ٢٨٢

٥٦- المرجع السابق ، ص ٢٨٣

٥٧- مرغريت روثن : علوم البابليين ، تعريب يوسف حبى ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ١٩

٥٨- المرجع السابق ، ص ٢٠

٥٩- ألكسندر ستيبتشفيتش : تاريخ الكتاب ، ترجمة محمد م. الأرناؤوط ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (١٦٩) ، يناير ١٩٩٣ ، ج١ ، ص ١٢

٦٠- جورج سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة محمد خلف الله وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ج١ ، ص ١٥٣

٦١- المرجع السابق ، ص ١٥٤

٦٢- أحمد سوسه ، مرجع سابق ، ص ٤٢

٦٣- المرجع السابق ، ص ٤٣

٦٤- بورهارد برينتيس : نشوء الحضارات القديمة ، ترجمة جبرائيل يوسف كباس ،

الأبجدية للنشر ، دار الأبجدية للنشر ، دمشق ، ١٩٨٩ ، ص٨٠
٦٥- فاضل عبد الواحد على : من سومر إلى التوراة ، دار سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ٤٠
٦٦- قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٣٧
٦٧- فاضل عبد الواحد على ، مرجع سابق ، ص ٩٨
٦٨- سارتون ، تاريخ العلم ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٦٠
٦٩- المرجع السابق ، ص ١٦١
٧٠ -- عبد العزيز صالح ، مرجع سابق ، ص ٤٥٣
٧١- المرجع السابق ، ص ٤٥٤
٧٢- صمويل كريمر : من ألواح سومر ، ترجمة طه باقر ، مؤسسة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٤٤
٧٣- المرجع السابق ، ص٤٥
٧٤ -- المرجع السابق ، ص ١٢٢
٧٥--المرجع السابق ، ص ٤٦
٧٦ - المرجع السابق ، ص ٤٧
٧٧- س . كريمر : طقوس الجنس المقدس عند السومريين ، ترجمة نهاد خياطة ، دار علاء الدين ، دمشق ، ١٩٩٣ ، ص ٣٩
٧٨- فاضل عبد الواحد على ، مرجع سابق ، ص ١١٣
٧٩- من ألواح سومر ، مرجع سابق ، ص ٥٠
٨٠- المرجع السابق ، ص ٥٦
٨١- علوم البابليين ، مرجع سابق ، ص ٣٥
٨٢ - المرجع السابق ، الصفحة نفسها
٨٣- المرجع السابق ، ص٣٦
٨٤- أحمد فهمى القطان : تاريخ التربية ، مطبعة مدرسة طنطا الصناعية ، طنطا ، ١٩٢٣ ، ص ٦٠
٨٥- قصة الحضارة ، مرجع سابق ، م١ ، ج٢ ، ص ٣٢
٨٦- عبد المنعم أبو بكر ، مرجع سابق ، ص ٢٩٩
٨٧- عبد الحكيم الذنون : التشريعات البابلية ، دار علاء الدين ، دمشق ، ١٩٩٢ ،

ص ٤٨ وما بعدها

٨٨- عبد المنعم أبو بكر ،مرجع سابق ، ص ٣٤١

٨٩- المرجع السابق ، ص ٣٤٢

٩٠- علوم البابليين ، مرجع سابق ، ص ٣٥

٩١- سارتون : تاريخ العلم ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٥٨

٩٢- المرجع السابق ، ص ١٥٩

٩٣- تاريخ الكتاب ، مرجع سابق ، ص ١٤

٩٤- فاضل عبد الواحد على ، مرجع سابق ، ص ١١٤

٩٥- علوم البابليين ، مرجع سابق ، ص٣٧

٩٦- تاريخ الكتاب ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٤

٩٧- المرجع السابق ، ص ٢٥

٩٨- المرجع السابق ، ص ٢٧

٩٩- علوم البابليين ، مرجع سابق ، ص١١٤

١٠٠- برهان الدين دلو ، مرجع سابق ، ص ٣٤٥

١٠١- سارتون : تاريخ العلم ،مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٠٠

١٠٢- برهان الدين دلو ، مرجع سابق ، ص ٣٤٦

١٠٣- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٥٠

١٠٤- المرجع السابق ، ص ٢٥١

١٠٥- المرجع السابق ، ص٢٥٢

١٠٦-علوم البابليين ، مرجع سابق ، ص ١٠٧

١٠٧- محمد عبد الرحمن مرحبا : المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب ، ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٨٤

١٠٨- علوم البابليين ، مرجع سابق ، ص ٦٨

١٠٩- المرجع السابق ، ص ٧٠

١١٠- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٥٣

١١١- برهان الدين دلو ، مرجع سابق ، ص ٣٤٩

١١٢- نجيب ميخائيل إبراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، دار المعارف ، ١٩٦١ ، ج٦، ص ٨٠

١١٣- برهان الدين دلو ، مرجع سابق ، ص ٣٣٨
١١٤- طه باقر : مقدمة فى تأريخ الحضارات القديمة ، شركة التجارة والطباعة ، بغداد ، ١٩٦١ ، ج١ ، ص٣٢٧
١١٥- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٣٨
١١٦- عبد العزيز صالح ، مرجع سابق ، ص ٤٦
١١٧- برهان الدين دلو ، مرجع سابق ، ص ٣٧٥
١١٨- المرجع السابق ، ص ٣٧٦
١١٩- الحضارات السامية القديمة ، مرجع سابق ، ص ٨٦
١٢٠- المرجع السابق ، ص ٨٧
١٢١- ن.ك.ساندرز : ملحمة جلجاميش ، ترجمة محمد نبيل نوفل ، وفاروق حافظ القاضى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٩
١٢٢- فاضل عبد الواحد على : ملحمة جلجاميش ، فى : عالم الفكر ، وزارة الإعلام ، الكويت ، م١٦ ، العدد الأول ١٩٨٥ ، ٣٦
١٢٣- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١، ج٢ ، ص ٢٥٨
١٢٤- عبد الغفار مكاوى : جلجاميش وجذور الطغيان ، فى : مجلة العلوم الإنسانية ، مجلس النشر العلمى ، جامعة الكويت ، العدد ٤٢ ، السنة ١١ ، شتاء ١٩٩٣ ، ص ٢٨
١٢٥- عبد الباسط سيدا ، مرجع سابق ، ص ٢٥٢
١٢٦- المرجع السابق ، ص ٢٥٧
١٢٧- قاسم الشواف : ديوان الأساطير ، دار الساقى ، بيروت ، ١٩٩٧ ، الكتاب الثانى ، ص ٢١٩
١٢٨- جفرى بارندر (تحرير) : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (١٣٧) ، مايو ١٩٩٣ ، ص٢٤
١٢٩- قاسم الشواف : ديوان الأساطير ، دار الساقى ، بيروت ، ١٩٩٦ ، الكتا الأول ، ص ١٧١
١٣٠- المرجع السابق ، ص ١٥٢
١٣١- خزعل الماجدى : إنجيل سومر ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٩٨

، ص ٥٤
١٣٢- حسين العودات : الموت فى الديانات الشرقية ، الأهالى للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٩٩٥ ، ص٣٠
١٣٣- إنجيل سومر ، ص ٤١
١٣٤- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٢٤
١٣٥- عبد الباسط سيدا ، مرجع سابق ، ص ١٦٥
١٣٦- إنجيل سومر ، مرجع سابق ، ص ١٤٧
١٣٧- المرجع السابق ، ص ١٤٨
١٣٨- طقوس الجنس المقدس عند السومريين ، مرجع سابق ، ص١١٤
١٣٩- فراس السواح : مغامرة العقل الأولى ، دار علاء الدين ، دمشق ، ١٩٩٦ ، ص ١٥٣
١٤٠- ديوان الأساطير ، الكتاب الثانى ، مرجع سابق ، ص ٤٥٢
١٤١- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١، ج٢ ، ص ٣١

الفصل الرابع

التربيــة الهنديــــة

أبعاد الحضارة الهندية :

من الأقوال التى أصبحت تتردد على ألسن الجمهرة الكبرى من المتحدثين حتى صارت من مسلمات العصر الحالى أن عالمنا قد أصبح قرية صغيرة ، مريدين بذلك أنه على الرغم من التباين فى الأجناس واللغات والظروف الجغرافية ، والميراث التاريخى والمذاهب والأديان ، والمصالح ، فإن تعدد وسائل الاتصال وتوافرها وكثرتها وما تتميز به من سيولة وسرعة تدفق ، وكأنه قد ألغى كل هذه التباينات ، بحيث يبدو العالم وحدة حضارية واحدة ٠

لكننا لو رجعنا بالذاكرة التاريخية بضعة آلاف من السنين ، ووجهنا الأنظار إلى هذه البقعة من العالم التى اصطلحنا على تسميتها بالهند ، فسوف نطالع مشهدا ، له مقدمات تختلف عن تلك التى سقناها لعالم اليوم فى الفقرة السابقة ، لكن النتيجة ، ربما ، تتشابه إلى حد كبير ! فشبه القارة الهندية مخزون بشرى وطبيعى ضخم ، متعدد الصور والأشكال ، متباين الألوان والمشارب ، كأنه قارة كاملة ، ومع ذلك فنحن نتحدث عنها كوحدة حضارية واحدة تحتل صفحات مشرقة وبارزة فى سجل الحضارة الإنسانية ، ولها تربيتها المتميزة التى لا تخطئها عين ، مع أنها لم تكن تعرف هذا الذى نعرفه اليوم من حيث عبقرية الاتصال المعاصر (١)٠

من الناحية الجغرافية ، فالهند تمتد من الشمال عند سلسلة جبال الهمالايا ، ومن الغرب عند جبال الهندكوش وسليمان ، حيث تقع أفغانستان وإيران ، وتمتد إلى الجنوب فى شبه جزيرة يقع بحر العرب فى غربها ، وخليج البنغال فى شرقها وسيلان فى طرفها الجنوبى ، ويتجه الإقليم الشمالى منها إلى الشرق ، حتى جبال آسام ٠

وفى الهند أنهار عظيمة ، بعضها ينبع من الشمال ، حيث الهملايا ، ويصب فى بحر العرب ، مثل نهر السند ، أو نهر الإندوس ، وفى مجراه الأعلى تمده روافد ، لا سيما التى تجرى فى البنجاب ، أكثر مناطق الهند عمرانا ، وبعض الروافد ينبع من كشمير ، ويعتبر نهر السند من أطول أنهار العالم ، حيث يبلغ طول مجراه ٢٩٠٠ك٠م ، ومنها نهر " الكنج " ، وهو النهر الذى يعتبره الهندوس مقدسا ، ومن هنا يغتسلون فى مياهه ، ليتطهروا من ذنوبهم ، ويتدفق من جبال الهملايا ، من ارتفاع أربعة آلاف متر ، ويعود الصعود إلى هذا المكان من أعظم القربات عن الهندوس ، ومنهانهر " جمنا " ، وهو ينبع من الهملايا أيضا ، ونهر " براهمابترا " الذى يأتى من الشمال الشرقى ، حيث جبال الهملايا وآسام ، ويجرى فى البنغال ٠ وثمة أنهار أخرى فى الوسط والجنوب تصب فى خليج البنغال ، أو بحر العرب ، وما عدا هذه الأنهار ، فإن البلاد غنية بالأمطار والمياه الجوفية ، مما يساعد – مع سعتها ، وكثرة سكانها ، وتنوع تضاريسها – على إبداع حضارى متميز ، حافل بصور وأشكال من الثراء المعرفى والمادى والروحى (٢) ٠

من أجل كل هذا ، وهناك غيره مما لا يتسع المقام لبيانه ، أصبحت الهند تمتاز بخصوبة أوديتها ، وتعدد نباتاتها وكثافة غاباتها وتعقد مسالكها ، وكثرة معارجها ومصاعبها ومهابطها ، وتباين أجوائها ومناخاتها ، ووفرة التناقض الطبيعى فى أرضها وسمائها ، فبينما نرى فيها جبالا شاهقة تتجاوز السحاب سموا ، وهضبات متفرقة يفصل بعضها عن بعض هوى سحيقة وحفر طبيعية عميقة ، وتلالها تتخللها من جهة كثبان ضخمة ، وتعترضها من الجهة المقابلة صخور عظيمة النتوء ، صعبة الاجتياز ، إذا بنا نرى إلى جانب هذا أودية مبسوطة ومروجا باسمة تتباهى بما تزدان به ألوان الزهور وأفانين الثمار والبقول ، وكذلك جوها لا نكاد نحس بدفئه وحرارته حتى نفاجأ ببرده ورطوبته ، ولكن الحرارة هى العنصر الرئيسى السائد فى بلاد الهند ، فتلك الحرارة التى أضعفت الأبدان وقصرت الشباب وأنتجت للناس هناك ديانتهم وفلسفتهم المسالمتين ، فليس يخفف عنك هذه الحرارة إلا أن تجلس ساكنا لا تعمل شيئا ، ولا ترغب فى شىء (٣)٠

وكان لهذا التعدد والتباين فى كل شىء ، أثرا بارزا فى عقلية الهنود ٠٠

وقد استطاع التاريخ أن يتغلغل بالمدنية الهندية فى أغوار الماضى مدى ثلاثين قرنا قبل الميلاد ، إذ يحدثنا أن تلك الأودية كانت فى ذلك العهد مأهولة بقوم من الجنس السامى ، لهم مدنيتهم وتفكيرهم ، وأن هؤلاء القوم قد أسهموا فى بناء صرح المدنية العالمية بنصيب وافر ، وكان لهم فى تاريخ الفكر البشرى مجهود جبار ظل مجهولا أو غامضا على الأقل حتى تم الكشف عنه (٤) .

فقد كانت الهند ، قبل الفتح الآرى ، قبائل متفرقة ، أو شعوبا صغيرة ، لكل شعب حاكمه وقوانينه ، وعقائده وعاداته ، وأن الوحدة السياسية والعمرانية إنما وجدت فيها على أيدى أولئك الفاتحين .وكانت أكبر مجموعة من سكان الهند قبل هذا الفتح ، " الدرافيديين " ، ويطلق هذا الإسم اليوم على مجموعة بشرية كبيرة تعيش بجنوبى الهند ، ويفترض أنهم من سلالة درافيى ما قبل التاريخ ويتميزون بخصائص زنجية . وقد احتل الآريون تلك الأصقاع المتمدينة وطغوا على مدنيتها ودياناتها طغيانا محاها من صحائف أذهانم الخاصة ، وإن كان لم يستطع أن يمحوها من صحائف الوجود ، بل ولا من أذهان العامة والجماهير . وتدل دراسة الديانة الهندية بوجه عام على أن الهند هى ، بعد مصر ، البقعة الثانية التى يصح أن يطلق عليها اسم أرض الآلهة ، والتى لا يفوقها فى تعقد مشاكلها وكثرة آلهتها وصعوبة تحديد اختصاصاتهم وسعة الخيال وخصوبته فى تصوير المعبودات إلا مصر (٥) .

وقد استطاعت الاكتشافات الأثرية الحديثة أن تحدث زلزالا كبيرا لسابق معلوماتنا عن الحضارات الشرقية القديم ، وهذه الاكتشافات التى نشير إليها ، هى التى قام بها منذ سنة ١٩٢٤ " سير جون مارشال Sir John Marshall " ، وبعض رفاقه الهنود فى موهينجو – دارو Mohenjo-daro ، وهارابا Harappa ، على نهر الهندوس الأدنى . هذه الاكتشافات ألقت الضوء على بقايا مجموعة من المدن ، أقيمت الواحدة منها على أنقاض غيرها . وعلى قدر ما نعلم ، اكتشفت خمس من مثل هذه المدن ، ومن المحتمل أن يكتشف كثير غيرها فى الوقت المناسب . وتقدم المبانى كل دليل على أنها كانت تبلغ عدة طوابق فى ارتفاعها وهناك مئات منها ، توحى بحياة مدنية ناجحة مماثلة تماما لتلك الحياة التى ازدهرت فى " أور " . أما ما اكتشف داخل المبانى ذاتها ، فهو مع ذلك أكثر طرافة ، فالفخار والمجوهرات والأثاثات والأختام المنقوشة

والأسلحة والآلات والدمى ، كل هذه لا توجد فقط بكمية وفيرة ، بل فى جودة لم يكن لها مثيل فى أغلب الأحوال (٦) .

ومن الغريب حقا أن ما اكتشف فى الطبقات السفلى قد كشف عن عدد من الأشياء الراقية ، بالحكم عليها بالمعايير الفنية ، تفوق تلك التى وجدت فى الطبقات العليا منها ، ولكن فيما يتصل بحقيقة أن بعض الأسلحة كانت من الحجر وبعضها من النحاس ، وغيرها من البرونز ، فلابد أن هذا سيدفعنا إلى التشكك فيما إذا كانت تقسيماتنا التقليدية لأزمنة ما قبل التاريخ قد روعيت بدقة . وفى اعتقاد " سير جون مارشال " أن مدن " موهينجو – دارو " تنتمى على الأقل إلى الألف الثالثة ق.م ، وربما إلى الألف الرابعة . أما عن الوقت الذى استغرقته لتنمو فيه وتصبح مدنا مزدهرة فهذا ما لا علم لنا به . والافتراض هو أن أصلها لابد أنه ينتمى إلى فترة قد أنكرنا ، إلى حد ما ، أن نسميها فترة حضارية . ويبدو مؤكدا بمعنى آخر ، أن " موهينجو – دارو " كانت مسرحا لتجارة نشطة ولتجارة غير مشروعة ولحياة كريمة فى فترة خصصها المصريون لملوك أسطوريين مثل العقرب Scorpion ، وهذا يضع " موهينجو – دارو " مؤقتا على قمة حضارات العالم (٧).

كانت هناك إذن حضارة قامت فى وادى السند فى الألف الثالثة قبل الميلاد ، على وجه التقريب ، وبحلول الألف الثانية قبل الميلاد احتلت مساحة تقدر بنحو ثلث مساحة الهند ، حيث امتدت شمالا إلى جبال هملايا ، وجنوبا إلى مشارف بومباى ، تقريبا ، ومن الساحل الغربى باتجاه الشرق إلى دلهى (٨) .ومن الطبيعى افتراض أن الجوانب المادية المتطورة فى حضارة السند كانت تجد ما يعادلها فى نسق متطور من الفكر الاجتماعى والدينى ، كما كانت تجد فى ما يعادلها أو قريبا منها فى أنحاء أخرى من الهند ، وبخاصة فى البنغال شرقا ، وفى الجنوب الذى كان ملتقى قديما لحضارة جنوبى الجزيرة العربية ، ولجميع البلدان والجزر المطلة على الخلجان الممتدة من المحيط الهادى والهندى .

وإذا كان الاريون قد غزوا الهند ، فمن أين قدموا ؟ الرأى المحتمل أن موطنهم كان فى بلاد فارس ، وبالتحديد هو إريانا فايجو Airyana vaejo والتى تعنى " موطن

الآريين " ، فى منطقة متاخمة لبحر قزوين ، وكان دخولهم الهند حوالى سنة ١٦٠٠ق٠م، وقد استغرقوا وقتا طويلا مخترقين هذا البلد الشاسع ، لكنهم بتعقبهم الأنهار العظيمة استطاعوا فى النهاية أن يسيطروا على جزء كبير منها ٠ ومن المرجح أن تسميتهم بالآريين كان القصد منه أن يعلنوا فكرة السمو الجنسى والطبقى ، خاصة وأن ما صادفوه من نجاح فى غزوهم قد عزز هذا ودعمه ، ذلك أن الآرى Aryan مشتق من الكلمة السنسكريتية التى تعنى " النبيل " ٠ ونظرا لما كانوا عليه من أقلية ، لكن تتميز بالقوة ، حرصوا على نقاء جنسهم ، فمنعوا التزاوج بغيرهم ، مما رسخ من ذلك النظام الاجتماعى القائم على التفرقة الاجتماعية استنادا إلى السلالة أو الجنس (٩)٠

وقد كان غزو الآريين للهند إبان تحركات الشعوب الناطقة باللغات الهندو – أوربية فى جميع أنحاء غرب آسيا وأجزاء من منطقة البحر الأبيض فى الألف الثانية ق٠م ، ولقد كانوا متفوقين فى العديد من المميزات العسكرية الحاسمة على السكان الأصليين فى شبه القارة ، فكانت لديهم أسلحة برونزية متفوقة ، ثم امتلكوا بعد ذلك بوقت قصير أسلحة حديدة وعربات تجرها الخيل ذات مكابح للعجلات ، ومن ثم كانت أخف وأسرع من عربات السكان الأصليين ذات العجلات الجامدة والتى تجرها الثيران ٠ لقد كانوا شعبا قادرا على الحركة بسهولة ، عسكرى الطابع مجهزا لغزو أى شعب زراعى وحكمه ، فضلا عن أنهم هم أنفسهم كانوا منخرطين فى الزراعة ورعى الماشية (١٠) ٠ على أن حضارة وادى نهر السند التى سبقت الآريين كانت من جوانب كثيرة أرقى منهم ، ومن الجائز أن الهند لم تستعد حضارة مدينة تضاهيها من حيث المستوى والنطاق إلا بعد حوالى ١٥٠٠ سنة من انهيار تلك الحضارة ٠

وكما هى الحال فى كل أرجاء العالم ، كان فى الهند تفاوت واسع بين الفقر والغنى ، ولكنه لم يبلغ ما يبلغه اليوم فى الهند أو أمريكا ، ففى أسفل السلم كانت هناك أقلية صغيرة من العبيد ، ويتلوهم صعودا فئة " الشودرا " ، الذين لم يكونوا عبيدا بقدر ما كانوا مأجورين على عملهم ولو أن منزلتهم الاجتماعية كأجراء ، كانت تورث ، كما هى الحال فى سائر المنازل الاجتماعية بين الهنود (١١) ٠

وقد ازداد النظام الطبقى تزمتا وتعقيدا منذ العصر الفيدى (٢٠٠٠-١٠٠٠) ق٠م ، ذلك أن طبيعة النظم الاجتماعية من شأنها أن تزيد تلك النظم صلابة على مر الزمن ، فضلا عن أن اجتياح الهند - من جهة أخرى - بالشعوب الأجنبية والعقائد قد زاد من صلابة نظام الطبقات ليقوم سدا قويا يحول دون امتزاج دم الهنود بدم غيرهم ، فقد كان أساس الطبقات فى العصر الفيدى هو اللون ، ثم أصبح الأساس فى العصور الوسطى الهندية هو المولد (١٢)٠

وكان على رأس الطبقات وأكبر المستفيدين من نظامها ، طبقة البراهمة ، وكان البراهمة يستمدون نفوذهم من احتكارهم للعلم ، فهم القائمون على صيانة التقاليد ، وهم الذين يدخلون على تلك التقاليد ما شاءوا من تعديل ، وهم الذين يتولون تربية النشء ، ويكتبون الأدب أو يقومون على نشر المكتوب منه ، وهم الخبراء بكتب الفيدا التى ظنوا أن الوحى قد هبط بها وأن الباطل لا يأتيها ، وينص تشريع " انو " على أن البرهمى من حقه أن يسود سائر الكائنات (١٣)٠

وأخذت قوة الكهنة تزداد من جيل إلى جيل حتى أصبحوا أطول ما عرفه التاريخ من طبقات الأرستقراطية بقاء على وجه الدهر ، ومن المعروف أن النظام الاجتماعى كلما ازداد قدما اكتسب قدرا من الصلابة والقداسة فى أعين الناس ٠ كذلك فإن مما ساعد الكهنة على أن تتزايد قوتهم جيلا بعد جيل ،اعتدالهم فى مراعاة القواعد المطلوبة منهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم وجدوا شعبا أثقلته فلاحة الأرض فأخضعته لتقلبات الجو التى بدت لهم كأنها تقلبات أهواء شخصية فشغلهم ذلك كله عن النهوض بأنفسهم من الخرافة إلى نور العرفان ٠

وقد ارتبط التشريع الخلقى فى هذه البلاد بنظام الطبقات ارتباطا يكاد لا يكون له انفصام ٠ والأخلاق عندهم هى " ذارما " - أى أنها قواعد السلوك فى الحياة لكل إنسان كما تحددها له طبقته ٠ ولكل مكان من ذلك النظام التزاماته وقيوده وحقوقه ، ولا بد للهندوسى الورع أن يسلك حياته ملتزما بهذه الالتزامات والقيود والحقوق ، ملتمسا فيها الرضى والقناعة بالطريق الذى مهد له لكى يسير فيه ولا يخطر بباله أبدا أن يتجاوز حدود طبقته إلى طبقة أخرى (١٤) ٠

والنظام الذى كانت تسير عليه الأسرة الهندية هو النظام الأبوى ، وبالتالى ، فالزوج هو صاحب السلطة ، كلمته نافذة على زوجته وعلى أولاده وعلى ما قد يكون لديهم من عبيد . وعلى الرغم مما تميزت به الزوجة الهندية من ملامح تدخلها فى دائرة الجمال ، وبالتالى أن تكون مركز جذب وموضوع حب ، لكنها ظلت فى مرتبة أدنى مما كان عليه الرجال .

وكانت أخلاقهم فى التجارة على قدر عال من رفعة المستوى ، ولو أن الملوك فى الهند الفيدية ، كما كان أقرانهم فى اليونان الهومرية ، لم يترفعوا عن اغتصاب الماشية من جيرانهم ، ولكن المؤرخ اليونانى الذى أرخ لحملات الإسكندر ، يصف الهنود بأنهم يستوقفون النظر باستقامتهم ، وأنهم بلغوا من سداد الرأى حدا جعل التجاءهم إلى القضاء نادرا ، كما بلغوا من الأمانة حدا يغنيهم عن أن يستخدموا الأقفال على أبوابهم وعن العهود المكتوبة تسجيلا لما اتفقوا عليه ، فهم صادقون إلى أبعد الحدود (١٥) . صحيح أنه يوجد فى سفر " رج – فيدا " ذكر للزواج المحرم وللتضليل وللعهد وللإجهاض وللزنا ، كما أن هناك علامات تدل على الانحراف الجنسى الذى يجعل الرجال يتصلون بالرجال ، لكن الصورة العامة التى نستمدها من أسفار الفيدا ، ومن الملاحم ، تدل على مستوى رفيع فى العلاقات بين الجنسين وفى حياة الأسرة .

الطابع التربوى للفكر الفلسفى الهندى :

درج كثير من مؤرخى الفكر الفلسفى الغربيين أن يرجعوا نشأته إلى الغرب ، على اعتبار أن التفلسف نشاط عقلى يقوم على التأمل والتجريد والتنظير ، بينما ما يسمى بالفكر الفلسفى لدى الشعوب الشرقية كثيرا ما يلتبس بالجوانب العملية . ومن المفارقات حقا أن هذا الذى يأخذه هذا الفريق من المؤرخين على الفكر الفلسفى الشرقى هو الذى يكسبه ميزة كبرى من وجهة نظرنا ويجعلنا أكثر احتفاء به فى مقامنا هذا ، فنحن إذ نؤرخ للتربية ، ننظر بعين التقدير والاحترام أكثر إلى النشاط العقلى عندما تتوثق الروابط بينه وبين حركة الواقع ومشكلات الحياة الإنسانية ، لأننا إذ نربى ، فمعنى هذا أننا نغير فى السلوك الواقع ، وبالقدر الذى يكون فيه الفكر واضعا الواقع فى الاعتبار ، ولا يحلق فى أجواء شديدة التجريد ، يكون أكثر عونا للمربين .

وإذا كان الفكر الفلسفى الهندى ، كما يلاحظ ذلك كل من درسوه ، يتسم بالثراء الشديد والشمول المحيط ، فضلا عما هو معروف عن قدمه وعمقه ، فإن طابعه التربوى هو القسمة الرئيسية فى هذا الفكر ، قديما وحديثا ، ونعنى بالطابع التربوى هنا أنه استهدف بالدرجة الأولى " تحسين الحياة " ، فقد واجه الفلاسفة الهنود العذاب الجسدى والذهنى والروحى ، وسعوا لفهم مبرراته وأسبابه ، وحاولوا تحسين فهمهم لطبيعة الإنسان والكون ، كما أرادوا استئصال أسباب المعاناة وتحقيق أفضل حياة ممكنة ، وتشكل الحلول التى وصلوا إليها ومبررات النتائج الكامنة وراء هذه الحلول ، فلسفات هؤلاء الحكماء الأوائل (١٦) ،

وليس معنى هذا بطبيعة الحال انصراف الفلسفة الهندية عن مهمة التأمل والتنظير ، كلا ، فإذا كانت الاعتبارات العملية السلوكية تشكل جوهر هذه الفلسفة ، فإن الاعتبارات النظرية تشكل إطارها ، والأولوية هى للاعتبارات العملية السلوكية ، وتصبح وظيفة الجوانب النظرية تقديم المبرر للحل المختار للمشكلة السلوكية ، ولعل مثالا عمليا يوضح هذا ،

فالمشكلة المركزية للكم الأكبر من الفقراء هى ما يعانونه من ألم وعذاب نتيجة تلك الهوة الواسعة بين ما يريدون وبين ما يملكون ، فإذا كانت الثروة المادية أهم وسيلة لحصول الإنسان على ما يريد أو بعضه على الأقل ، فماذا يفعل هؤلاء ، وهم لا يملكون عادة ثروة تتيح لهم الحصول على ما هم بحاجة إليه ؟ إن حل هذه المشكلة يكمن فى مبدأ التطابق بين الرغبة والإمكانية ، أو على أقل تقدير ، تضييق الهوة إلى أدنى مسافة ممكنة ،

فى بعض الإيديولوجيات ، يركزون على توفير الثروة المادية فى أيدى الفقراء ، وهذا سبيله " ثورة سياسية " ، لكن الحل الذى ترتأيه الفلسفة الهندية ، يتركز فى تقليل الرغبة ،، فى بث الزهد ،، فى القناعة ، وأمور مثل هذه يحتاج الأمر إلى إقناع ، وتأمل ، ويحتاج إلى تدريب ورياضات نفسية وروحية ، أو قل بصريح العبارة ، الحل هنا تربوى بالدرجة الأولى ، ويستتبع هذا التعرف بعمق على طبيعة الإنسان وفهم النفس والوعى بالذات ، تمهيدا لممارسة ضبط النفس والسيطرة على الرغبات وكبح

جماحها ، ومن هنا أصبحت الممارسة العملية للفلسفة الهندية ، فى أحسن صورها ، هى فن العيش فى إطار السيطرة الكاملة للمرء على ذاته (١٧) .

وهناك جانب آخر فى الفلسفة الهندية مما يؤكد طابعها التربوى ، هو أمر تقترب فيه إلى حد كبير من الفلسفة البراجماتية ، وإن كان المبدأ الذى تقوم عليه هنا ليس مجرد " المنفعة " بالمعنى المادى المباشر ، وإنما هو جعل الممارسة العملية هى المحك النهائى للحقيقة ، والمقصود بالممارسة العلمية هنا مقدار الفعالية فى تحسين نوعية الحياة ورفع المعاناة (١٨) ، فإذا كانت هناك وجهتين من النظر متناقضتين أمام الإنسان لا يستطيع الإنسان أن يقبلهما معا ، فوفق أى مقياس يختار بينهما ؟ هناك فى الفلسفة معيار الاتساق والمنطق ، لكنه هنا لا يستحب ، حيث يتقدم معيار " التجربة " و " الممارسة العملية " ليعلو على المبدأ المنطقى .

ومن شأن وضع التركيز الإيجابى فيما يتعلق بتبرير فلسفة ما على التجربة أكثر منه على المنطق (وإن لم يعن ذلك استبعاد المنطق تماما) من شأنه أن يقتضى وضع الفلسفة موضع التطبيق أو الممارسة ، وذلك يعنى فى الهند ابتكار طريقة لتحقيق حياة خيرة ، تخلو من العذاب . والطريق هو جزء من الرؤية ، وإذا لم يكن من الممكن اتباع طريقة تحقيق أهداف الرؤية فإن هذه الأخيرة ينظر إليها على أنها غير مناسبة . والقول " جيد نظريا ولكنه ليس كذلك عمليا " هو ملاحظة بحاجة إلى التحفظ ، عندما تطبق على فلسفات الهند ، فالجيد نظريا غالبا ما يكون جيدا عمليا كذلك (١٩) .

ومن أكثر المبادىء الفلسفية الهندية قربا من الأديان السماوية ، ذلك المبدأ الذى يؤكد على سيادة العدالة الأخلاقية الكلية إلى الدرجة التى تكاد ترادف فيها المبدأ الإسلامى المعروف الذى تعبر عنه الاية القرآنية الكريمة " من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " ، فالمسئولية الأخلاقية معلقة بمقدار سعى الإنسان نحو الخير ونحو الفضيلة ، إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا ، فمثل هذا المبدأ من شأنه أن يحث الإنسان على أن يحرص على التزام الصراط المستقيم ، ومن شأنه أن يهب العزاء للحزانى والمظلمين ، إذا وقع عليهم ظلم وجور ، فيد العدالة لابد أن تنصفهم ، ولا بد أن تنتقم ممن أوقع بهم الإيذاء والظلم .

الفيــــدا Vidas :

هو أقدم كتاب دينى هندى معروف ، وليس هذا الكتاب المقدس كتابا هنديا أصليا ، وإنما هو كتاب (هندو آرى) ، حمل الفاتحون عناصره معهم إلى وادى (البنجـاب) المفتوح حيث فرضوا تعاليمه على الوطنيين فرضا ، وإذا فهو لا يمثل العقلية الهندية ، ولا يصور المدنية القديمة التى كانت زاهدة فى تلك البـلاد قبل وجـوده فيهـا بـأكثر مـن خمسة عشر قرنا ، بل بالعكس ، كثيرا ما يجد فيـه القـارىء صـورا عقليـة واجتماعيـة هى على طرفى نقيض مع الصور التى كشفها الأثريون حديثا للهنـد الملحيـة الغـابرة ، وفـوق ذلـك ، فهـو مكتـوب باللغـة السنسكريتية ، التـى لـم تكـن معروفـة عنـد الهنــود الأصليين من غير شك ، والتى هى لغة الآريين وحدهم ، غير أن هذا الكتاب لا يزال هو أقدم المستندات العلمية المعتمدة فى تاريخ الهند (٢٠) .

ولكلمة (فيدا) عدة معان أدقها : العلم عن طريق الدين بكل ما هو مجهول .

وينقسم الفيدا إلى أربع مجموعات تختلف كل واحدة منهـا عـن الأخـرى بـاختلاف الموضوع الذى تعالجه ، فالأولى تسمى " ريج فيدا Rig Vida " ، الفيـدا الناريـة ، أو الفيدا المنسوبة إلى النار ، وهو يصف الحياة الاجتماعية الأولى لطائفة الأريين الهنـود وحياتهم البدوية ، وآراءهم البسيطة فى الله وفى الكون والإنسان ، والسـفر قسـمان ، أولهما أدعية وصلوات وتراتيل شعرية ، والآخـر يشـتمل علـى تعـاليم تتعلـق بالعبـادات والواجبـات الدينيـة ،والثانيـة : " يـاجورا فيدا Yajur Veda " ، الفيدا الهوائيـة أو المنسـوبة إلـى الهـواء ، وتضـم مجموعتيـن تدعـى إحداهمـا بالياجورا فيـدا البيضـاء ، والأخرى بالياجورا فيدا السوداء ، وهذا السفر خاص بمعرفة الصيغ الخاصـة بـالقرابين ، وهـو يصـور الحيـاة المتطـورة للآرييـن ، بعـد نضوجهـم الفكـرى ، وبعـد أن حدثـت تغييرات شتى فى حياتهم البسيطة (٢١) .

والمجموعـة الثالثـة " سـاما فيدا Sama Veda " ومعناهــا الفيـدا الشمسـة أى المنسوبة إلى الشمس ، وهى أيضا قسمان ، أحدهما مزامير دينية يتغنى بها فى بعض المناسبات (منـترا) ، ويشـتمل الآخـر علـى تعـاليم متعلقـة بالعبـاد والواجبـات الدينيـة براهمانا ، وقد ألفت هذه المجموعة لأداء المراسيم الدينية ، وفيهـا نجـد أغـانى كثـيرة تؤدى بنغمات مختلفة ، كذلك نجد فيها إشارات لأهمية الرقـص ، والمجموعـة الرابعـة "

اثارا فيدا Athara Veda " ۰ وربما جاءت التسمية نسبة إلى حكيم من حكماء الهند يدعى " أثـارا " ، وهـى أيضـا قسمان ، الأول يحتـوى علـى أوراد وأدعيـة للاسـتغفار والرقى ضد السحر والأرواح الشريرة المدمرة والخبيثة (تنترا) ، ويشتمل الآخـر علـى طائفة من شرائع الديانة البرهمية (براهمانا) ۰

ولعل أهم ما أضافه الاريون إلى الفيدا ذكريات المعاناة الطويلة ، خلال ترحل لا يتوقف ، وقتال لا ينتهى ، وصراع مع الموت والحياة ، ومع الأحياء والأموات ، على السواء ، بل هو صراع مع الأرواح والأشباح ، ومع النور والظلام ، ثم هو صراع بين الإخوة فى الأرض الجديدة (شمالى الهند) ۰ ولعل هذا الصراع الأخوى كان عامل صهر للأخلاط والأوشاب الإنسانية التى لحقت بهذه القوافل المهاجرة لتصنع منها الكيان القادر على السيطرة فى أرض الاستقرار ، ولتساعد على امتزاج الفكر الحضارى بترانيم الغزاة فى تراث إنسانى طبعه الزمن بطابع القداسة ، بالرغم من غلبة الأسطورة ، وانبساط الخيال ، ودغدغة المشاعر الدنيا (٢٢) ۰

وكان المقصود بالفيدا أن تستظهر ، وكانت التلاوة من الذاكرة فى الأصل ، إجراء دينيا ، ونحن نتحدث اليوم عن (الحفظ عن ظهر قلب) ، وليس عن ذهن أو عقل ، ولم يعلم أى طفل قط كيف يقرأ صلواته ۰ وهذا الاستظهار كان بالغ الأهمية لدرجة أن الفيدا لابد أنها قد تنوقلت بالفم (ويتوقف الحفظ عن ظهر قلب على ممارسة شفوية) ، حتى أنها لم تسجل على الورق إلى أن مضى وقت طويل بعد أن صارت الكتابة واسعة الانتشار فى الهند ۰ ولما كان هذا النسخ من المحتمل أن يكون قد حدث فى وقت متأخر يرجع إلى القرن التاسع ق۰م فإنه يمكننا أن نحكم إلى أى مدى اعتمد الفكر الهندى القديم على ذاكرة شعبية ۰ لقد أشار بعض النقاد إلى أن هذا الاعتماد الطويل على الرواية الشفهية يجعل من العبث الادعاء بأن الفيدا ، التى كان من المفروض أنها انتقلت إلى الإنسان من الإله ، قد بقيت بدون تعديل منذ عهد غرق فى القدم (٢٣) ۰

ومن الأمثلة التى تبين لنا التوجه التربوى الأخلاقى لأسفار الفيدا ، قصيدة عبارة عن حوار بيين الأبوين الأولين للبشر ، هذين التوأمين من أخ وأخته ، " ياما " و " يامى " ، فياما تبذل جهدا مستميدتا بغية الإيقاع بياما كى يضاجعها جنسيا ، مغرية له بأن فى

هذا الاتصال الجنسى مصلحة مؤكدة من حيث التواصل السلالى البشرى ، لكن ياما لا يستجيب على أساس أن الوازع الأخلاقى يقف حائلا بينه وبين مثل هذا السلوك ، إذ كانت القواعد الأخلاقية تحرم الاتصال الجنسى بين أفراد الأسرة الواحدة ، ولكن القصيدة مع الأسف لا تكتمل (٢٤) ٠

ونود أن نلفت النظر إلى أن هذا الحس الأخلاقى العالى الذى نلمسه فى الفكر الهندى إنما هو نتيجة طبيعية لهذا التوجه والاهتمام الدينى الواضح عندهم ، على الرغم من أن هذا التوجه لا ينبع من دين سماوى وإنما من دين وضعى ، وهذا ربما يشير إلى أن الفطرة الإنسانية متشوفة بطبيعتها ، عندما تصفو ، إلى التدين القائم على الأخلاق المستقيمة ، وحتى يتبين لنا هذا التوجه الدينى فلنطالع معا جزءا من قصيدة دينية هى " ترنيمة الخلق " ، حيث تفوح منها رائحة التقى والورع ، والإيمان (٢٥) :

لم يكن فى الوجود موجود ولا عدم ، فتلك السماء الوضاءة
لم تكن هناك ، كلا ولا كانت بردة السماء منشورة فى الأعالى ،
فماذا كان لكل شىء غطاء ؟ ماذا كان موئلا ؟ ماذا كان مخبأ ؟
أكانت هى المياه بهوتها التى ليس لها قرار ؟
ولم يكن ثمة موت ، ومع ذلك فلم يكن هناك ما يوصف بالخلود ٠
ولم يكن فاصل بين النهار والليل
و " الواحد الأحد " لم يكن هناك سواه
ولم يوجد سواه منذ ذلك الحيز حتى اليوم ٠٠٠٠

اليوبانشادات The Upanishads :

ويرى البعض أن أسفار اليوبانشاد هى أقدم أثر فلسفى ونفسى توافر لشعب من الشعوب ، ذلك أن القارىء لها يمكن أن يلمس كيف أنها تعكس جهدا يتميز بالكثير من الدقة قام به إنسان على قدر كبير من الحرص على الدأب ، هذه الدقة وهذا الدأب إنما هما سعيا لفهم العقل وفهم العالم والعلاقة التى بينهما (٢٦) ٠

والتحليل اللغوى للكلمة يظهر أنها تتكون من جزئين أولهما " يوبا " والتى تعنى " بالقرب " ، وثانيهما " شاد " ، والتى تعنى " يجلس " ، تعبيرا عن أن هذه الأسفار هى محاورات بين معلم وتلاميذه ، فهى إذن دروس تعليمية ، تدور حول مسائل الحياة والكون والإنسان ، المحاور الأساسية للفكر الإنسانى ، والتى على ضوئها يسير ويعمل ويتعامل مع غيره من البشر ومع عناصر الطبيعة التى تحيط به .

والأسفار تبلغ مائة وثمان محاورة ، جرت بين المعلم وتلاميذه ، ليست من تأليف شخص واحد وإنما عدد من رجال الدين والحكماء ، لا نعرف عنهم شيئا مع الأسف الشديد . ومن الغلو أن نقول أنها فى جملتها تكون مذهبا فلسفيا متسق الأجزاء ، وإنما هى جماع نظرات فلسفية ودينية .

ونجد فى أحد أسفار اليوبانشاد " سفر ميتريى " تلك النزعة الحادة فى اتجاه تربية تقوم على التقشف والزهد ، فهذا ملك ترك ملكه وراح يجوب أنحاء غابة زاهدا متقشفا عساه أن يصل إلى المعنى الحقيقى للروح وللحياة ، حتى إذا صادف حكيما له علم بالروح سأله أن يعلمه مما يعلم عن حقيقتها ، وألح عليه فى ذلك ، فإذا بالحكيم يقول له (٢٧) :

" سيدى ، ما غناء إشباع الرغبات فى هذا الجسد النتن المتحلل ، الذى يتألف من عظم وجلد وعضل ونخاع ولحم ومنى ودم ومخاط ودموع ورشح أنفى وبراز وبول وفساء وصفراء وبلغم ؟ ما غناء إشباع الرغبات فى هذا الجسد الذى تملؤه الشهوة والغضب والجشع والوهم والخوف واليأس والحسد والنفور مما ينبغى الرغبة فيه والإقبال على ما يجب النفور منه ، والجوع والظمأ والعقم والموت والمرض والحزن وما إليها ؟ وكذلك نرى هذا العالم كله يتحلل بالفساد كما تتحلل هذه الحشرات الضئيلة وهذا البعوض وهذه الحشائش وهذه الأشجار التى تنمو ثم تذوى ... وإنى لأذكر من كوارث العالم جفاف المحيطات الكبرى وسقوط قمم الجبال وانحراف النجم القطبى رغم ثباته .. وطغيان البحر على الأرض ... فى هذا الضرب من تعاقب أوجه الوجود ، ما غناء إشباع الرغبات ، ما دام بعد إشباع الإنسان لها سيعود إلى هذه الأرض من جديد مرة بعد مرة ؟ "

وحرص المعلمون من حكماء اليوبانشاد على أن يعلموا تلاميذهم عدم الاعتماد على " العقل " اعتمادا كليا من أجل فهم كل ما يحط بنا من مظاهر الكون والناس والإنسان ، إيمانا منهم بأن قدرة هذا العقل محدودة قياسا إلى اتساع عالم الحقيقة التى هى وراء الأشياء ، وربما نستطيع أن نعتمد على العقل ونثق بما يصل إليه من أحكام لو استخدمناه فى هذه الأشياء البسيطة المحسوسة من أجل فهمها وإدراك العلاقات بينها، لكنه يعجز عن أن يتجاوزها ليصل إلى الحقيقة الكلية المكونة لسر الكون والحياة ، فهذه لها سبيل آخر ، هو أشبه بهذا الذى يقول به الصوفية وبعض الفلاسفة المحدثين مثل " برجسون " ، هذا السبيل هو ما يمكن تسميته " بالإدراك المباشر " ، أو ما كان يسميه أستاذ الفلسفة الراحل " د. عثمان أمين " " بالجوانية " ، وكأنها معرفة " لدنية " .. إشراق بالمعرفة يفيض من الحقيقة الكلية نفسها على الإنسان السالك للطريق المستقيم المتجه إلى الاتصال المباشر .

هل ابتعدنا عن التربية وحلقنا فى أجواء الفلسفة التجريدية ؟ كلا ، فالطريق إلى المعرفة المشار إليها يحتاج إلى دربة واعتياد .. إنه طريق سلوك نسعى فيه إلى التطهر من أدران الشهوات والرغبات المادية وصور القلق والتردد .. طريق يتطلب الصوم الطويل حتى تخفت أصوات الحس ، وتعلو أصوات الروح ، فتتجلى حقيقة الأشياء والأمور بشىء من " البصيرة " و " الحكمة " الصافية .. ومرة أخرى ، إنه نفس الطريق الصوفى المعروف .

والكثير من اهتمام اليوبانشاد هو فى تتبع مراحل الجدل ، وبالمثل ، فإنه من المثير أن نلاحظ التواضع الفكرى لكل من المعلم والتلميذ . إن ما يدعون أنهم بلغوه ليس تطهيرا أو إنقاذا ، بل معرفة الطريق إلى هذه الأمور . لقد نادى بعض العلماء بأنه " ليس من أجل النظم التى تشيدها أو من أجل الحقائق التى يمكن القول بأنها اكتشفتها أنه لابد من تقدير هذه الكتب المقدسة تقديرا عاليا ، بل تقديرها الحقيقى ، من أجل البساطة والجدية التى تعالج بها المشاكل الكبرى " . مثل هذه المعالجة يجب أن يوصى بها بكل تأكيد فى مجال المفاضلة عن الجدل المجدب ، الذى كثيرا ما تكون المناقشات الفلسفية مقترنة به ، خاصة فى الحياة الأكاديمية (٢٨) .

ولدخول فرد ما جماعة دينية لابد له من المرور بسلسلة من الطقوس ، تسمى " سمساكارا Samaskara ، التى تعتبر بصورة ما شكلا من أشكال التربية الدينية ، وتتم ثلاثة من هذه الطقوس قبل الولادة لتشجيع الحمل ، وإنجاب طفل ذكر ، وضمان صحة الجنين ، وفيما بين الاحتفال بمولد الطفل والاحتفال بتسميته ، تراعى الأم والطفل طقوسا تستمر لمدة عشرة أيام ، وتسمى طقوس النجاسة ، والمراحل الأخرى من تطور الطفل التى تتميز بها " السمسكارا " ، هى خرم الأذن لأول مرة ، واللحظة التى يخرج فيها الطفل من البيت ليرى الشمس لأول مرة ، وكذلك المرة الأولى التى يتناول فيها طعاما جافا ، وإذا كان ذكرا فهى المرة الأولى التى يحلق فيها شعر رأسه فيما عدا خصلة من الشعر فى قمة الرأس يتركها طوال حياته (٢٩)٠

ويعد " الترسيم " الخطوة التالية فى " السمسكارا " ، وهو يتم عادة عندما يكون الطفل بين سن الثامنة والثانية عشر ، ولب الاحتفال هو أن يرتدى المرشح زى الناسك ويمسك فى يده صولجانا على خيط مقدس يوضع على كتفه اليسرى ويتدلى من ذراعه الأيمن ، ثم يتلو الكاهن الرسمى من " جيترى – منترا Gayatri- Mentra " ، وهى أبيات من (الريج فيدا) ، يتلوها الهندوس – وهم الطبقة العليا من المجتمع – فى جميع طقوسهم :

" فلنفكر فى روعة وجلال
الإله سافترى
حتى يلهم عقولنا "

وعلى العضو المرشح ، فى هذه الحالة أن يستجدى الصدقات ، وأن يضع نفسه تحت وصاية براهمى متفقه فى الدين ليصبح معلمه الروحى " Guru " فيعلمه ويهذبه بالكتب المقدسة ، لا سيما الفيدا ، وعلى التلميذ أن يظهر لمعلمه أقصى درجات الاحترام والخشوع ، بل أعظم مما يظهره لوالديه ، لأنه إذا كان الأب والأم يمنحان الحياة ، فإن المعلم ، من خلال معرفته الدينية ، يهب الخلود (٣٠) ٠

وعلى الطالب أن يظل أعزبا تماما ، وأن يحترس باستمرار من السقوط فى الدنس ، أى فى تدنيس الطقوس ، وأن يخضع نفسه لكل أوامر المعلم أثناء متابعته المقرر

الدراسى الذى قد يستغرق عند البرهمى اثنتى عشرة سنة أو أكثر . وعلامة انتهائه الاغتسال طبقا للشعائر .

والسلوك الإنسانى يفترق عن غيره من أنواع السلوك لدى سائر الكائنات الحية الأخرى ، إنه سلوك " هادف " ، والسلوك الهادف ، سلوك يختلف عن السلوك الذى تسيره الدوافع الفطرية ، فهو سلوك متصور بالعقل والتفكير ، ويخطط له ، والسير على طريقه يقتضى جهادا ونضالا ومرونة وقدرة على المواصلة والاستمرار وتغيير المسار عند الاقتضاء ، ومن هنا تأتى عناية التربية الهندية ، وفقا للفكر الفلسفى الهندى بقضية الأهداف الرنيسية للحياة ، والتى أطلقوا عليها مصطلح " بوروشارثا Purushartha " (٣١) .

وهذه الأهداف تنقسم إلى أربعة أهداف تشكل فى مجموعها صورة مطابقة إلى حد كبير المقومات الأربع للحياة كما يجب أن تكون ، وهى تستجيب استجابة ذكية لمكونات الإنسان والتى لا تقتصر على الأجزاء العضوية وحدها أو العنصر الروحى وحده ، وإنما هى بدورها تمثل تكاملا أساسيا لأية حياة مستقيمة ، ولا سلوك فاضل بغير هذا التكامل ، ويتبين لنا هذا من خلال تأمل متعمق للأهداف الأربعة :

الأول هو العيش الفاضل أو الورع " ذارما Dharma " ، وبالتالى فالمدار هنا هو حول القواعد الواجب اتباعها فى علاقاتنا بالآخرين .

الثانى ، هو وسائل الحياة " أرثا Artha " وتعنى بمجموعة القواعد المفروض أن نتبعها فى تعاملنا مع أشكال وصور الثروة المادية .

الثالث ، هو المتعة " كاما Kama " ، والمدار فيه ، مجموعة من القواعد التى تنظم التعامل مع مصادر وصور واشكال المتعة والملذات المختلفة .

الرابع ، هو تحرير النفس " موكشا Moksha " ، وهو يدور حول عدد من القواعد الواجب الالتزام بها إذا أردنا تحرير ذاتنا أو تحقيقها (٣٢) .

اليـــــوجـــا :

المعنى الحرفى ل " اليوجا " هو النير ، وبالتالى فإنها تهدف إلى أن يخضع الإنسان لنظام صارم من الزهد والتقشف وشظف العيش والقدرة على تحمل الالام ، حتى تتطهر

الروح من أدران المادة ، ذلك أن المادة مصدر كل المفاسد والشرور والانحرافات ، ولا استطاعة لإنسان أن يلتزم استقامة الطريق ، إلا إذا قهر هذه المادة وأصبح سيدا لها بدلا من أن تكون هى سيدته المتحكمة فى تفكيره وسلوكه وتعاملاته .

هى إذن طريقة فى التربية الأخلاقية بالدرجة الأولى ، تزرع فى المريد الانتباه ، والتزاوج مع الروح ، وتدفعه إلى البعد عن عمل الشر فى جميع صفاته ، والتمسك بالفضيلة فى جميع مراميها ، وهى تحرم تدريبات التنفس العميق والتأمل قبل الالتزام بأخلاقيات الإنسان المحترمة ، لأن هذه التدريبات نوع من الالتزام كالصلاة ، وهى ترفض القسوة والعنف فى المعاملات ، وتحرم السرقة فى جميع صفاتها ، والرشوة والاختلاس والنصب ، والتحايل ، وإخفاء الأشياء المسروقة ، والحسد والتباغض وسرعة الغضب والحنق ، والاستغلال فى شتى صوره والتلاعب فى الكيل والميزان ، والغش التجارى فى شتى صوره ، والتغالى فى الأرباح . وهى تعلم الزهد فى ملذات النفس ، ورغباتها الملحة ، وأطماعها ، إلى ما تجمعه قوانين الأخلاقيات ، شأنها فى ذلك شأن التصوف (٣٣) .

واليوجا ، باعتبارها طريقة لتربية الإنسان ليحيا بنظام معين متميز ، ترجع فى أصولها التاريخية إلى ما يقرب من ألفين وخمسمائة عام . وهذه الطريقة كانت موجودة أيام " الفيدات " و " اليوبانشاد " ، وإن كانت فى صور متفرقة ، ومضى بعد ذلك قرنان (حوالى ١٥٠ ق.م) وعندئذ جمع " باتنجالى " أجزاء المذهب من أقوال وأفعال فى كتابه المشهور " قواعد اليوجا " (٣٤) .

وإذا كانت اليوجا تستهدف تحقيق أمل الخلاص من الخطايا والتطهر الكامل ، فإن هذا لا يتحقق دفعة واحدة ، وبمجرد الرغبة والنية ، وإنما طريقه طويل ، شاق ، مجهد ، يمر عبر مراحل متعددة تتلخص فى المراحل التالية (٣٥) :

١ - " ياما " أى موت الشهوة ، بمعنى أن يمتنع الإنسان عن السعى وراء مصالحه الشخصية الدنيوية ، وعلى العكس من ذلك ، يحمل الكثير من رغبات وأمنيات بأن يفيض الخير على غيره من بنى البشر ، فهو هنا يسعى لإماتة الأنانية ، وتعزيز الغيرية فيشيع الخير بين الأرجاء .

٢ – " نياما " ، الالتزام الجاد ، الدقيق ببعض القواعد الأولية التى من شأنها أن تجعل سالك هذا الطريق نظيفا ، قانعا ، متطهرا ، دارسا ، تقيا .

٣ – " أسانا " وهى تعنى اتخاذ الجسد وضعا معينا سعيا لمحاولة إيقاف كل إحساس ، وهذا ما نراه كثيرا فى الصور ، أو الصور الكاريكاتورية التى تحاول أن تتخذ من اليوجا مادة وكأنها أمر شاذ وغريب !

٤ – " براناياما " ، أى تنظيم التنفس ، والمقصود من هذه الرياضة أن تجعل الممارس لا يفكر فى أى أمر آخر غير تفكيره فى عملية التنفس ، وبالتالى التخلص من كثير من الشواغل ، فضلا عن استهدافها تعويد المريد أن يعيش على أقل قدر ممكن من الهواء ، حتى ليمكنه أن يدفن نفسه فى التراب فترة من غير أن يختنق !!

٥ – " براتياكارا " ، أى التجريد ، حيث يسيطر العقل على مختلف الحواس ، وبالتالى يباعد الإنسان بين نفسه وبين كل المحسات .

٦ – " ذرانا " أو التركيز ، فها هنا يملأ السالك لليوجا عقله وحواسه بفكرة واحدة أو موضوع واحد وكأنه قد امتلك عليه كل شىء ، ولا يفكر فى أمر غيره ، اعتقادا بأن هذه الطريقة تدرب الإنسان على أن يحرر نفسه من كل إحساس وكل تفكير وكل شهوة أنانية (٣٦) .

٧ – " ذيانا " أو التأمل ، وهنا يكون المريد وكأنه يمر بحالة تنويم مغناطيسى ، ويذهب " باتانجالى " إلى أن هذا يمكن أن يحدث إذا حرص المريد على تكرار المقطع المقدس " أوم " ، فمن هذه الخطوة يمكن له أن ينتقل إلى " سدرة المنتهى " ، أى ذروة الطريق وغايته .

٨ – " ساماذى " أو تأمل الغيبوبة ، ففى هذه المرحلة ينمحى من العقل كل تفكير ، وعندما يتم تفريغ العقل من محتواه الفكرى ، يفقد الإنسان شعوره بالذات ، لأنه يكون قد وصل إلى مرحلة الفناء فى الكائن الأسمى الأعلى ، ومن العسير وصف هذه المرحلة لأحد ، فهى لا تعرف إلا بالممارسة وسلوك نفس الطريق .

التربيــة البوذيــة :

فى العام ٥٦٣ ق.م ، ولد " جوتاما بوذا Gotama Buddha " ، فى سفح جبال الهملايا ، على حدود أوذ Oudh ونيبال ، وإليه تنسب البوذية (٣٧). وقد تركت حياة الرجل وشخصيته انطباعا على شعوب جنوب وشرق آسيا بدرجة لم يصل

إليها أحد سواء من حيث عمق الأثر أو من حيث الاستمرارية . كان واحدا من كبار المجددين للفكر ، الذى ظلت تحيط بحياته الأسطورة والشعر ، حتى لقد بدا أمام كثيرين من أتباعه وكأنه لم يكن أحد أفراد بنى البشر الفانين ! ولم تقم هذه الشخصية بالوعظ والإرشاد فحسب ، بل تميزت بعدد من الصفات النادرة فى اجتماعها فى شخصية واحدة ، وفى صدقها واتساقها من حيث القول والفعل .

وكانت وسيلة بوذا فى نشر تعاليمه - شأنه فى ذلك شأن سائر المعلمين فى عصره - هى المحاورة والمحاضرة وضرب المثل ، ولما لم يدر بخلده قط - كما لم يدر بخلد سقراط - أن يدون مذهبه ، فقد لخصه فى عبارات مركزة ، أريد بها أن يسهل وعيها على الذاكرة ، وهذه المحادثات على الصورة التى احتفظ لنا بها الرواة من أتباعه ، تصور تصويرا لاشعوريا أول شخصية واضحة الحدود والمعالم فى التاريخ الهندى ، رجل قوى الإرادة ، صادق الرواية ، مزهو بنفسه ، وديع المعاملة ، رقيق الكلام ، محسن إحسانا لا ينتهى عند حد معلوم (٣٨).

ووصف بوذا بأنه كان يدير ظهره لغلظة المعاملة ، ويمتلىء قلبه بالرحمة ، فهو رحيم شفوق بكل كائن تدب فيه الحياة ، وحرص حرصا واضحا على أن يترفع عن النميمية ، كان يود أن يرد الحسنة ، والكراهية بالحب ، وإذا أسىء إليه فى النقاش أو أسىء التفاهم بينه وبين من يحاوره ، آثر الصمت : " إذا أساء إلى إنسان عن حمق ، فسأرد عليه بوقاية من حبى إياه حبا مخلصا ، وكلما زادنى شرا ، زدته خيرا " ، فإذا جاء أحمق وأهانه ، استمع بوذا وهو صامت ، حتى إذا فرغ الرجل من حديثه ، سأله بوذا : " إذا رفض إنسان أن يقبل منحة تقدم إليه ، فمن يكون صاحبها ؟ " ، فيجيبه الرجل : " إن صاحبها عندئذ هو من قدمها " ، فيقول بوذا له : " إنى أرفض يا بنى قبول إهانتك ، وألتمس منك أن تحفظها لنفسك " (٣٩) .

وتفيد الروايات التى قبلها الناس ، على نطاق واسع ، فيما يتعلق بحياة بوذا التاريخى ، جوتاما ، أنه تلقى دفعة فورية باتجاه التأمل والتركيز على مشكلة المعاناة من خلال لقاءات درامية مع المرض والشيخوخة والموت والزهد . وكان أبوه ، وهو حاكم إمارة مزدهرة ، قد قيل له إنه إذا ما عرف ابنه شرور العالم فسوف يتخلى عن

المملكة ، ويصبح زاهدا ومعلما عظيما للبشر ۰ وقد عقد الأب ، الذى لم يكن يرغب فى فقدان ابنه على هذا النحو ، العزم على القيام بكل شىء لإبعاده عن العالم القاسى ۰ وبناء على هذا فقد قام الملك بإمداده بكل الثروة والمباهج ، التى يمكن للمرء أن يرغب فى الحصول عليها من الحياة - القصور ، الخادمات الشابات الجميلات ، القائمات بالترفيه عنه ، زوجة جميلة ، حتى يتعود على هذا النمط من نعيم الحياة وترفها فلا يستطيع عنه فراقا ، وذلك لحمايته من التعرض لمعاناة العالم ، وصمم الأب على أن جوتاما ينبغى أن يظل بعيدا وجاهلا بالأحزان التى تحيق بالبشر (٤٠) ۰

لكن الإبن الأمير كان يتوق إلى أن يرى العالم على حقيقته ويختبر ما فيه ، فاستأذن أباه فى أن يتريض ، وبينما هو سائرا فى عربة ، شاهد على الطريق رجلا هرما ، رسمت الكآبة على جهه أثر الحزن وبلاء الأيام ، فسأل الأمير سائقه : من يكون هذا الرجل ؟ وقد اشتعل رأسه شيبا ، وتجعدت تقاسيم وجهه وغارت عيناه وانحطت قواه حتى أنه لا يقوى على النهوض ۰

وارتبك السائق ولم يستطع إلا أن يجيب بالحقيقة ، وهى أن ما شاهده الأمير إن هو إلا علامات الشيخوخة وبلوغ أرذل العمر ، على أنه كان فى مطلع الشباب حسن القوام ، قوى البنية ، حديد النظر ۰ وأما الآن ، فقد أنهكته هموم الحياة ، وذهبت السنون بجماله وطراوته ۰وقد تأثر الأمير لسماعه هذه الإجابة ، إذ نبهته إلى أن لا فرح ولا سرور ولا طمأنينة تدوم بتقدم السن ، فكل شىء زائل (٤١)۰

وواصل الأمير مسيرته ، فإذا بمريض ملقى على قارعة الطريق يئن ويتوجع ، فسأل سائقه : ما خبره ؟ قال : إنه مريض لأن عناصر جسمه الأربعة قد اختل نظامها ، ولذلك هو مريض يتألم ، وكلنا عرضة لذلك ، فلا فرق بين غنى وفقير ، حكيم وجاهل ، وإنه ليصيب ذلك كل حى على السواء ! وبالطبع فقد آلمت الإجابة الأمير ، وإذ لاحظ السائق ذلك أخذ يستحث الخيل على مزيد من السرعة حتى ينقذ الأمير من هذه المناظر البشرية المؤلمة ۰

لكنهما ما لبثا أن شاهدا منظرا آخر يحمل صورة أخرى من صور الآلام البشرية التى تطفىء البسمة وتدفن السرور بين الجوانح .. رأى الأمير أربعة أشخاص يحملون جثة ، فسأل السائق : ما يحمل هؤلاء ؟ وما هذه الأكاليل من الزهور ، والناس من ورائهم حزانى مطرقين ؟ فيجيب السائق : إن رجلا قد مات ، قد تقطعت أنفاسه ، فهمد جسمه ، وذهبت عنه الحياة فسكنت أفكاره ، وهؤلاء ذووه ومحبوه يشيعونه إلى المرقد الأخير !

اضطرب الأمير اضطرابا واضحا ، وسأل : أهو وحده يموت أم أحياء العالم يلقون نفس المصير ؟ فأجاب السائق بقلب منكسر : كل حى فى العالم مصيره إلى الفناء . كل من بدأ الحياة عليه أن ينهيها ، فلا مفر من الموت ! ويسأل الأمير بصوت حزين : إذن كل ما فى العالم باطل ، فالجسم مصيره إلى التراب ، فلا استمرار للحياة !

وعندما وصل الأمير إلى قصره ، وجد زوجته فى انتظاره فى لهفة وحب واشتياق ، فبادرته بقولها : طوبى للأب الذى جاء بك ، ومباركة الأم التى ألقمتك ثديها ، ومغبوطة المرأة التى صرت لها زوجا ، فيكون رد الأمير عليها : طوبى للذين عرفوا طريق الخلاص وسلامة الضمير . ولما استدرجته ليحكى لها عما يحزنه كان رده : لقد رأيت أثر التغير فى كل مكان ، فتكاثرت هموم قلبى ، وأحزننى الأحياء . إنهم يولدون وينمون ويمرضون وأخيرا يموتون ، فلا استمرار للحياة ، فكل ما فى العالم تنغيص لها وتكدير (٤٢) .

وتبدأ موعظة " بوذا " بعرض للإفراطين اللذين يجب تجنبهما ، فالإفراط الأول الواضح هو الإفراط فى المتعة الجسدية ، ولا شىء يدفع بالعجلة إلى الوراء أكثر من الانغماس فيها ، لأن الاستمتاع لا يزيد من سخطنا على كل شىء آخر فحسب ، بل يمتد السخط عليه ذاته ، فنحن فى مواجهتنا لهذا الفراغ نحتاج إلى مزيد من النوع نفسه لملئه ، حتى يدفعنا هذا إلى الاشتراك فى عملية مماثلة لاستعارة أنفسنا وفاء لدين . وأما الإفراط الثانى الذى ينبغى تجنبه فهو الإفراط فى إذلال النفس Mortification ، وطبقا لبوذا ، فإن هذا الإفراط لم يكن أكثر فائدة من الأول ، إذ أنه لا ينجم عنه فحسب

زيادة اضطراب بل يؤدى أيضا من الناحية المنطقية إلى الفناء قبل اكتساب أية ميزة حقيقية (٤٣) ٠

وكانت طريقته فى التعليم فريدة ، لا يماثلها نظير ، ولو أنها مدينة بشيء " للجوالين " أو السوفسطائيين المتنقلين الذين عاصروه فى بلده ، فكان ينتقل من بلد إلى بلد ، وفى صحبته تلاميذه المقربون ، وفى آثاره ما يقرب من ألف ومائتين من أتباعه المخلصين ٠ ولم يكن يهتم أبدا لغده ، فكان يكتفى بالزاد يقدمه له أحد المعجبين من سكان البلد الذى يحل فيه ، ولقد وصمه ذات يوم أتباعه بالعار لأنه أكل فى منزل امرأة فاجرة ٠ كانت طريقته دائما أن يقف السير عند مدخل قرية من القرى ، ويضرب خيامه فى حديقة أو غابة أو على ضفة نهر ، وكان يخصص ساعات العصر لتأملاته ، وساعات المساء للتعليم ٠

وكانت محادثاته تجرى فى صورة سقراطية من الأسئلة وضرب الأمثلة الخلقية والتلطف فى الحوار ، إذ كان يسوق تعاليمه فى عبارات مقتضبة يرمى بها إلى تركيز آرائه تركيزا يجعلها فى صورة من الإيجار والترتيب بحيث تقر الأذهان ، وأحب عباراته التعليمية إلى نفسه هى الحقائق السامية الأربع ، التى بسط فيها رأيه بأن الحياة ضرب من الألم ، وأن الألم يرجع إلى الشهوة ، وأن الحكمة أساسها قمع الشهوات جميعا (٤٤) :

١ – تلك أيها الرهبان – هى الحقيقة السامية عن الألم : الولادة مؤلمة ، والمرض مؤلم ، والشيخوخة مؤلمة ، والحزن والبكاء ، الخيبة واليأس مؤلم ٠

٢ – وتلك أيها الرهبان – هى الحقيقة السامية عن سبب الألم ، سببه الشهوة ، التى تؤدى إلى الولادة من جديد ، والشهوة التى تمازجها اللذة والانغماس فيها ، الشهوة التى تسعى وراء اللذائذ ، تتسقطها هنا وهناك شهوة العاطفة ، وشهوة الحياة وشهوة العدم ٠

٣ -- وتلك – أيها الرهبان – هى الحقيقة السامية عن وقف الألم : أن تجتث هذه الشهوة من أصولها ، فلا تبقى لها بقية فى نفوسنا ، السبيل هى الانقطاع والعزلة والخلاص وفكاك أنفسنا مما يشغلها من شئون العيش ٠

٤ – وتلك – أيها الرهبان – هى الحقيقة السامية عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم، والتى سبيلها ، سلوك الطريق النبيل ذى الثمانى شعب (٤٥) :

- سلامة الرأى (ساماديثى Samma Dithi) ٠
- سلامة النية (ساما سنكابا Samma Sankappa) الحكمة ٠
- سلامة القول (ساما فكا Samma Vaca) ٠
- سلامة الفعل (ساما كامنتا Samma Kammanta) السلوك ٠
- سلامة العيش (ساما أجيفا Samma Ajiva) ٠
- سلامة الجهد (ساما فاياما Samma Vayama) الانضباط الذهنى ٠
- سلامة الوعى أو الانتباه العقلى (ساما ساتى Samma Sati) ٠
- سلامة التركيز (ساما سماذى Samma Samudhi) ٠

فهذا هو الصلاح ، وهذه هى الحقيقة ، وهذا هو الدين ، والرجل المستنير ينشد هكذا(٤٦) :

لقد طال تجوالى لقد طال
وتقيد بسلسلة من الرغبات
وتعددت الولادات
وأنا أفتش عبثا وألذ بالباطل
متى تهيمن الطمأنينة على الإنسان
متى يتخلى عن مطامعه وأنانيته ؟
متى يجوز عنا الألم وننجو من الولادة ؟
لقد جاء وقت الراحة وأوجد لى موجد الذات بيتا مريحا هادئا ٠
فعلى أن أحطم قيود الخطيئة وأكسر جسر الآلام وأجوز بعقلى إلى النيرفانا
وهاأنذا وصلت إلى ما أتوق إليه ، وافرحتاه !

والوصف القديم للطريق هو أنه ذو ثلاث شعاب هى : الأخلاق ، والتأمل ، والحكمة ، وهى ليست ثلاثة مراحل متعاقبة يمر المرء بالواحدة منها تلو الأخرى وإنما هى شعاب أو دروب تسير عليها جميعا فى وقت واحد ، بيد أن للأخلاق أولوية خاصة ،

فبدون الجهد الجاد فى مراعاة المبادىء الأخلاقية لن تكون ثمة ممارسة فعالة ومؤثرة للتأمل (٤٧) .

ويعبر عن القواعد الأخلاقية الخمس الأساسية – بالنسبة للرهبان ولعامة الناس على حد سواء – فى صيغة تستخدم بانتظام فى العبادات الدينية ، أو يمكن ترجمتها على وجه التقريب كما يلى : " أتعهد بالإحجام عن إلحاق الأذى بالكائنات الحية ، وأن لا آخذ شيئا لم يعط لى (أى أمتنع عن السرقة) ، وبأن أمتنع عن الممارسات الجنسية اللا أخلاقية ، وعن الكذب وتناول الخمر والمخدرات التى تذهب العقل " .

وهناك درجة أكثر تقدما فى النظام الأخلاقى يتبعها البعض من عامة الناس ، وتعتمد على مراعاة ثلاثة مبادىء اجتماعية ، هى : أن أمتنع عن تناول الطعام بعد الظهر ، وأن أمتنع عن الرقص والغناء وألعاب التسلية ، وأن أمتنع عن استخدام أكاليل الزهور أو مستحضرات التجميل ، وأن لا أتزين بأى نوع من أنواع الزينة . وهذه الإضافات إلى قاعدة الحياة لعامة الناس ، يؤخذ بها فى الغالب أيام العطلات والأيام المقدسة كتعبير عن عمق الإيمان (٤٨) .

والجانب الرئيسى الثانى من الطريق الذى وضع بوذا معالمه هو التأمل ، فالسلوك الحق ينبغى أن يصحبه الفكر الحق أو المواقف الحقة ، والفكر والعمل معا مرتبطان بالوجود الحق لأن تنمية الفكر الحق أو المواقف الحقة (أو النصائح السديدة) – أى السليمة من الناحية الأخلاقية ، هى من أول أهداف التأمل والتأثير المتبادل بين الفكر والعمل موجود فى الوصف المفصل للحياة البوذية بوصفها طريقا ذا الثمان شعب التى سبق أن أشرنا إليها .

اللغـــة والكتابـــة :

إذا كانت اللغة هى أداة التواصل الأساسية ، فإن الهنود فى تاريخهم القديم كانوا يستخدمون فى العلم لغة لم يتيسر لها أن تحتل مكانة مهمة فى عملية التواصل بين الناس وتفاهمهم ، ومن هنا كانت السنسكريتية هى اللغة التى يتعامل بها العلماء وتدون بها الكتابات العلمية والأدبية والدينية ، مما جعلها لغة منعزلة تعيش على

صفحات الكتب ، ولا تتداول عبر الألسن ، مما دفع جماعات من الهنود أن يحوروا السنسكريتية إلى أشكال أخرى يستطيعون التعامل بها .

ولقد أخذت الهند منذ تاريخ عريق فى القدم تتعقب جذور الألفاظ وتاريخها وعلاقاتها وتركيبها ولم يظللها القرن الرابع قبل الميلاد حتى كانت قد اصطنعت لنفسها علم النحو ، وأنجبت من يجوز أن يكون أعظم النحاة جميعا ممن نعرف وهو " بانينى " ، وكانت دراسات بانينى ، وغيره هى الأسس التى قام عليها علم اللغات (٤٩) .

ومن الممكن القول أن عددا من المدن الكبرى فى الهند قد شهدت ظهور الكتابة حوالى الألف الثالثة ق.م ، لكنها كانت كتابة على قدر من التعقيد ، إذ تألفت من ٢٥٠ إشارة متنوعة تدون بها النصوص على حجر وخزف وألواح نحاس ، ومن المؤسف أن أحدا لم يستطع أن يفك رموز هذه المدونات . وعاشت هذه الكتابة عددا من القرون ، ولكن لوحظ بعد ذلك اختفاؤها فجأة من غير أن تترك آثارا على كتابات لاحقة لعهد اختفائها (٥٠) .

ويرجع تاريخ أقدم كتابة معروفة وصلتنا من الهند القديمة إلى القرن الثالث ق.م ، وهى المتمثلة فى مراسيم أمر الملك آشوى (٢٧٢-٢٣٦ ق.م) أن تنقش على الحجر ، وإن كان من المرجح أن حروف هذه الكتابة قد ظهرت فى فترة أسبق من هذا العهد .

ومن الملاحظات الغريبة أن الكتابة - فيما يبدو - لم تحتل المكانة التى ينبغى أن تكون لها فى تلك العهود القديمة ، الأمر الذى تختلف الحضارة الهندية فيه عن غيرها من الحضارات الشرقية القديمة ، فقد اعتمد الهنود فى تناقل وتعليم تراثهم العظيم ، من ملاحم وآداب وتعاليم وكتب مقدسة على المشافهة ، وكأنهم فى ذلك يماثلون عرب الجاهلية ، والقياس مع الفارق ، حيث لم يكن عرب الجاهلية أصحاب حضارة عظمى مثل ما كانت عليه الهند . ويبدو أن السبب الرئيسى فى عدم الاهتمام بتدوين النصوص المقدسة وغيرها يكمن فى تركيب المجتمع الهندى ، حيث أن الطبقة الفوقية (البراهمانا) كانت تعتبر أن من حقها هى فقط أن تعرف النصوص المقدسة وأن

تتعرف على الإنجازات العلمية والفنية . وهكذا فقد كان أفراد هذه الطبقة يتجنبون أن يدونوا معارفهم خشية أن تنتشر فى الطبقات الاجتماعية الأدنى . ولم يتغير الأمر إلا مع ظهور البوذية فى القرن السادس ق.م التى صاحبتها فكرة الديموقراطية المتواضعة ، أى نشر المعرفة التى تهدف إلى غرس الفكر الدينى بين جماهير الناس (٥١) .

ومن الأسباب الأخرى التى يمكن إضافتها إلى ما سبق فى تفسير ندرة الآثار المكتوبة التى وصلتنا من الحضارة الهندية ، المادة التى استخدموها فى الكتابة عليها ، ، إذ استخدموا أجزاء من بعض أنواع الشجر مما لا يستطيع أن يصمد للظروف المناخية مع توالى القرون ، ففى الجنوب استخدموا لحاء شجر النخيل ، وفى الشمال كانت المادة المستخدمة هى القشرة البيضاء لشجرة تسمى " البتولا " .

صور من التعليم :

قامت فى الهند قبل الميلاد بنحو ألف سنة تقريبا مجاميع برهمية علمية تدعى باريشاد وهى تقرب مما نسميه الان معاهد كلية ، وكان الباريشاد الواحد يضم ثلاثة من البراهمة ممن أتقنوا دراسة الفيدا . ولما تقدم الزمن ، صار الباريشاد يحوى أحد وعشرين من البراهمة المتضلعين فى الفلسفة والديانة والقانون ، فكان يذهب إلى هذه المعاهد كل من أراد أن يهب حياته للعلم بشرط أن يكون من أفراد حلقة العلم ، وهنالك كان يتعلم الفيدا بأجزائه وكل ما كان معلوما وقتئذ من القانون والفلك والفلسفة (٥٢).

وكان لدى الهنود مدارس حرة يديرها أفراد من (طبقة العلم) ويقومون بنفقاتها من عندهم . وكان التلاميذ يذهبون إليها للتعلم ويخدمون المعلمين بأجرة تعلمهم . ولم يتحتم على تلاميذ هذه المدارس أن يكونوا من طبقة البراهمة . وكان التلاميذ – عموما – يبدأون تعلم الكتابة على الرمل حتى إذا تقدموا بدأوا يكتبون على أوراق النخيل بقلم ذى سن حديدى ، ثم على ورق الشجر بالحبر (٥٣) .

واشتمل منهاج التعليم على الحساب والكتابة ، ولكن كان الهدف الأساسى فى هذا التعليم المغلف بالغلاف الدينى هو زرع الأخلاق القويمة ، ولذلك كان النظام صارما وإن لم يلجأوا إلى وسائل العقاب البدنى ، بل إلى الحرص الشديد على تكوين عادات السلوك

الصالح منذ الصغر . وبعد سن الثامنة كان يعهد بالتلميذ إلى ما يشبه (الشيخ) ، هو أحد رجال الدين ، ويصبح التلميذ جليسه يتلقى عنه النحو والفنون والصناعات والطب والمنطق والفلسفة . وكان للأستاذ على تلميذه حقوق ، فالتلميذ تابعه وخادمه ، يؤدى له الخدمات كلها ، ويبقى التلميذ مع أستاذه حتى سن العشرين من عمره ، ثم ينطلق إلى الدنيا على أساس قاعدة مؤداها أن التعليم يأتى ربعه من المعلم ، وربعه من الدراسة الخاصة ، وربعه من الزملاء ، وربعه من الحياة .

وكان من حق التلميذ عندما يبلغ السادسة عشر أن يترك الأستاذ لينتقل إلى إحدى الجامعات الكبرى ، وهذه كلها قاصرة على البراهمة ، ولكن سمح للطبقة التالية بدخولها ، وفيها يتعلم الطلبة العلوم والفلسفة والقانون والرياضيات والطب والشعر ، إلى جانب التعاليم والنصوص الدينية . ونظرا لأن الهند كانوا يرون ويعلمون لا من أجل الأمور العملية ولكن للمثاليات ، فقد تشبعت ثقافتهم بالفلسفة والدين ، ومست العلم والفن والتجارة مسا خفيفا (٥٤) .

وكان الطلاب الذين يساعدهم الحظ فى الدخول إلى إحدى الجامعات يتعلمون مجانا بما فى ذلك أيضا المسكن والغذاء ، لكنهم لقاء ذلك كانوا يخضعون لنظام أوشك أن يكون كنظام الأديرة . ولم يكن يسمح له بالتحدث إلى امرأة أو برؤية امرأة ، بل إن مجرد الرغبة فى النظر إلى امرأة ، كان يعد عندئذ خطيئة كبرى ، وإذا اقترف الطالب إثما جنسيا ، كان عليه أن يلبس جلد حمار مدة عام كامل ، وأن يجوب الآثم الطرقات ، يطلب الصدقات ، ويعلن عن خطيئته ، وكان الطلبة جميعا يطالبون كل صباح بالاستحمام فى أحواض السباحة العشرة الكبرى التابعة للجماعة ، ومدة الدراسة إثنا عشر عاما ، ويذكر أن بعض الطلبة كان يقيم بالجامعة ثلاثين عاما ، وبعضهم كان يقيم بها حتى الممات (٥٥) .

ولما كانت المرأة فى الهند ينظرون إليها باعتبارها غير كفأة لتهذيب أبنائها ، تعلم أولئك الأبناء فى الغالب فيما يسمونه المجتمع القروى ، وكان لهذه المجامع شأن كبير فى نظام الهند ، فهى التى كانت تعلم الأهالى مبادىء الدين ، وفصلت لهم فى قضاياهم ومنازعاتهم وعلمتهم كثيرا من قصص أجدادهم وسردت عليهم حكايات خرافية ونوادر

وأمثالا عديدة تحوى كثيرا من أخلاق الهنود وآدابهم وتظهر درجة رقى الفكر الهندى ، ومنها مجموعة النصائح التى وضعها الفيلسوف البرهمى " بيدبا " للملك " ديشليم " فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وجعلها على ألسن البهائم والطير . ولقد ظهرت هذه المجموعة مكتوبة بالهندية فى القرن الخامس بعد الميلاد . وفى القرن السادس أرسل كسرى أنو شروان ملك الفرس " برزويه " رأس أطباء فارس إلى الهند ليحصل على ذلك الكتاب ، فاستنسخه من خزانة الملك وعاد به إلى بلاد فارس . وهنالك ترجم إلى الفارسية ، ولقد ترجمه إلى العربية " عبد الله بن المقفع " فى زمن الخليفة المنصور العباسى وسماه كليلة ودمنة ، ومن العربية ترجم إلى اليونانية والتركية والعبرية والأسبانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية والألمانية (٥٦) .

وضم كتاب كليلة ودمنة مجموعة من الحكم التى تساق وكأنها مبادىء على قدر عال من الرقى يمكن أن يهتدى بها المربون فى عملهم ، معلمين كانوا أو آباء وأمهات ، من هذه الحكم :

- من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .
- إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء ، أما الثلاثة التى تطلب فالسعة فى الرزق والمنزلة فى الناس والزاد للآخرة .
- وأما الأربعة التى يحتاج إليها فى درك هذه الثلاثة ، فاكتساب المال من أحسن وجه يكون ، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه ثم استثماره ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضى الأهل والإخوان فيعود عليه نفعه فى الآخرة .
- إن الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديد والانحطاط منها هين كالحجر الثقيل رفعه من الأرض إلى العاتق عسر ، ووضعه إلى الأرض هين .
- رب صغير ضعيف قد بلغ بحيلته ودهائه ورايه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء .
- بعض الحيلة مهلكة للمحتال .
- خير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة ، وخير الأعمال أحمدها عاقبة ، وخير النساء الموافقة لبعلها ، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأفضل الملوك من لا يخالطه بطر ولا يستكبر عن قبول النصيحة ، وخير الأخلاق أعونها على الورع (٥٧) .

ومن المرجح أن الدولة تدخلت فى التعليم العالى ، ذلك أن بعض المؤرخين يشيرون إلى جامعة (لاندا) ، وهى أشهر الجامعات بالمعاهد البوذية العالية ، أنشئت بعد موت بوذا بزمن قصير ، وخصصت لها الدولة دخلا هو ما كان يجبى من مائة قرية ليصرف منها على شئون الجامعة . ويقال أنه كان يؤمها عشرة آلاف طالب ، وتحوى مائة قاعة للمحاضرات ، إلى جانب المكتبات الكثيرة الضخمة ، مساكن للطلبة ، ولها مراصد عالية تكاد تطاول السحاب ارتفاعا . وكان المستوى العلمى فيها عاليا جدا لدرجة أن الأجانب فى البلاد المجاورة ومن ذوى العلم كانوا لا يستطيعون مجاراة الطلبة فى اطلاعهم ومناقشاتهم ، فيعترفون لهم بالذكاء والثراء الدراسى ، حتى أن أحد علماء الصين ممن زاروا هذه الجامعة أعجب بها ، ومكث بها خمس سنين يناقش الطلبة ويجادلهم ويستمع إلى الأساتذة المهرة ، ويدلل على صعوبة الدراسة بها أن عدد الذين كانوا يرسبون فى الامتحانات أكثر من عدد الناجحين بالضعف (٥٨) .

ولما كان الدين هو لب الحياة الهندية ، وصميمها ، فإن العلوم التى كان شأنها أن تعاون الدين هى التى سبقت غيرها بالرعاية والنمو ، فالفلك قد نشأ من عبادة الأجرام السماوية ومشاهدة حركاتها لتحديد أيام الأعياد والقرابين . ونشأ النحو وعلم اللغة عن الرغبة الملحة بأن تكون كل صلاة وكل صيغة دينية صحيحة فى تركيبها ، وفى مخارج أصواتها على الرغم من أنها تقال أو تكتب بلغة ميتة ، فقد كان علماء الهند ، كما كانت الحال فى عصور كثيرة سابقة هم كهنتها ، بكل ما فى ذلك من خير ومن شر (٥٩) .

ومن المعروف أن ما يسمى خطأ بالأعداد (العربية) إنما هى هندية ، فالهنود هم الذين ورثوا العرب الأعداد برموز عشرة ، مما كان له أثره فى تطور علم الحساب .

وقد تحتم على كل من أراد أن يكون معلما أن يدرس جميع مواد المنهج المعترف به ، وأن يكون قد قام بجميع واجبات الطالب البرهمى ، وعليه ألا يعلم إلا الأطفال الذين تسمح بتعليمهم عادات البلاد .

وكانت طريقة التدريس شفهية ، فشحنوا ذاكرة الطفل بالمحفوظات لدرجة تفوق ما يمكن تصوره أحد من مربيى اليوم (٦٠) .

وكان الطفل الهندى يبدأ الاستظهار من صغره ، فيحفظ الحروف الأبجدية ، ويستظهر كذلك نحو عشرين صفحة من اللغة السنسكريتية دون أن يفهم كلمة منها ، ومن الحفظ يجىء الشرح . وكان الغرض من ذلك أن يستظهر التلميذ الكتب المقدسة بدون تحريف فيها ، ولكنه لا يستظهرها من كتاب بل من فم معلم ، فكان المعلم يجلس فى جهة مناسبة ، وإن كان له تلميذ واحد أجلسه على يمينه ، وأما إذا زاد عدد التلاميذ ، فلهم أن يجلسوا حيث أرادوا ، وعند بدء كل درس ، يقبل التلاميذ قدمى المعلم ثم يجلسون ، فيبدأ المعلم الدرس بأن ينطق كلمة واحدة أو كلمتين قصيرتين فيرددها التلميذ المجاور له ، ومنه إلى تاليه ، وهكذا ، ثم ينطق المعلم كلمتين آخريين فيرددها التلاميذ بالترتيب ، ويستمر الدرس على هذا المنوال حتى يحفظ التلاميذ سطرين أو ثلاثة سطور شفهيا ، ثم يأخذ التلاميذ فى تلاوة تلك السطور بصوت جهورى حتى ترسخ فى أذهانهم ولا ينسوها ، وبعد نهاية الدرس يقبل التلاميذ قدمى المعلم ثم ينصرفون (٦١) . ولما وجد الخط لديهم كان يعطى لكل تلميذ نسخة مكتوبة باليد ، ثم يطالعونها بصوت جهورى حتى يستظهروها دون أن يتعبوا أنفسهم فى فهم معناها .

وكان النظام فى مثل هذه المدارس لينا مشفوعا بالشفقة ، إلا فى أحوال استثنائية استعمل فيها شىء من القسوة ، فقد قال " مانو " فى قوانينه : " يجب أن يتعلم الأطفال دون أن يشعروا بأى شىء يؤلمهم أو ينفرهم من التعلم ، والمعلم الذى يعرف للفضيلة معنى ، يجب عليه أن يستعمل اللطف والكلام العذب عند التدريس ، فإذا ما أذنب تلميذ ، فللمعلم أن يعاقبه بالكلام القارص ويهدده بالضرب إن هو عاد إلى ارتكاب أى ذنب ، وإذا ما جنى جناية وقت الشتاء فللمعلم أن يعاقبه بصب الماء البارد فوق رأسه "(٦٢).

وكانت المدارس الخاصة بالأطفال فى ذلك الزمن عبارة عن مجتمعات فى الهواء الطلق تحت ظل الأشجار صيفا وتحت مظلات أو حواجز فى الشتاء أو وقت المطر ، وتعلم التلاميذ من الحساب المبادىء الأولية جدا . وكانوا يكتبون فى الرمل بعصى فى أول تعلمهم الكتابة ، ثم ارتقوا فصاروا يكتبون على سعف النخل بقطع من الحديد تشبه المسمار ، وبعد ذلك كتبوا بالحبر على أوراق أشجار مخصوصة ، وهذا الرقى فى الكتابة لم يصلوا إليه إلا قبل الإسلام بزمن يسير (٦٣) . وكان من عاداتهم المدرسية

أن يعلم التلميذ المتقدم تلميذا مبتدئا ، وكان التلاميذ يختبرون بعضهم فى استظهار القطع ، ولذلك يمكننا أن نسميها طريقة التبادل فى التعليم .

وكانت " النظافة " من أكثر مجالات التربية استئثارا بالاهتمام ، حتى أنها لتأتى فى المرتبة الثانية بعد العبادة . ولقد سن " مانو " تشريعا يستلزم تهذيب البدن ، ففى تعليماته مثلا : " يجب على البرهمى أن يستحم فى الصباح الباكر وأن يزين جسده وينظف أسنانه ، ويغسل عينيه ويعبد الآلهة " (٦٤) . والمدارس الأهلية تجعل أولى المواد فى برامجها آداب السلوك الطيب والنظافة الشخصية ، فعلى الهندى ذى المكانة المحترمة أن يغسل جسده كل يوم ، وإنه ليشعر تقززا إذا ما لبس الثوب - بغير غسل - أكثر من يوم واحد .

المربـــون :

لم يقتصر أمر التربية على من يقومون بواجب التعليم فى المدارس ، ولا على تلك المعاهد التى خصصت لإعداد بعض رجال الدين ، وإنما كان من الطبيعى أن يشكل البراهمة القوة الأكثر تأثيرا وانتشارا من حيث التربية العامة التى تنتظم جملة أبناء الشعب الهندى كبارا وصغارا ، وذلك بحكم ما كان الدين يشكله من مركزية ومحورية فى الحياة الهندية على وجه العموم .

ومن أجل أن يضفى البراهمة على أنفسهم هيبة وجلالا وتميزا عن سائر خلق الله ، وبالتالى يمكنهم هذا من ممارسة التأثير والتسيير للناس ، أشاعوا أسطورة تذهب إلى طائفة البراهمة خرجت من فم براهما Brahma ، كما خرجت طبقة المقاتلين من ذراعيه ، أما أصحاب الحرف فقد انحدرت من حقويه (أو خاصرته) ، والطائفة الخادمة من قدميه (٦٥) ، فالتمييز الطبقى " قدر " طبيعى " مكتوب " لا قبل لأحد بتغييره ، وإذا كان البراهمة يقفون على قمة هذا الهرم الطبقى ، وجب على الجميع أن يمتثلوا لهم ويطيعوهم ، ويصدقوا ما يقولون .

ولكى ندرك مدى التأثير لهذا التمييز الطبقى فى تشكيل الاتجاهات وغرس القيم ، علينا أن نقارنه بنظام مجتمعى آخر عرف بشدة التمييز الطبقى ، ألا وهو المجتمع

الأوربى فى العصور الوسطى ، لكن كان هناك فرق هام ، وهو أنه كان بإمكان الجميع الانتقال إلى الطبقة الدينية ، فالفارق الأعظم هو أن الدين هنا يتخذ موقفا موحدا بالنسبة لكل الناس ، فعلى الرغم من أن ابن الصانع اليدوى ينشأ صانعا يدويا ، وابن الفلاح ينشأ فلاحا ، والاختيار الحر تقيده ، فى الأعم الأغلب ، بعض الظروف القاهرة ، فإن العنصر الدينى يقف على علاقة واحدة مع الجميع ، ويضفى الدين على كل الناس قيمة مطلقة ، أما فى الهند فإن الوضع كان على العكس من ذلك تماما (٦٦) .

ولكل طائفة واجباتها وحقوقها الخاصة ، ومن ثم فالواجبات والحقوق ليست للإنسان بصفة عامة ولكنها تتعلق بطائفة معينة ، فإذا كنا نقول " الشجاعة فضيلة " ، فإن الهنود يقولون ، على العكس ، " الشجاعة هى فضيلة طبقة الكاشترية " ، فخاصية الإنسان بصفة عامة ، والواجب البشرى ، والشعور البشرى لا وجود له عندهم ، فنحن لا نجد سوى واجبات الطائفة الخاصة وكل شىء يتجمد ويتحجر فى هذه الفروق . وفوق هذا التحجر يسيطر المصير المتقلب المتغير ، فالأخلاق والكرامة البشرية مجهولة عندهم وتلعب الأهواء الشريرة دورها كاملا . وتهيم الروح فى عالم الأحلام ، وأعلى حالة هى حالة الفناء أو الانعدام (٦٧) .

وشهدت القرى الهندية كذلك طائفة من المربين ، تفردت بهم عن كثير من البلدان الأخرى ، فبسبب ازدهار القرى والأرياف ، دبت فيها الروح الثقافية والفكرية وتقدمت إلى أقصى الحدود بحيث قد لا نجد لها نظيرا ، فلقد ظهر فى القرى مفكرون وأدباء وشعراء بكثرة . كان هؤلاء ينتقلون من قرية إلى قرية ويتجولون فى ربوعها ينشرون مبادئهم وأفكارهم . وكان هؤلاء أكبر باعث على نشر الوعى والثقافة بين القرويين على وتيرة واحدة ، بحيث تنمحى الفروق الموجودة فيها ، ولم يتخذ هؤلاء مراكز فكرية لهم فى أية قرية لأن النظام القروى لم يعرف الوحدة القومية ولم تتكون له عاصمة بخلاف الحياة المدنية ، ولذلك اضطروا إلى ممارسة حياة التجول لنشر مبادئهم . وقد أصبحت لنظرة القرويين الهنود الفلسفية للحياة سمات هامة لهم وتكونت لهم من جراء ذلك مقدرة عظيمة على التحمل والصبر ، الأمر الذى أصبح موضع دهشة الناس (٦٨) .

وبسبب انتشار تعاليمهم بين أبناء القرى والأرياف اكتسب هؤلاء مقدرة على التحمل والصبر والصمود ٠ ومن المعروف أن طبيعة الهند الفياضة جعلت لهم – رغم كل خبراتها – متاعب شديدة وأخطارا بالغة مثل الفيضانات المتكررة والأمراض الوبائية المهلكة والمخاوف العديدة ٠ ولكن القرويين اعتادوا مواجهة هذه المشكلات والمتاعب بكل صبر ولم يبدوا أى شكوى ٠ وليس معنى ذلك أنهم اتكلوا على القضاء والقدر وسلموا زمام أمرهم إلى القدر ليتصرف كما يشاء معهم ، بل حاولوا بما أعطوا من المقدرة على التأمل والتفكير والصبر والصمود تحويل مجرى الحياة لصالحهم بطرق حكيمة هادئة ، مستخدمين كل الوسائل المادية ، مع إيمان كامل بالآلهة ٠ وإذا واجهوا الفشل – رغم كل الجهود – لم يكونوا ثائرين على الطبيعة والآلهة ، بل كانوا يتحملون المتاعب (٦٩) ٠

ولم يكن الفلاح الهندى – بسبب تفكيره وتأمله – يشكو قلة الطعام أو ندرته أيام المحن والمتاعب ، بل يستغرق فى التأمل والتفكير فى أسرار الحياة ، وفك غوامضها ٠ ويرى بعض الباحثين أن الطبيعة والأجواء قد أملت عليه هذه الظاهرة لأن القروى بسبب ثقافته الدينية العالية التى كان يتلقاها من المعلمين المتجولين قد نال حظا كبيرا من القناعة والزهد ، وتدرب إلى درجة كبيرة على تحمل المشاق ٠ وهذه الظاهرة لم تزل موجودة فى القرى والأرياف ٠

ومن منهج هؤلاء المعلمين من الأدباء والشعراء والفلاسفة والمفكرين أنهم كانوا ينشرون تعاليمهم بين القرويين من الفلاحين والعمال ، وأصحاب المهن الحرة البسطاء فى الفهم فى صورة قصصية أسطورية ٠ كانوا يقصون عليهم القصص والأساطير حافلة بتعاليم الأخلاق والدين والقيم العليا ٠ وكانوا يشرحونها بضرب الأمثلة من خلال حياة آلهتهم وشخصياتهم الدينية الأسطورية ، ومن هنا نجد ملاحمهم وأساطيرهم حافلة بالأخلاق والمبادىء والمثل العليا ، لأنها مما صاغتها ألسنة هؤلاء المتجولين ٠ ومن هنا تعود القرويون على مذاكرة ملاحمهم يوميا بعد فراغهم من مهنهم متجمعين فى مكان (٧٠) ٠

الهـــوامـــش

1- كامل سعفان : معتقدات آسيوية ، دار الندى ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ١٤٧
2- المرجع السابق ، ص ١٤٨
3- محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص٩٠
4- المرجع السابق ، ص ٩١
5- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
6- أ.و.ف.توملين : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبد الحميد سليم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٧٠
7- المرجع السابق ، ص ١٧١
8- كامل سعفان ، معتقدات آسيوية ، مرجع سابق ، ص ١٤٨
9- توملين : فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ١٧٢
10- جفرى بارندر (تحرير) : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (١٧٣) ، مايو ١٩٩٣ ، ص ١٣٧
11- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، م١ ، ج٣ (الهند وجيرانها) ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٥٨
12- المرجع السابق ، ص ١٦٤
13- المرجع السابق ، ص ١٦٦
14- المرجع السابق ، ص ١٧١
15- المرجع السابق ، ص٢٧
16- جون كولر : الفكر الشرقى القديم ، ترجمة كامل يوسف حسين ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (١٩٩) ، يوليو١٩٩٥ ، ص ٢٧
17- المرجع السابق ، ص ٢٩
18- المرجع السابق ، ص ٣٠
19- المرجع السابق ، ص ٣١
20- محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، مرجع سابق ، ص ٩٢

٢١- المرجع السابق ، ص ٩٣
٢٢- كامل سعفان : المعتقدات الآسيوية ، مرجع سابق ، ص ١٥٣
٢٣- توملين ، فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ١٧٣
٢٤- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص ٤٠
٢٥- المرجع السابق ، ص ٤١
٢٦- المرجع السابق ، ص ٤٣
٢٦- المرجع السابق ، ص ٤٥
٢٨- توملين : فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ١٨٥
٢٩-بارندر : المعتقدات الدينية ، مرجع سابق ، ص ١٤٤
٣٠- المرجع السابق ، ص ١٤٥
٣١- كولر : الفكر الشرقى القديم ، مرجع سابق ، ص ٧٢
٣٢- المرجع السابق ، ص٧٣
٣٣- عباس المسيرى : اليوجا والتصوف والرهبانية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٢٤
٣٤- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص ٢٦٢
٣٥- المرجع السابق ، ص ٢٦٣
٣٦- المرجع السابق ، ص ٢٦٤
٣٧- توملين ، فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ٢١١
٣٨- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص ٧٤
٣٩- المرجع السابق ، الصفحة نفسها
٤٠-كولر : الفكر الشرقى القديم ، ص ١٨٨
٤١- إنجيل بوذا ، ترجمة عيسى سابا ، دار صادر بيورت ، ١٩٥٣ ، ص ٢٤
٤٢- المرجع السابق ، ص٢٥
٤٣- توملين ، فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦
٤٤- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص٧٥
٤٥- كولر : الفكر الشرقى القديم ، مرجع سابق ، ص ١٩٧
٤٦- إنجيل بوذا ، ص ٥٠
٤٧- بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، مرجع سابق ، ص ٢٢٥

٤٨- المرجع السابق ، ص ٢٢٦
٤٩- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١، ج٣ ، ص ٢٨٣
٥٠- ألكسندر ستيبتشفيتش : تاريخ الكتاب ، ترجمة محمد م . الأرناؤوط ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (١٦٩) ، يناير ١٩٩٣ ، القسم الأول ، ص ٥٥
٥١- المرجع السابق ، ص ٥٦
٥٢- أحمد فهمى القطان : تاريخ التربية ، الجزء الأول : التربية قبل الإسلام ، مطبعة مدرسة طنطا الصناعية ، طنطا ، ١٩٢٣ ، ص ٩٥
٥٣- سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٨٢
٥٤- المرجع السابق ، ص ٨٣
٥٥- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص ٢٨٧
٥٦- أحمد فهمى القطان ، تاريخ التربية ، مرجع سابق ، ص ٩٨
٥٧- المرجع السابق ، ص ٩٩
٥٨- سعد مرسى أحمد ، تطور الفكر التربوى ، مرجع سابق ، ص ٨٣
٥٩- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص ٢٣٥
٦٠- أحمد فهمى القطان ، تاريخ التربية ، ص ١٠٢
٦١- المرجع السابق ، ص ١٠٣
٦٢- المرجع السابق ، الصفحة نفسها
٦٣- المرجع السابق ، ص ١٠٤
٦٤- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص ١٨٦
٦٥- هيجل : محاضرات فى فلسفة التاريخ ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ج٢ ، ص ١٠٨
٦٦- المرجع السابق ، ص ١٠٩
٦٧- المرجع السابق ، ص ١١٠
٦٨- محمد إسماعيل الندوى : الهند القديمة ، حضاراتها ودياناتها ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٦٧
٦٩- المرجع السابق ، ص ٦٨
٧٠- المرجع السابق ، ص ٦٩

الفصل الخامس

التربيـــة الصينيـــــة

الإطار الحضارى :

تعتبر الحضارة الصينية واحدة من أقدم الحضارات ، فمن ورائها تقاليد قديمة فى الشعر يرجع تاريخها إلى عام ١٧٠٠ ق٠م ، وسجل حافل بالفلسفة الواقعيـة المثالية ، وبراعة فى صناعة الخزف والنقش لا مثيل لها من نوعها ، وإتقان مع يسر لجميع الفنون الصغرى لا يضارعها فيه إلا اليابانيون ، وأخلاق قويمة قوية لم نر لها نظيرا عند كثير من شعوب العالم فى أى وقت من الأوقات ، ونظام اجتماعى ضم عددا من الخلائق أكثر مما ضمه أى نظام آخر عرف فى التاريخ ، ودام أحقابا لم يدمها غيره من النظم (١)٠

وكانت البيئة الطبيعية التى ظهرت فيها الحضارة الصينية بيئة قاسية : الأهوار، والأحراج ، والصحارى القاحلة ، والجبال العالية ، والفيضانات الغامرة ، والحر اللافح ، والبرد الزمهرير ، والجفاف القاصل ، والسيل الجارف ، ومن ثم كان الدافع إلى التحدى ، فروض الإنسان هذه البيئة ، وجعل منها مهدا لحضارة عريقة ٠

وفى إطار أعظم إقليم جغرافى فى قارة آسيا ، يحيط به أعظم المحيطات من الشرق والجنوب الشرقى ، كما يحده أعلى الجبال وأوسع الصحارى (صحراء كوبى) – حدث ما ظن أنه العزلة والثبات والركود ، من حيث عدم القدرة على متابعة ما يجرى داخل " السور " الطبيعى لعالم الصين ، لكن كانت الحقيقة على خلاف ذلك ، لأن من المستحيل – داخل هذا المخزون البشرى الكبير – أن يكون ثبات أو ركود أو عزلة ، فقد أثبت التاريخ امتداد الفيض البشرى الصينى إلى كافة الأقاليم المجاورة ، غزو سلمى ، منذ فجر التاريخ (٢) ٠

وتمتاز الصين على أقطار شرقية أخرى ، بل وفى الواقع على معظم الأقطار الغربية – بوفرة ما لديها من المعلومات الخاصة بماضيها المستقاة من مصادرها

الأصلية ، فهى ليست كالهند ، مثلا ، حيث الجدولة الزمنية للأحداث التاريخية ما زالت مشكوكا فيها بدرجة كبيرة ، ففى الصين يمكن فى أغلب الأحوال تحديد ليس العام فقط ، بل الشهر واليوم أيضا ، فهناك عدد كبير من السجلات التاريخية الرسمية والحوليات قد نجت من الاندثار ، وجميعها مكتوبة بقدر من الحيدة يشد الانتباه ، إلا أنه ولسوء الحظ لم يترجم منها إلا النزر اليسير للغاية (٣) .

وهى فى الحقيقة تزودنا بالكثير من المعلومات الفلكية وبيانات الأرصاد الجوية لأن السماوات كانت القاعدة الأساسية التى يهتدى بها فى حساب التقاويم ، كما أن الأحداث التى كانت تقع بها ، وكذلك أحوال الطقس كانت تستخدم فى التنبوء بالمستقبل . لكن الثقافة الأدبية الصينية لم تكن فى مجملها شغوفة بالعلم ، ومن ثم فعلى مؤرخ حركة العلم بوجه عام أن يبحث فى اتجاه آخر عله يجد الشواهد التى يسعى إليها ، ولحسن الحظ يتوافر كم كبير من المعلومات يتمثل فيما صنفه العلماء الكونفوشيون على أنه كتابات " متنوعة " (٤).

وكان أوائل السكان الذين عاشوا على أرض الصين كما ندرك من بقاياهم ، هم ذلك الجنس الذى ينتمى إليه " إنسان بكين " ، الذى عاش فى بداية أو أواسط عصر البلستوسين (حوالى ٤٠٠٠٠٠ ق.م) ، أى فى زمن أسبق من زمن إنسان " نياندرثال " ، الذى عاش فى أوربا وحوض البحر المتوسط (٥) . وهناك أيضا شواهد معينة على وجود سكان عاشوا فى الصين فى العصر الحجرى المتأخر (حوالى ١٢٠٠٠ ق.م) . أما بعد ذلك فهناك فجوة واسعة فى التواصل ، حيث لا توجد سائر المراحل التالية من عصور ما قبل التاريخ إلا فى منشوريا . وفجأة بعد ذلك (حوالى ٢٥٠٠ ق.م) تبدأ الأرض الشاغرة فى استضافة عدد كبير من السكان النشطين ، وتظهر مئات بل آلاف القرى يسكنها أناس يرعون قطعان الحيوان فى إطار اقتصادى زراعى وعلى دراية بالمنسوجات والنجارة وصناعة الخزف وتبدو الحاجة واضحة إلى العمل الأثرى المكثف من أجل إلقاء الضوء على هذه الفجوة الغريبة بين سكان العصر الحجرى ومن أعقبوهم فى العصر الحجرى المتأخر(٦) .

وليس فى الناس من يعرف من أين جاء الصينيون أو إلى أى جنس ينتسبون ؟ أو متى بدأت حضارتهم فى الزمن القديم ٠ وتدل كشوف أندرسن Anderson وغيره فى " هونان " و " منشوريا الجنوبية " على أن ثقافة تنتسب إلى العصر الحجرى الحديث وجدت فى تلك البلاد متأخرة بألفى عام عن مثيلتها فى عصر ما قبل التاريخ فى مصر وسومر ٠ ويشبه بعض ما وجد من الأدوات فى الرواسب الباقية من العصر الحجرى الحديث ، فى شكله وتسنينه ، المدى الحديدية التى يستخدمها سكان الصين الشمالية لحصاد الذرة الصينية فى أوائل القرن العشرين ، وهذه الحقيقة على ضآلة شأنها ترجح القول بأن الثقافة الصينية قد دامت سبعة آلاف متواصلة غير منقطعة (٧) ٠

وفى فترة سميت بالدولة الوسطى الزاهرة فى تاريخ الصين القديمة سرت فى الحياة العقلية بين ظروف التفكك ومظاهر الفوضى السائدة فى البلاد حيوية تنقض ما يضعه المؤرخون من نظريات وقواعد عامة يريدون أن يأخذ الناس بها ، فقد وضعت فى هذا العهد المضطرب قواعد اللغة الصينية والأدب والفلسفة ، والفن ، ونشأ من التلاف الحياة التى أصبحت آمنة بفضل التنظيم الاقتصادى والادخار مع الثقافة التى لم تكن قد وجدت بعد أو قيدت بالقيود والأحكام التى تفرضها عليها التقاليد والحكومة الامبراطورية القوية السلطان ، نشأ من ائتلافها ذلك الإطار الاجتماعى الذى احتوى أكثر العهود إبداعا وإنشاء فى تاريخ الصين الذهبى ، فكان فى كل قصر من قصور الأباطرة والأمراء ، وفى آلاف من المدن والقرى ، شعراء ينشدون القصائد ، وصناع يديرون عجلة الفخار أو يصبون الآنية الفخمة الجميلة ، وكتبة ينمقون على مهل حروف الكتابة الصينية وسوفسطائيون يعلمون الطلبة المجدين أساليب الجدل والمحاجة العقلية ، وفلاسفة يتحسرون ويأسون لنقائص البشر وتدهور الدول (٨)٠

وعلى الرغم من أن هناك أدلة على وجود حضارة متقدمة فى الصين فى كل العصور القديمة ، فإن التاريخ الفعلى المسجل يبدأ بأسرة شانج Shang فى القرن الرابع عشر ق٠م ٠ وتشير الأدلة المتاحة إلى أن هذه الحضارة كانت حضاررة متقدمة ، فالفن الذى يعود إلى هذه الفتررة هو فن مصقول ومركب ، حتى وفقا للمعايير الحديثة ٠ وقد انتهت هذه الأسرة بالغزو على يد شعب تشو Chou الأكثر بدائية ، والذى يفيد التراث أنه قد أسس أسرة تشو فى عام ١١٢٢ق٠م (٩) ٠

وعلى الرغم من أن " التشو " كانوا أكثر بدائية على الصعيدين الفنى والثقافى ، فإنهم كانوا شعبا ذا عزم وتصميم ، وقد قاموا بغزو أجزاء كبيرة من الصين معتمدين على القوة والعنفوان وحدهما . وإذ لم تتوافر لهم السبل التى تمكنهم من إدارة كل الأراضى التى قاموا بغزوها كدولة مركزية واحدة ، فقد فوضوا سلطة إدارية لزعماء القبائل والنبلاء الذين تربطهم بهم علاقات طيبة ، وقدموا مساحات من الأرض مقابل الصداقة والتعاون من جانب هؤلاء الملاك الجدد الذين منحوا الأرض . ويبدو أن هذا النظام الإقطاعى قد ساد بشكل جيد خلال صدر عهد تشو (١٠) .

وشهد القرنان والسادس والخامس ق.م فى بلاد الصين عصرا من الاستنارة العقلية ، لكن سبق هذا العهد عهد من الحروب والفوضى فتح أمام المواهب غير ذات الأنساب العريقة مسلكا للرقى ، وحفز أهل المدن إلى أن يطلبوا لأنفسهم معلمين يثقفون أذهانهم بالفنون العقلية ، وسرعان ما كشف معلمو الشعب ما فى علوم الدين من إبهام وغموض ، وما فى الأداة الحكومية من نقص ، وعرفوا أن المقاييس الأخلاقية نسبية ، وشرعوا يبحثون عن المثل العليا والكمال المطلق (١١). وقد أعدم الكثيرون من هؤلاء الباحثين على يد ولاة الأمور الذين وجدوا أن قتلهم أسهل من محاجتهم . وتقول إحدى الروايات أن كونفوشيوس نفسه ، الذى كان وزير الجريمة فى مقاطعة " لو " حكم بالإعدام على موظف صينى متمرد بحجة أنه " كان فى وسعه أن يجمع حوله طائفة كبيرة من الرجال ، وأن آراءه كانت تجد بسهولة من يستجيب لها من العامة ، وأن تجعل العناد صفة خليقة بالإكبار والإجلال ، وأن سفسطته كان فيها من المعارضة والمعاندة ما يمكنها من الوقوف فى وجه الأحكام الحقة المعترف بها من الناس " ، وإن كان البعض يشكك فى هذه الرواية (١٢) .

وخلال العهود الطويلة – سواء أكان الحكم مركزيا أو غير مركزى ، وطنيا أو غير وطنى – عانت الجماهير الصينية معاناة قاسية لدرجة السقوط تحت سيطرة العصابات المسلحة التى كانت تشارك فى مسيرة الحكم أحيانا ، بطريق مباشر أو بالتأثير على سياسة الحاكمين . ولأن الشعب كان يلجم إيمانه بهذا الواقع ، فقد سهل عليه أن يتقبله ، أو أن يجد ما يبرر قبوله (١٣) . وقد استطاع هذا " الزحام " الجماهيرى أن يؤلف

معتقدا هو مزيج من الظواهر الطبيعية والظواهر الإنسانية ، التى لا حيلة له فيها أو معها إلا الرضا بقضائها ، والصبر على نازلتها ، ومحاولة تخفيف ويلاتها ٠

وليس عجيبا أن تمتزج الظواهر الإنسانية بالظواهر الطبيعية فى معتقد ، ذلك لأن الظواهر الإنسانية من نواتج الظواهر الطبيعية ، حتى تشاكلتا وتبادلتا الأسماء ٠ هذا بالإضافة إلى أن المعاناة الكبرى كانت من " العصابات المسلحة " التى كانت تجوب المزارع والمقاطعات ، وتفرض الإتاوات ، وتهلك الحرث والنسل ، وهذه العصابات تكونت من المطحونين والموتورين والأقنان الذين تحملوا من قسوة الإنسان والطبيعة معا ما دفعهم إلى التمرد والانتقام ، وأكثر ما يكون هذا الانتقام من أولئك الذين على مثالهم من المطحونين والموتورين والأقنان ، ومن هنا نشأت الأسطورة التى تم تكد تتجاوز هذا الواقع المهين (١٤)٠

ومما له أعمق الدلالات التربوية حقا ، هو تلك الروح " العائلية " التى تسود نمط العلاقات فى الصين ، إذ تعتمد الدولة فيها على هذه الصورة من صور الرابطة الأخلاقية وحدها (١٥) ، والولاء الموضوعى للأسرة هو الذى يميز الدولة الصينية ، فالصينيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ينتمون إلى أسرهم أو عائلاتهم ، وعلى أنهم فى الوقت نفسه أبناء للدولة ٠ وهم فى داخل العائلة ليست لهم شخصيات ، لأن الوحدة الجوهرية التى يوجدون فيها هى وحدة الدم والوحدة الطبيعية ، وليس لهم فى الدولة كذلك شخصيات مستقلة ، لأن العلاقة الأبوية البطرياركية هى السائدة ، ولأن الحكومة تقوم على أساس ممارسة الرعاية الأبوية للإمبراطور الذى ينظم كل قطاعات الدولة ٠

وهناك خمسة واجبات ذكرت فى كتاب (تشو – كنج) بوصفها العلاقات الأساسية العظيمة التى لا تتغير ، وهى (١٦) :

- الواجبات المتبادلة بين الامبراطور والشعب ٠
- الواجبات المتبادلة بين الاباء والأبناء ٠
- الواجبات المتبادلة بين الأخ الأكبر والأخ الأصغر ٠
- الواجبات المتبادلة بين الزوج والزوجة ٠
- الواجبات المتبادلة بين الصديق وصديقه ٠

وتمثل واجبات الأسرة التزاما مطلقا وهى تتحدد وتنظم بقانون ، فليس للابن أن يبدأ بالكلام حين يدخل أبوه عليه الغرفة ، وإنما ينبغى عليه أن يتنحى ويتوارى بطريقة ما بجوار الباب ، وليس له أن يترك الغرفة دون إذن من الأب ، وعلى الابن ، إذا مات الأب أن يعلن الحداد لمدة ثلاث سنوات ، وأن يمتنع عن الأكل وشرب الخمر ، كما أن الأعمال التى كان يقوم بها لابد أن تتعطل حتى ولو كانت أعمالا للدولة ، فهو مضطر للتخلى عنها ، كما أنه لا يجوز أن يعقد قران فى الأسرة خلال مدة الحداد (١٧) .

ومن الأهداف الرئيسية للصينيين أن يكون لهم أبناء يشرفونهم فى الجنازات ، ويحترمون ذكراهم بعد الموت ، ويزينون لهم قبورهم . وعلى الرغم من أن الرجل الصينى قد تكون له عدة زوجات فإن واحدة فقط هى التى تكون سيدة المنزل ، وعلى أبناء الزوجات الأخريات احترامها احتراما مطلقا بوصفها أما للكل . وإذا لم يكن لدى الرجل الصينى أبناء من أى من زوجاته فإنه يلجأ إلى التبنى وفى ذهنه عمليات التشريف التى تقام له بعد وفاته . ولكل عائلة فى الصين " قاعة للأسلاف " أو الجدود يجتمع فيها أعضاء الأسرة جميعا كل عام ، وتعلق فى هذه القاعة صور أولئك الذين شغلوا مناصب سامية (١٨) .

الحكمة التاوية :

من غير شك أن ما تمتع به فلاسفة الصين ، قبل كونفوشيوس ، ومن بعده ، لم يكن قاصرا على ما عرف عن الشعب الصينى من نزعة نحو الحكمة وتخلق بالصبر ، وقناعة بالمصير ، فما كانت الأرض الصينية لتشع إشعاعات تغير من التكوين البيولوجى والنفسى لشعب هو أكثر شعوب العالم عددا ، ولعله ، كما أشرنا من قبل ، أكثر البلدان تنوعا من حيث المناخ ، مما لابد أن يؤدى إلى إرساء دعائم التنوع الفكرى والاختلاف المذهبى (١٩) .

ومن أقدم الأفكار الميتافيزيقية الصينية ، فكرة ال " ين Yin " أو " يانج Yang " ومعنى " ين " الحرفى ، هو " الظل " ، ويعبر عنه بالكتابة التصويرية بالجانب الشمالى لجبل والجانب الجنوبى لنهر ، لأنه فى الصباح تكتنف الظلمة جنوب النهر ، أما " يانج

، فمن ناحية أخرى يعنى " الضوء " ، ويعبر عنه بصورة مغايرة ، و " يانج " إيجابى و" ين " سلبى ، الأول ذكر والثانى أنثى ، ولكن " ين " و " يانج " لا يشكلان مذهب الثنائية Dualism الذى يقسم العالم إلى قسمين ، هذه المبادىء من خصائص عالم الظواهر فقط ، وعن طريق هذين العنصرين تتم عملية الخلق (٢٠) .

ولقد ورد أول بيان لفكرتى " ين " و " يانج " فى كتاب غامض عنوانه بقدر غموض محتواه ، اسمه " أى - تشنج " I.Ching ، كتاب " التغيرات " Book of changes، وأن من يعلنون أن العقلية الصينية عاجزة عن التأمل الميتافيزيقى ليتجاهلون مقدار ما يتمتع به هذا الكتاب من مقام رفيع .

أما أصل كل معنى فى الكون ، فهو " التاو " Tao ، أى " الطريق " ، وكان أول فيلسوف تجاوب مع دقة مبدأ " التاو " هو " لاو - تزى Lao-Tze ، الذى له شهرته كمؤلف كتاب تاو - تى - تشنج Tao-Te-Ching الذى يعنى كتاب دستور الطريق ، والفضيلة The Book of the way and of virtue . وقد ولد " لاو - تزى " سنة ٦٠٤ق.م فى محافظة " هونان Honan " فى الصين الوسطى ، وتوفى سنة ٥١٧ ق.م (٢١) .

وأغرب ما نراه فى دعوة " لاو - تزى " هى دعوته إلى نبذ التفكير وما يساعد عليه ، يؤدى إليه ، على اعتبار أن " الطريقة " ، العمل والسلوك هو الأجدى ، فالتفكير أمر عارض سطحى لا خير فيه إلا للجدل والمحاجة ، يضر الحياة أكثر مما ينفعها ، أما " الطريقة " فيمكن الوصول إليها بنبذ العقل وجميع مشاغله ، وبالالتجاء إلى حياة العزلة والتقشف والتأمل الهادىء فى الطبيعة . وليس العلم فى رأى صاحب الكتاب فضيلة ، بل إن السفلة قد زاد عددهم من يوم أن انتشر العلم . وليس العلم هو الحكمة ، ذلك أنه لا شىء أبعد عن الرجل الحكيم من " صاحب العقل " . وشر أنواع الحكومات التى يمكن تصورها حكومة الفلاسفة ، ذلك أنهم يقحمون النظريات فى كل نظام طبيعى ، وأكبر دليل على عجزهم عن العمل هو قدرتهم على إلقاء الخطب والإكثار من الآراء (٢٢) .

ويقول لاو إن الطبيعة قد جعلت حياة الناس فى الأيام الخالية بسيطة آمنة ، فكان العالم كله هنيئا سعيدا ، ثم حصل الناس " المعرفة " ، فعقدوا الحياة بالمخترعات وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية ، وانتقلوا من الحقول إلى المدن ، وشرعوا يؤلفون الكتب ، فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء ، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة ، فالعاقل إذن من يبتعد عن هذا التعقيد الحضرى وهذا التيه المفسد الموهن ، تيه القوانين والحضارة ، ويختفى بين أحضان الطبيعة ، بعيدا عن المدن والكتب ، والموظفين المرتشين ، والمصلحين المغترين ٠ وسر الحكمة كلها وسر القناعة الهادئة ، وهى وحدها التى يجد فيها الإنسان السعادة الأبدية ، هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ، ونبذ جميع أساليب الخداع وأفانين العقل ، وقبول أوامر الطبيعة (٢٣) ٠

ونتوقف بعض الشيء أمام عدد من نصوص كتاب " الطريق إلى الفضيلة " ، فهو يتحدث عن " المدرس " وواجبه فى ترويض شرار الناس ، فيقول (٢٤) :

من هو الرجل الطيب ؟
إنه مدرس الرجل الشرير ٠
من هو الرجل الشرير ؟
إنه بعض من مسئولية الرجل الطيب
إذا لم يحترم المدرس ،
وإذا لم ينل التلميذ الرعاية
فإن الفوضى سوف تعم ، مهما كانت براعة الإنسان ،
وهذا هو سر اللغز ٠

وهو يشدد على نبذ العنف والقوة وأدواتها المادية المعروفة ، يقول (٢٥) :

حقق النتائج ولكن ليس عن طريق القوة ٠
استخدام القوة ، يعقبه – دائما – فقدان القدرة ٠
هذا ليس طريق " التاو " ٠
كل ما يسير عكس طريق " التاو " يلقى نهايته سريعا ٠
الأسلحة العظيمة آلات للخوف ٠

والمخلوقات جميعا تكرهها ،

وأتباع " تاو " لا يستعملونها أبدا ،

....

الأسلحة آلات الخوف ،

ليست من أدوات الرجل الحكيم ،

يستعملها – فقط – عندما لا يبقى أمامه خيار آخر ،

السلام ، والهدوء ، أمانى عزيزة على قلبه ،

وهو يكشف عن بعض النظرات الحكيمة التى تنير الطريق أمام من يبتغى سواء السبيل ، فيقول (٢٦):

معرفة الآخرين : حكمة ،

معرفة النفس : كشف ،

قيادة الآخرين تتطلب قوة ،

قيادة النفس تقتضى القدرة ،

من يشعر بأن عنده ما يكفيه غنى ،

المثابرة من علامات قوة الإرادة ،

من يحافظ على مكانه يبقى ،

وهو يدعو إلى التزام الطريق المستقيم ، صحيح أنه لا يوصف ماهية ومضمون هذا الطريق ، لكن الأجزاء الأخرى التى سقنا أمثلة لها ، وكذلك ما سوف يأتى ، يمكن أن توضح مواصفات هذا الطريق المستقيم ، يقول (٢٧):

لو أن لى حتى قليلا من العقل ،

لسرت فى الطريق الرئيسى المستقيم ،

ولكان خوفى الوحيد أن أحيد عنه ،

اتباع الطريق الرئيسى سهل ،

ولكن الناس مغرمون بالانحراف عنه ،

وينتقد لاو الترف والغنى المادى ، وكيف أن تكدس الثروة لدى البعض مؤشر على فقر آخرين ، وأن أغلب هذه الثروات تجىء عن غير طريق سوى ، يقول (٢٨) :

عندما يكون بلاط الملك غارقا فى الفخامة ،
فإن الحقول تمتلىء بالحشائش والأعشاب ،
وتفرغ مخازن الحبوب ،
بعض الناس يرتدون ملابس مزركشة ،
ويحملون أسلحة حادة ،
ويملأون بطونهم بالطعام والشريف ،
وتصبح ممتلكاتهم أكثر مما يستعملون :
هؤلاء هم السادة اللصوص ،
طريقهم – بالتأكيد – ليس طريق " التاو " ،

أما " الفضيلة " فهى القيمة الأساسية التى تدور حولها الكثير من كلمات حكيم الصين الكبير ، يقول (٢٩) :

ازرع الفضيلة فى نفسك ،
تصبح الفضيلة حقيقة ،
اغرسها فى الأسرة ،
تظل أبدا فياضة ،
ازرعها فى القرية ،
تنمو الفضيلة ،
ازرعها فى الأمة ،
تصبح موفورة ،
ازرعها فى الكون تجدها فى كل مكان ،

وآخر ما يمكن الاستشهاد به هذا النص الذى يؤكد فيه على فضيلة ضبط النفس والتحكم فى الأهواء الخاصة والنوازع الشخصية ، يقول حكيمنا (٣٠) :

فى الاهتمام بالآخرين ، وخدمة السماء ،
ليس هناك أفضل من التحكم فى النفس ،

والتحكم فى النفس ،
يبدأ بالقدرة على التخلص من أفكار المرء الخاصة ،
وهذا يعتمد على ما جمعه من فضيلة الماضى ،
فإذا كان هناك مخزون كاف من الفضيلة ،
فلن يكون هناك مستحيل ،
وإذا لم يكن هناك مستحيل ،
فلن تكون هناك حدود ،
وإذا لم يعرف الإنسان حدودا ،
فهو جدير بأن يكون حاكما ،
ومع تحقق المبدأ " الأم " للحكم ،
يبقى الحكم صالحا أمدا طويلا ،
وهذا هو ما يسمى : الجذور العميقة والأساس المتين ،

فإذا ما أردنا أن نفسر الأصول المجتمعية لمثل هذه الفلسفة " التاوية " ، فسوف نجد أن لنشأتها أصلان : الأول هو فلاسفة عصر الولايات المتحاربة الذين اتبعوا " تاو " الطبيعة ، لا " تاو " المجتمع البشرى ، والذين لم يرغبوا فى الالتحاق بخدمة الإقطاع وانسحبوا إلى الريف أو إلى البرارى من أجل التأمل ودراسة الطبيعة (٣١) . وهؤلاء كانوا طرازا من الرجال يبدو أنهم كان لديهم شعور راسخ - وإن لم يتمكنوا من التعبير عنه تعبيرا كاملا -- بأن المجتمع البشرى لا يمكن أن يرتقى إلى المرتبة التى طمح إليها الكونفوشيون إلا إذا تعاظم فهمه للعالم الطبيعى .

الأصل الثانى للتاوية يتمثل فى السحرة و " الشامانات " -- الطبيب الساحر -- الذين وفدوا على الحضارة الصينية عن طريق الشمال فى عصر مبكر للغاية ولعبوا دورا هاما فيها كممثلين للسحر وعبادة الطبيعة ، وهى ممارسات كانت وثيقة الصلة بالمعتقدات الشائعة . كانت الشامانية ديانة تقدس الآلهة الثانوية (الصغرى) والأرواح الكائنة فى عالم الطبيعة ، وكان من معتقداتها أن باستطاعة الكهنة عن طريق الاستغراق فى الطقوس و " الدروشة " وتخيل التحليق فى الجو السيطرة على

تلك الأرواح والاتصال بالقوى الخفية ، وشفاء أمراض البدن والعقل فى الإنسان . وضمان التوفيق فى الصيد والحصاد (٣٢)٠

الكونفوشيوسية :

تنسب إلى " كونفوشيوس " ، الذى ولد عام ٥٥١ ق٠م فى إمارة " لو Lu " الصغيرة بولاية " شانتونج Shantung " ، وتوفى بها عام ٤٧٩ ق٠م ٠ وهو ينحدر من أسرة نبيلة يرجع أصلها إلى الإمبراطور العظيم هوانج ٠ دى (٣٣) ٠ واسم كونفوشيوس هو النطق اللاتينى لاسم الحكيم الصينى ، موضوع الحديث ، ، وهو يتكون من لفظين : كونج K,ung ، وهو اسم الأسرة التى ينتمى إليها ، وفو تسيه Fu Tze ، ومعناه : الأستاذ المبجل ، أو الحكيم أو الفيلسوف ، فاسم كونج فو تسيه أى الأستاذ كونج ، حرفه ، أو لتنه (نسبة إلى اللاتينية) الأوربيون فصار مشهورا عندهم ب : " كونفوشيوس Confucius " ، ويعنى إذن : الأستاذ كونج أو الفيلسوف كونج أو الحكيم كونج (٣٤) ٠

وكانت الحقبة الزمنية التى ولد فيها كونفوشيوس تشهد اضمحلال النظام العبودى وتعاظم النظام الإقطاعى ، فكانت الفوضى العارمة تضرب فى كل مكان مما ترك آثارا واضحة فى أعماله التى راحت تدعو إلى بذل الجهد لاستقامة الفرد والمجتمع بموجب " التطلع نحو المعرفة بصبر وثبات " و " التعهد بالتمسك بالقضايا العادلة " (٣٥) ٠

وكان العالم حوله يعج بالفوضى الناتجة عن نظام قديم انهارت دعائمه ونظام جديد لم يثبت بعد جدرانه ، ومن ثم فكانت قناعة كونفوشيوس بأن المجتمع الإنسانى عبارة عن جسد جمعى نمطى ، يمكن أن يلملم أطرافه بمعيار السلوك القويم سعيا إلى السلام والرفاهية لكل الناس ، وكانت تلك السلوكيات تنبع من معايير قيمية يلتزم بها الفرد إلى جانب ثقافة أخلاقية تجردت بالإخلاص والولاء والتراحم والاحترام والتقديس للأكبر سنا ، والإيمان والحكمة والشجاعة والأمانة والصبر ، ثم صبت جميعا فيما عرف بعد ذلك بالمنهاج (الطريق) ، والذى احتوى صفتين أساسيتين : الإيمان ، والصبر ٠

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بدأ يشتغل بالتعليم ، واتخذ داره مدرسة له ، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم مهما كانت قليلة ، وكانت المواد التى يشملها برنامجه ثلاثا : التاريخ ، والشعر ، وآداب اللياقة ، ومن أقواله : " إن أخلاق الرجل تكونها القصائد ، وتنميها المراسم (أى آداب الحفلات والمجاملات) ، وتعطرها الموسيقى " (٣٦) .

وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهيا ، لا يلجأ فيه إلى الكتابة ، ولهذا فإن أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه ، وذلك مصدر قد يعتوره قدر من الشك ، وقد ترك إلى الفلاسفة مثلا قل أن يعبثوا به - وهو ألا يهاجموا قط غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم فى دحض حججهم ، ولم يكن يعلم طريقة من طرائق المنطق الدقيق ، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم فى رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة العقلية ، ومن أقواله فى هذا المعنى : " إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول : ماذا أرى فى هذا ؟ فإنى لا أستطيع أن أفعل له شيئا " ، " وإنى لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يكنه فى صدره ، وإذا ما عرضت ركنا من موضوع ما على إنسان ، ولم يستطع مما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة الأركان الباقية ، فإنى لا أعيد عليه درسى "(٣٧) .

ولما كان المأزق القائم أمام حكيمنا يتمثل فى ظروف عامة محيطة بنظام ينهار ونظام آخر على وشك الظهور ، فمعنى هذا أنها لم تكن فى حقيقتها عوامل مشجعة على أى إصلاح مثالى للمجتمع ، مما جعل الاحتكاك مؤلما ، والصراع عنيفا بين مثالية كونفوشيوس وواقع الحال المرير من حوله ، وفى مواجهة زمن صعب لم يكن أمام من فشلوا فى تحقيق آمالهم السياسية سوى أحد خيارين : إما الهرب والعزلة داخل أبراجهم الأخلاقية ، أو التخلى والتنازل ، ثم الانجراف مع التيار ، إلا أن كونفوشيوس اختار لنفسه اتجاها آخر أصعب من ذلك كله ، أعلنه بقوله أنه يدرك تماما أن شيئا لن يتحقق ، وأنه لا فائدة ، لكنه ، مع ذلك ، سيظل مثابرا يلح على تحقيقه حتى النهاية، وأمام محاولات إغرائه قال بأنه كإنسان فهو لا يمكن أن يختار المشى مع قطيع الوحوش ، وبأنه ما لم يختر المشى مع الإنسانية ، فمع من عساه يمشى ؟! (٣٨) .

وقد تمثل أكبر جهد كونفوشيوس فى نقله التراث الصينى ، فى لغة بسيطة سهلة ، حتى يفيد منها أكبر عدد من الصينيين ، وحتى يعملوا على إعادة مجد أسلافهم . وأدت جهوده إلى تأليف خمسة كتب ، يعرض فيها تاريخ الصين القديم ، وأصول ديانات الأسر الصينية وعشائرها ، ودرس فنون المعرفة الستة التى كانت سائدة فى عصره (٣٩) : الطقوس ، والموسيقا ، والرماية ، وقيادة العربات والجياد ، والقراءة ، ثم الرياضة والحساب . لهذا كان تلاميذه يلقبونه ب (معلم البشرية) ، بل كانوا يعدونه أعظم معلم أنجبته العصور ، وكانوا ينقلون آراءه ويعلقون عليها ويشرحونها ، مما ساعد على تكوين مدرسة كبرى ، وهى المدرسة الكونفوشيوسية .

والكتب الخمسة التى استمد منها كونفوشيوس إلهامه هى (٤٠) :

١ - كتاب الأغانى ، أو الشعر (شيه تشينج Shih Ching) ، ويحتوى على ثلاثمائة أغنية وخمس ، بالإضافة إلى التراتيل الدينية ، وتعود أشعار هذا الكتاب إلى عهد تشو .

٢ - كتاب التاريخ (شو تشينج Shu Ching) ، ويشمل الوثائق التاريخية الخاصة بالصين فى عصورها القديمة (من ٢٠٠٠ - ٧٠٠ ق.م) ، ولا سيما الأوامر والمراسيم الملكية والإمبراطورية .

٣ - كتاب التغيرات (آى - تشينج I-Ching) ، الذى يبين سبب تطور الحوادث ، وفيه استطاع أن يحول التنجيم إلى دراسة علمية للسلوك الإنسانى ، وكيف يتأثر الإنسان بالظروف الطبيعية والاجتماعية التى تكتنفه ، ومن ثم يمكن التنبوء بسلوك الفرد ومستقبله ، (ويعزى هذا العمل تقليديا إلى وينج وانج Weng Wang ١١٠٠ ق.م) .

٤ - كتاب الربيع والخريف (تشو تشو Chun Chiu) ، وقد عالج فيه تاريخ الصين بالتفصيل بين سنتى ٧٢٢و ٤٦٤ ق.م تقريبا .

٥ - كتاب الطقوس ، أو التقاليد (لى تشى Li Chi) ، وهو مجموعة من القواعد التى تنظم السلوك الاجتماعى . وقد تم تأليف هذا الكتاب بعد كونفوشيوس بوقت طويل ، ولكنه قد يمثل بصورة جيدة القواعد والعادات التى تعود إلى عصور سابقة .

وهناك كتب أخرى كتبها تلاميذه ، وإن كانت تنسب إلى " منشيوس " – حوالى ٣٧١ – ٢٨٩ ق.م – تلميذه الروحى ، الذى تتلمذ فعلا على حفيده " تزيس Tsesze " ، ويعد منشيوس أكبر شخصية فى تاريخ المذهب الكونفوشى ، ومن هذه الكتب (٤١) :

١ - مختارات كونفوشيوس (لون يو Lun yu) ، وهى أقوال كونفوشيوس لتلاميذه ، وقد قاموا بجمعها وتنسيقها .

٢ - العلم العظيم (تاهسو Ta Hsueh) ، وهو يضم تعاليم كونفوشيوس التى تحتوى اقتراحاته الخاصة بنظام الحكم . ويعكس هذا الكتاب تطوير هوسون تسو لفكر كونفوشيوس .

٣ - عقيدة الوسط (تشونج يونج Chung yung) ، ويضم تعاليم تنسب إلى كونفوشيوس حول تنظيم الحياة .

٤ كتاب منشيوس (منج تسو Meng tzu) ، وهو شروح على متن مبادىء كونفوشيوس ، كتبها منشيوس .

وإذا كان كونفوشيوس لم يظهر أى ميل شخصى للتفكير الصوفى فلقد كان على علم بالسحر الذى كان يؤثر به مثل هذا التفكير فى جمهرة البشر . وهو لم ينكر وجود عالم روحى أسمى ، بل هو بالأحرى أعطى الأولوية لاعتبارات الحكومة الإنسانية والرفاهية والسعادة . ولقد اتبع فى تأملاته الخاصة ، مثلما اتبع فى تعاليمه ، منهج البحث العقلى والمنطقى . أما عن تطوير حالات " السبات " ، طبقا لمباىء " اليوجا " ، فقد رفض أن يطبقه بنفسه بعد بضع تجارب مبكرة : " لقد قضيت يوما كاملا بلا طعام والليل بطوله بدون نوم لكى أتأمل ، ولكن بدون جدوى . من الأفضل التعلم ، ومرات ومرات " .

وعندما كان يسأل عن أمور فيما وراء الخبرة المباشرة البشرية ، كان كونفوشيوس يجيب بكلمات أكثر وضوحا من البوذا نفسه ، وإن كانت له دوافع مختلفة جدا . وعندما سأله تلميذه " تزو لو Tzu - Lu " أن يتحدث عن واجب الإنسان إزاء أرواح الـ ... حليز ، أجاب : " إذا كنت لا تزال عاجزا عن أداء واجبك إزاء الأحياء ، فكيف تستطيع ـ تؤدى واجبك إزاء الأموات ؟ وفى مناسبة أخرى ، عندما سئل عن طبيعة

الموت ذاته ، أجاب فى شىء من الاستخفاف : " إذا كنت لا تفهم الحياة ، فكيف يمكن أن تزعم أنك تفهم الموت ؟ " ،وكثيرا ما كان يتعرض تلاميذه لانتقادات ، بل سخريات النساك الذين كانوا يحيون الحياة البسيطة وحياة العزلة ، لأنه حتى ذلك الوقت كان ينظر إلى الشخص الحكيم على أنه الشخص الذى من الأفضل أن يركز أفكاره ويتخلى عن كل اتصال بالعالم ،وكان من ردوده فى هذا الشأن " إذا لم يكن للحكيم الصالب أن يسود العالم ، فلا ينبغى لى أن أشارك فى إصلاحه " (٤٢) ،

لقد كانت الميزة الكبرى لكونفوشيوس تكمن فى نقله للحكمة من الصعيد الفلسفى إلى صعيد الحياة اليومية ليجعل منه قيمة عملية ، ومن هنا أخذ عليه البعض بأنه قد اقترب من الابتزال !! وإذا كان قد قال لحفيده ومريده " تسو - سو " : " الجبل الكبير ينهار ، والعارضة الرئيسية تتحطم ، والحكيم يذبل " ، إلا أنه كان بإمكانه أن يكون راضيا عن حياته ، لقد أنجز عملا مفيدا للغاية وذلك بتبديده العقلية السحرية التى كانت تغلب على الثقافة الصينية ، من أجل تقريبها إلى العقلانية (٤٣) ،

وما من شىء فى الحياة اليومية الصينية إلا وقد تأثر بطريقة أو بأخرى بالمذهب الكونفوشيوسى ، وما من عمل هام ، وما من سلوك عائلى ، حب وصداقة ، وما من عمل أدبى أو فلسفى ، وما من مراسم ، وما من مظهر من مظاهر آداب المعاشرة ، وما من عمل اجتماعى قد خلا من تأثير كونفوشيوس ،لقد كتب كاتب صينى فى صحيفة انجليزية عام ١٩٠٩ يقول أنه خلال الألف وخمسمائة عام السابقة : " عشنا فى الصين على رأسمال جمعه أسلافنا ، ولقد حفظت لنا بصيرة وحكمة فيلسوفنا العظيم كونفوشيوس ذكراه وخبرته الثمينة ، وبدونه ، لكان الشرق الأقصى قد غرق فى أعماق البربرية " (٤٤) ،

ويقول كونفوشيوس إن ما يجعل البشر إنسانيين حقا هو ما يسميه بال " جين Jen " ، وهذا هو السر فى أن الطريق الكونفوشى هو فى جوهره طريق " جين " أو طيبة القلب الإنسانية ، ولقد ترجمت كلمة " جين " بطرق شتى ، ومن هذه الترجمات : الفضيلة ، الإنسانية ، الإحسان ، الرجولة الحقة ، الطابع الأخلاقى ، الحب ، الخير الإنسانى ، وطيبة القلب الإنسانية ، والتعبير الإنجليزى Human Heartedness

يوحى بأن " جين " هى ما يجعلنا إنسانيين ، وأنها أمر متعلق بالشعور ، وكذلك بالتفكير ، وأنها أساس العلاقات الإنسانية كافة . وتكشف ترجمة كلمة " جين " بطيبة القلب الإنسانية كذلك على التشديد الصينى على القلب ، وليس على العقل ، باعتباره السمة المحددة للطبيعة الإنسانية (٤٥) .

ومما لا شك فيه أن القدرة على حب الاخرين لها تبعات أخلاقية مهمة ، الأمر الذى يقتضى التفكير فى " الجين " من منظور أخلاقى ، ومن هنا يجىء قول حكيمنا : " يرغب كل إنسان فى الثروة والشرف ، ولكنهما إذا تم تحقيقهما عن طريق مخالف لمبادىء الأخلاق ، فإنه لا ينبغى الإبقاء عليهما . ويكره كل إنسان الفقر وتواضع المرتبة ، ولكن إذا لم يكن بالإمكان تجنبهما إلا بمخالفة المبادىء الأخلاقية فإنه لا ينبغى تجنبهما . وإذا ما نأى شخص رفيع المكانة عن الإنسانية (الجين) فكيف يمكن أن يحقق تلك المكانة ؟ ذلك أن الإنسان الرفيع المكانة لا يمكنه قط التخلى عن الإنسانية (الجين) ، حتى ولو من أجل وجبة طعام واحدة ، فهو فى لحظات التعجل وهو مسرع يعمل وفقا لها ، وهو فى أوقات الشدة والاضطراب يعمل وفقا لها " (٤٦) .

جاء فى كتاب (العلم العظيم) : " إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا الفضائل فى أنحاء الإمبراطورية قد بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا تهذيب نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ، ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم بدءوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع فى المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء ، فلما بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا ، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم ، ولما تهذبت نوفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ، ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة " (٤٧) .

وعلى الرغم من أن النص السابق يقوم على أساس " خيالى حالم " ، لأن البحث عن " حقائق الأشياء " وصولا إلى " العلم الكامل " مجرد استغراق فى " حلم دافىء " لا

علاقة له بالواقع ، إلا أن الأحلام مهما اتسع خيالها هى خطوة على الطريق ، ورغبة " عارمة " فى الوصول ، وسواء صح هذا أو لم يصح فهو دعوة إلى صدق الظاهر والباطن ، إلى " تصحيح المعانى " أو " تحرير الألفاظ " ، ذلك لأن " الأشياء التى يتأثر بها الإنسان كثيرة لا حصر لها ، وإذا لم يكن ما يحب ويكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعة الأشياء التى تعرض لها " ٠

وبما أن العرف هو مقوم أساسى من مقومات الحياة الاجتماعية من حيث أنه يربط برباط وثيق بين أفراد المجتمع ، استخدم كونفوشيوس كلمة " لى Li " للتعبير عن مجموعة القيم والعادات الأخلاقية والأعراف الاجتماعية المتشابكة التى تحفظ للمجتمع تماسكه وتوازنه وتظهر شخصيته الحضارية ، وتوفر للفرد الطمأنينة والسعادة ٠ وتعنى كلمة " لى " قواعد السلوك وآداب اللياقة الاجتماعية المثالية ، والطقوس والشعائر التى تخلو من التزمت والجمود ، وتراعى الظروف والمناسبات الاجتماعية ، وتتضمن التوقير والاحترام لمت تجرى عليهم (٤٨) ٠

وتتمثل هذه العادات والأعراف والطقوس والشعائر فى أنواع معينة من الطعام ينبغى أن يتناولها الناس فى المناسبات المختلفة والمراحل المتباينة من الحياة ، كما يعبر عنها أنواع الملابس التى ينبغى أن يرتديها الناس فى الأيام المقدسة ، وعند الانحناءات التى ينبغىأن يؤدوها عندما يحيون بعضهم بعضا ، والطريقة التى يجب أن يسيروا بها فى الشوارع " فالرجال على الجانب الأيمن والنساء على الجانب الأيسر " ،كما تتمثل ال " لى " أيضا فى شعائر الزواج والولادة والوفاة والجنازة وشتى أنواع الأضاحى والأعياد ، وتنظيم العمل ، وقوانين الضيافة ، والقواعد التى تسير الحياة بمقتضاها فى البلاط والمستخدمين (٤٩) ٠

وولاء الأبناء لآبآئهم علامة أخرى مهمة على طريق التربية الكونفوشيوسية ، وقد اكتسب أهمية كبرى فى بعض المدارس الكونفوشيوسية ، وهو باللغة الصينية " هسياو Hsiao " التى تعنى أصلا الولاء للآباء الموتى وللأسلاف ، والواجبات التى ينبغى أن تؤدى لهم كتقديم القرابين ، والطعام ٠ أما بالنسبة لكونفوشيوس الذى كان يشدد على تأدية الواجب للأحياء ، فقد أصبح الولاء البنوى يعنى خدمة " الوالدين أثناء

حياتهما " ، وهذه العلاقة بين الأبناء والآباء هى من أهم علاقات خمس سبق أن أشرنا إليها وهى علاقاتت محورية تدور حولها كذلك تعاليم حكيمنا ، وهذه العلاقات هى علاقة الأمير بالرعية ، وعلاقة الإبن بأبيه ، والأخ الأكبر بأخيه الأصغر ، وعلاقة الزوج بزوجته ، وعلاقة الصديق بصديقه ، واحترام الإبن لأبيه ، عند معظم الصينيين ينطوى فى التطبيق العملى على مواقف احترام الصغير للكبير ، والحب والمودة المتبادلين من جانب الكبير للصغير ، فكلاهما جزء من السلوك اليومى بين الأحياء ، ومن الالتزام الدينى فى مراسم العبادة بعد الموت (٥٠) .

أما ال " يى Yi " فهى تلك الفضيلة الرئيسية فى التربية الكونفوشيوسية والتى تترجم عادة على أنها " الاستقامة Righteousness " ، وقد قال كونفوشيوس : " ينظر الرجل الأسمى إلى الاستقامة (يى Yi) ويبرزها باعتبارها جوهر كل شىء ، وهو يلتزم بها بحسب مبدأ آداب (لى Li) ، ويبرزها فى تواضع ، ويمضى بها إلى نهايتها فى إخلاص . إنه حقا الرجل الأسمى " (٥١) .

و" يى " بهذا هى التى تدلنا على الطريق الصحيح للتصرف فى مواقف محددة ، بحيث أننا نكون على توافق مع " جين " ، وبالتالى تصبح " يى " هى الاستعداد الأخلاقى للقيام بالسلوك والقدرة على إدراك ما هو صحيح فى آن معا ، وهى قدرة تعمل كنوع من الحس أو الحدس الأخلاقى . ويتحدث كونفوشيوس فى بعض الأحيان عن هذه القدرة من خلال شخصية المرء أو استقامته الأخلاقية ، ذلك الشخص ذا الشخصية الأخلاقية القوية الذى يرى فرصة للكسب يفكر أولا فيما إذا كان القيام بذلك من شأنه أن يكون صوابا على الصعيد الأخلاقى " يى " ، ومثل هذا الشخص على استعداد للتضحية بحياته من أجل شخص يتعرض للخطر (٥٢) .

والوسط والانسجام عند كونفوشيوس هما نقطة الذروة فى الطبيعة الإنسانية ، إذ أن هذه الطبيعة تتألف من قسمين : النفس أو الذات أو المركز والأحاسيس أو المشاعر والانفعالات ، فعندما لا تتنبه الأحاسيس أو الانفعالات مثل الغضب أو الحزن أو الفرح تدعى الوسط أو الاعتدال . وعندما تتنبه هذه الأحاسيس أو الانفعالات دون أن تتجاوز الحد المعتدل يقال عن النفس أو الذات أنها فى حالة الانسجام . وبعبارة أخرى إن

الأحاسيس عندما تتجسد فى الخارج ، وهى تعثر على الإيقاع الصحيح تسمى انسجاما ، فإن الوسط أو الاعتدال هو الأصل ، والانسجام هو القانون العام ، " فحالة المركزية أو النفس أو الذات هى المنشأ الأعظم " ، وحالة الانسجام هى " السبيل الحسن البعيد المدى ، لكل ما هو موجود فى العالم " . وحينما يلحق الوسط أو الاعتدال والانسجام غايتهما ، ويتحققان ، يسود الاستقرار الكامل فى السماء وعلى الأرض ، وتتلقى جميع الأشياء حقها كاملا ، وتتقدم نحو الكمال ، بما يفيد أن المجال الأخلاقى والمجال الميتافيزيقى لا ينفصلان بل النظام الخلقى والنظام الكونى يشكلان وحدة أو كيانا واحدا (٥٣) .

وقد لاقت آداب كونفوشيوس إقبالا تاما وحازت الإعجاب العظيم . وقد قيل مرة عن الصينيين إنهم وضعوا أرفع قوانين أخلاقية أنتجها العقل البشرى من غير أن يستمد معونة الوحى الإلهى ، وإن تعاليمهم البارزة ظلت أغنى ما ورثه كل عصر من العصور الحاضرة المتوالية عن كل عصر من العصور الماضية المتوالية . وقد أعلن هذا خاصة بسبب ذلك المبدأ الذى وضعه كونفوشيوس على لسان المدرس حين يسأل التلميذ قائلا : هل هناك كلمة واحدة يمكن استخدامها قاعدة عامة لكل تجارب الإنسان التى تمر به فى حياته ؟ فأجاب المعلم قائلا : بلى ، أليس فى كلمة " تبادل المعاملة الإجابة المناسبة ؟ فما لا تريده لنفسك لا تقدم عمله للاخرين . ومن الغريب فى أخلاقهم أن يكون هذا بالنفى وليس بالإيجاب (٥٤) .

وهكذا كانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول ، وكان يرى أن الفوضى التى تسود عصره فوضى خلقية ، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وانتشار الشك فى ماهية الصواب والخطأ . ولم يكن علاجها فى رأيه هو العودة إلى العقائد القديمة ، وإنما علاجها هو البحث الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة ، وتجديد أخلاقى قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس قويم صالح (٥٥) .

ولعله من المناسب أن نتوقف مع القارىء أمام بعض النصوص المتضمنة أقوالا لكونفوشيوس ذات أبعاد تربوية تحتاج إلى تأمل وحسن استيعاب وفهم :

– فهناك نص يكشف لنا عن عمق حاجتنا فى العصر الراهن إليه ما يتضمنه من معانى ، ، فلقد كثرت عبارات ومصطلحات تستهدف غير ما تعلنه ، فتزيف وعى الناس ، وبالتالى تدفعهم إلى سلوكيات مرادة فى الباطن ، تفسد أكثر مما تصلح ، مثل " تحريك الأسعار " ، " ثقافة السلام " ، " الشرعية الدولية " .. إلخ . إننا إذن بحاجة إلى تسمية المسميات بأسمائها الحقيقية حتى يستقيم الطريق أمام الناس ، يقول حكيمنا : " إن أهم ما نحتاج إليه إنما هو تصحيح التسميات (..) ، فليكن الحاكم حاكما ، والوزير وزيرا ، والوالد والدا ، والإبن ابنا .." (٥٦) .

– وعن قواعد وأصول المعاملات بين الناس يرتفع صوت كونفوشيوس : " إن الرجل الصالح إذ يريد الإبقاء على نفسه يساند الاخرين ، وإذ يريد أن ينمى ذاته فهو ينمى الآخرين " ، إلى أن يأتى إلى مفهوم " ناحية التقويم " ، يقول : " لا تستعمل ما لا تحبه فى رؤسائك فى التعامل مع من هم أقل منك مكانة . لا تستعمل ما لا تحبه فى من هم أدنى منك مكانة فى طريقة خدمة من يعلو عليك مقاما . لا تستعمل ما لم تحبه فى من جاء بمسلك لكى تتقدم أنت علي من هم خلفك . لا تستعمل ما تمقته فى من يأتون بعدك لكى تسير وراء من هم قبلك . لا تستعمل ما لا تحبه على يمينك للتظاهر به بالنسبة لما هو على يسارك . ولا تستعمل ما لا تحبه فى ما هو على يسارك بالنسبة لما هو على يمينك . هذا هو ما يسمى باسم ناحية التقويم " . إن هذا الجانب بصفة خاصة إنما يؤكد مبدأ العدل فى المعاملات الاجتماعية ، وفى هذا الإطار تجىء تعليمات أخرى : " اخدم والدك كما تريد أن يخدمك ابنك .. اخدم حاكمك كما تطلب ممن تحت إمرتك أن يخدمك أنت ... اخدم أخاك الكبير كما تبغى أن يخدمك أخوك الصغير .. ثم : اضرب مثلا بكونك تعامل أصدقائك كما تريد منهم أن يعاملوك أنت " .

– وتتجلى قيم التسامح ، والحرص على نقد الذات ، ومبدأ المساءلة والمراجعة ، فيقول حكيمنا : " كم هو ممتع أن تتعلم وأن تراجع ما تعلمت ، وكم هو ممتع أن تلقى صديقا حميما يأتيك من سفر بعيد . يا له من رجل مهذب ذلك الذى يتجاوز عن تجاهل الناس لمكانته العالية " (٥٧) .

ومن هنا يجىء قول أحد تلاميذه " سنغ زى " ممن استوعبوا درس المعلم الكبير : " فى نهاية كل يوم أراجع نفسى فى ثلاثة أمور وأتساءل : هل بذلت كل جهدى لمساعدة

الآخرين بإخلاص ؟ – هل كنت صادقا وفيا طوال اليوم لأصدقائي ؟ – هل راجعت واستفدت من دروس أساتذتي ؟

– ويستمر هذا الإلحاح الواضح على التربية العائلية ، وتمتين الروابط الأسرية ، كما يتجلى هذا في قول " يوزى " ، أحد تلاميذ كونفوشيوس : " هناك صنف من الناس يمجد أباه وأمه ويحترم أهله وأقرباءه ، ثم إنه لجرىء أمام متجبر ذى سطوة ، حمل وديع بين ذوى قرباه ، وإنه لصنف نادر من البشر . وهناك من لا تبدو منهم هنة في حق رؤسائهم برغم ما جبلوا عليه من التمرد والعصيان ، وهؤلاء أيضا عز وجود أمثالهم بين الخلق ، لذا وجب على الماجد الشريف أن يتحلى بهذه الصفات ، فإذا تمكنت فيه صارت أصلا ، فإذا صارت أصلا أنبتت الإحسان ، وإن احترام الأهل وإكبار ذوى القربى لهما أفضل ما نبت من فرع الإحسان " (٥٨) .

– ومن غير أن يستخدم مصطلحاتنا التى نستخدمها اليوم ، يعبر الحكيم الكبير عن نفس المعنى الذى نقصده عندما نفضل " التربية الوقائية " عن " التربية العلاجية " ، يقول الرجل : إن الهداية بقوة القانون ، والرشاد بسن العقوبة في متن نصوص التشريعات .. كل ذلك قد يجبر الناس على اجتناب الرذيلة ، لكنه لا يقنعهم بفداحتها . لا يبغضها فى نفوسهم تبغيضا ، أما الموعظة بمكارم الأخلاق والتهذيب ، بالحض على التقوى ومحامد السلوك فإنه يوقد الخشية فى القلوب .. يلهب الرعب فى الضمائر ، ويقود النفوس بزمام إرادتها .. طائعة مختارة إلى صادق التوبة وأزكى المثاب " .

– وتحدث كونفوشيوس عن تلميذه " زيشان " فقال ، به أربع خصال تؤهله للسؤدد والشرف : التواضع الجم فى مسلكه الشخصى ، التفانى والاحترام فى سلوكه مع رؤسائه ، الإخلاص والعطف مع المرؤوسين ، العدالة والإنصاف فى تصريف شئون عامة الناس (٥٩) .

– وقال أيضا : " ثلاث خصال كان يذمها الماجد الفاضل " تسوشومسنغ " أحد رجال البلاط فى مملكة " لوجو " . كان معاصرا لكونفوشيوس وكذلك أذمها ، واستصغر شأن من اتسمت بها أخلاقه : " قول ظاهره معسول وباطنه سم ناقع ، ثم وجه زائف ،

يقطر بشاشة ، ويخفى ضغائن ، وتبجيل مسرف ، يوحى باحترام صادق ، وتحوشه دواهى .. الفتن والكراهية .. تبا للنفاق ، فما ذم تسوشيو مينغ أحدا كمن تقنع بالود ، وطيب المعشر ، بينما سريرته مترعة بالحقد وسوء الظن ، فبئست الخصلة ومن والاها " .

وبعد موت كونفوشيوس عام ٤٧٩ ق.م تفرق تلاميذه (ويروى أنهم كانوا سبعين تلميذا) ، ونشأت منهم مدارس كونفوشيوسية متعددة ، وأهم شخصيتين بين هؤلاء التلاميذ هما " منشيوس Mencuis " ٣٩٠ ٣٠٥ ق.م . و " هسون تسو Husn- Yzu " . ولقد ذهب واحد من الفلاسفة الصينيين المحدثين إلى تشبيه مكانة كونفوشيوس فى تاريخ الصين بمكانة سقراط فى تاريخ الغرب ، كما شبه منشيوس (المثالى فى مزاجه الخاص فى فلسفته) بأفلاطون ، وهسون تسو ، الواقعى ، بأرسطو ، ويشكل كونفوشيوس ، ومنشيوس ، وهسون تسو نوعا من الثالوث بوصفهم الاباء المؤسسين للكونفوشيوسية (٦٠) .

اللغة والكتابة :

إذا كان الاختلاف بين لغات العالم أمر مسلم به ، لكن لغة الصينيين تختلف عن غيرها أشد الاختلاف فى العديد من الأوجه، ذلك أنها ليست لها حروف ولا هجاء ولا نحو ، ولا تنقسم إلى أسماء وأفعال وحروف ، وإن كان المرء لابد أن يترك مساحة لاحتمال أن هذه اللغة فى التاريخ القديم قد كان لها اشتقاق ونحو وصرف وإعراب وتثنية وجمع وأفعال ماضية وحاضرة ومستقبلة (٦١) ، ومع ذلك فهذا مجرد احتمال ، ذلك أننا لا نجد مع الأسف الشديد أثرا لشىء من هذا فيما ترك لنا من أقدم الاثار اللغوية الصينية ، فكل كلمة فيها قد تكون اسما أو فعلا أو صفة أو ظرفا بحسب سياقها وطريقة النطق بها .

والرموز الكتابية الصينية تمثل أفكارا لا أصواتا ، فاللغة الصينية لغة ذهنية idiographic لا صوتية ، وتبعا لهذا كثرت رموزها لتطابق أفكارها . وليست لهذه الرموز أصوات ، فمثلها كمثل الأرقام الحسابية فمعناها تميزه العين قبل أن تدركه الأذن : ومن المستحيل أن نقدر العدد الذى تتكون منه رموز هذه اللغة ، ويقدره خبراء ، فيما

عدا المترادفات والكلمات غير المستعملة بما يقرب من ٢٥ ألف رمز ٠ وإذا حسبنا عدد هذه الرموز بعد أن تدخل عليها العلامات المشددة ، وجدنا أنه يزيد على ٢٦ ألف رمز ٠ وإذا تذكرنا أن هذه الرموز لابد من أن تحفظ عن ظهر قلب كما تحفظ حروفنا الأبجدية ، تصورنا مقدار المجهود الشاق الملقى على عاتق التلميذ (٦٢) ٠

وعلى أية حال ، فمعظم هذه الرموز نادرا ما يستخدم ، وكتبهم التسعة المقدسة – التى يتكون منها معظم مادة التربية – لا تحتوى فى الواقع على أكثر من خمسة آلاف رمز ٠ زد على ذلك أن هناك ستة نماذج مختلفة للكتابة اليدوية تشبه الكتابة الرومانية والكتابة المائلة والحروف السوداء فى الإنجليزية ، وهذه النماذج أو الطرق الستة هى طريقة التنميق ، الطريقة الرسمية ، الطريقة الأدبية أو النموذجية ، الطريقة العادية ، الطريقة الجارية ، طريقة الزاوية المشابهة للطباعة – ومن الواجب معرفة عدد معين من هذه الأشكال – ولكن الأهم من هذا – فيما يختص بالتلميذ – يجب أن نتذكر أن هذه اللغة المدرسية لغة ميتة من الناحية العملية ، وبذلك انقطعت صلاتها باللغة التى يستعملها فى حياته اليومية (٦٣) ٠

وقبل أن يكتشف الصينيون الورق كانوا يستخدمون للكتابة شرائط طويلة مصنوعة من أعواد البامبو ، ثم درع السلحفاة والعظام وألواح الخشب والأحجار وأوانى النحاس ٠٠ إلخ ، بينما لجأوا إلى استخدام الحرير أيضا (٦٤) ، وقد كتبت النصوص الطويلة على شرائط البامبو وعلى الحرير ، بينما كتبت النصوص القصيرة (المعادلات السحرية المختلفة ، أسماء الناس إلخ) على مواد أخرى ٠ وكان البامبو يقسم إلى شرائط طويلة بحيث كان يمكن أن يكتب عليها عموديا سطرا أو سطرين أو عدة سطور ، وفى رأ س الشريط كان هناك ثقب بحيث كان يمكن أن تجمع عدة شرائط معا ٠ وهذا الشكل للكتاب كان يبدو أيضا عندما تتم الكتابة على مواد أخرى كألواح العظام والخشب ، كانت ألواح الخشب أعرض من شرائط البامبو ، ولذلك كان يمكن أن تكتب بها سطور عمودية أكثر ٠ أما الحرير فقد كانت له ميزة كبيرة على الأنواع الأخرى المذكورة لأنه كان لينا ومناسبا للكتابة مما كان يجعله شبيها بورق البردى فى مصر (٦٥) ٠

وفى القرن الخامس الميلادى سجل لنا مؤرخ البلاط " فان يه " كيف ان " تساى لون " اكتشف سنة ١٠٥م طريقة لإنتاج الورق ، نظرا لأن الحرير كان غاليا وشراط البامبو ثقيلة مما كان يجعلها غير مناسبة للكتابة ، وكما يضيف المؤرخ فان يه ، فإن الورق منذ ذلك الحين أصبح يستخدم فى كل مكان . إلا أن المؤرخين اليوم لديهم ما يجعلهم يعتقدون أن اكتشاف الوسيلة لإنتاج الورق لا يرتبط بفرد واحد بل بسلسلة من الاكتشافات والإضافات للأفراد الذين سبقوا تساى لون ، وعلى كل حال فإن هذا الرأى يدعمه الان اكتشاف قطعة من الورق تعتبر أقدم قطعة ورق معروفة حتى الأن ، وهى تسبق تقرير تساى سنة ١٠٥م (٦٦) .

وقد سجل لنا المؤرخ فان يه أن تساى لون قد استخدم لإنتاج الورق لحاء الشجر والحبال القديمة والخرق البالية وشبكات الصيد القديمة . وقد عمد تساى إلى طحن هذه المواد الأولية وإضافة الماء من حين إلى آخر حتى توافرت له عجينة ، ثم فرش هذه العجينة على شكل شريحة رقيقة فوق مصفاة ، وحين جف الماء أخذ شريحة الورق ودقها لكى تجف تماما ، وبهذا الأسلوب توصل تساى لون إلى طبق رقيق ومتين من الورق (٦٧) .

وكان الصينيون فى عصورهم الكلاسيكية يعمدون إلى الإكثار من الكتب عن طريق النسخ ، ونظرا لتعقيد الكتابة الصينية فإن النسخ كان عملا مرهقا بالنسبة للناسخ الصينى ، وذلك بالمقارنة مع عمل زملائهم فى حوض المتوسط ، ولذلك فليس من المستغرب أن النساخ الصينيين كانوا يرتكبون أخطاء كبيرة مما كانوا يتسببون فى مشاكل مشابهة لتلك التى كان يتورط بها النساخ فى اليونان أو فى أوربا . ومن هنا فقد كانت طبقة رجال الدين القوية تهتم دائما بهذه المشاكل ، وبالتحديد فى كيفية الحفاظ على الشكل الأصلى للنصوص الدينية المقدسة سواء كانت كونفوشيوسية أو بوذية (٦٨) .

معالـــم فكر تربـــوى :

على الرغم من أننا حرصنا ، ونحن نعرض لفكر كونفوشيوس أن نركز على كل ماله صلة بالعملية التربوية ، مما يضع هذا تحت مظلة الفكر التربوى ، لكننا آثرنا أن

نزيد على هذا بالجزء الحالى تأكيدا على الأبعاد التربوية فى فكر كونفوشيوس خاصة وأنه اعتبر بحق الوجه الصينى الغالب للتربية فى هذه الحضارة العظيمة .

لقد كان كونفوشيوس بطبيعة الحال أبرز المربين الصينيين ، إذ مارس رسالته معلما أو حكيما أكثر تبكيرا فى حياته من معظم زعماء البشرية ، وما أن بلغ سن الثانية والعشرين حتى ذاع صيته فعلا لحكمته ولحياته المستقيمة معا ، وفضلا عن ذلك كانت له موهبة عظيمة فى الفصاحة ، ولما شجعه نفر من عشيرته المتحمسين ، قرر أن يفتتح مدرسة فى داره كما سبق أن أشرنا ، ولم يشترط شروطا معينة فى من يريد الالتحاق بها ، بل إن المصروفات التى كان يطالب بها التلاميذ لم تكن موحدة ، إذ أن الذى يحددها هو قدرة التلميذ على الدفع .

كذلك وضح من أجزاء سابقة أن كونفوشيوس كان حريصا أشد ما يكون الحرص على ألا يحلق بتلاميذه فى أجواء التجريد والتنظير الموغل فى الميتافيزيقية ، وإنما الالتزام بتدريس " موضوعات " ذات صلة بالحياة التى يعيشها التلاميذ ، وبالحياة التى ينبغى لهم أن يعيشوها ، على ألا نفهم من ذلك وقوعا فى جب الميتافيزيقا ، ولكنها صورة من صور المثالية التى ينشدها معلم ومصلح اجتماعى ينشد التغيير والتطوير إلى ما هو أفضل ، ومن هنا كان تركيزه على ما يسمى بالسلوك العام ، فضلا عن إيمانه بقيمة الشعر والموسيقى فى العملية التعليمية (٦٩) .

وإذا كانت عملية التعليم فى مدرسة كونفوشيوس تتفق مع مدارس الأرستقراطية التى كانت قائمة ، من حيث تهيئة الدارس ليكون موظفا حكوميا ، إلا أن الغاية من التدريس انصبت فى الحالة الأولى على تنشئة الدارس تنشئة أخلاقية وتنمية مداركه العقلية ليلعب دورا حيويا مؤثرا فى الحكومة التى قد يشترك فيها بإخضاعها لخدمة احتياجات الشعب ، فى حين اتجهت غاية التثقيف فى المدارس الأرستقراطية إلى تمكين موظف الدولة من مباشرة أعمال تقليدية معينة تخدم أهداف الحاكم ، وبذلك يتحول الموظف فى هذه الحالة إلى مجرد أداة طيعة فى يدى صاحب السلطان (٧٠) .

والمعرفة عند كونفوشيوس اكتسابية وليست إلهامية ، وقد أكد ذلك في عدة مناسبات ، فقد كان يقول إنه ليس شخصا " ولد عارفا للحقيقة " . وإنما مصدر معرفته هو القراءة والدراسة الكثيفة والملاحظة ، لقد كان دائم الملاحظة لرفاق دربه ، فيأخذ ما هو صالح عند أحدهم ، ويمعن فيما هو سيء عند آخر ليصون نفسه عن إتيانه ، إن الإنسان يولد والمعرفة ممتنعة عليه فيما يرى كونفوشيوس ، فهو يولد جاهلا أية معلومات أو حقائق علمية ، لأن عقله فى هذه الحالة أشبه ما يكون بالصفحة البيضاء ، وعليه بعد ذلك أن يجتهد فى معرفة هذه الحقائق عن طريق الدراسة والبحث والتحصيل (٧١) .

ولكن كونفوشيوس ، يشير من ناحية أخرى فى كتاب " المنتخبات " أو " المختارات " إلى وجود نوعين من الحكماء : أولئك الذين ولدوا وهم ذوو معرفة ألهمتهم بها السماء دون مجهود شخصى من جانبهم ، وبغير أن يكونوا على وعى بمعرفتهم ، وهؤلاء الحكماء الموحى إليهم هم الأفضل . أما النوع الثانى من الحكماء ، فهم أولئك الذين يتعلمون ويعملون على كسب الحكمة بدراساتهم المتواصلة الاجتهادية ، وهؤلاء فى نظره ، هم أبناء الأرض ، الموكل إليهم عن طريق مجهوداتهم الخاصة ، حماية أنفسهم من الهوى والشر ، فإذا نجحوا فى هذا اقتربوا من درجة الحكماء الملهمين أبناء السماء المشتملين على الأسرار الإلهية العظيمة .

وكان بعض الطلاب – وقد بلغ عددهم فى وقت من الأوقات سبعين طالبا – يعيشون معه كما يعيش الطلاب الهنود المبتدئون مع مدرسيهم (الجورو) ، ونشأت بين المدرس وتلاميذه صلات ود وثيقة دفعت هؤلاء التلاميذ فى بعض الأحيان إلى الاحتجاج على أستاذهم حين رأوه يعرض نفسه للخطر أو اسمه للمهانة . وكان رغم شدته عليهم يحب بعضهم أكثر مما يحب ابنه ، ولما مات تلميذه " هوى " بكى عليه حتى قرحت دموعه مآقيه ، وسأله دوق جاى يوما من الأيام : أى تلاميذه أحبهم إلى العلم ؟ فأجابه : " لقد كان أحبهم إلى العلم ين هوى ، لقد كان يحب أن يتعلم ، ولم أسمع بعد عن إنسان يحب أن يتعلم (كما كان يحب هوى) .. لم يقدم لى هوى معونة ، ولم أقل قط شيئا لم يبتهج له ... وكان إذا غضب كظم غيظه ، وإذا أخطأ مرة لم يعد إلى خطئه .." (٧٢) .

وتتوالى تعاليمه لتلاميذه (٧٣) :

– إن كلا من الحاكم والملك يأمر كبير وزرائه أن يبلغ دروسه فى الفضيلة إلى ملايين الناس ·

– يجب على الأبناء – فى خدمة والديهم – عند صيحة الديك الأولى ، أن يغسلوا أيديهم ، ويمضمضوا أفواههم ، ويمشطوا شعورهم ويغطوها بغطاء حريرى ، ويثبتوه بالدبابيس ، ويربطوا الشعر عند منابته بعصابة ، ويمسحوا ما كان عالقا من الأتربة بالأجزاء غير المغطاة ، ثم يرتدوا غطاء رؤوسهم تاركين نهايات الأربطة مرسلة ، وبعدئذ يجب عليهم أن يرتدوا سترهم السوداء المناسبة ، وأن يغطوا ركبهم بغطاء يثبتون فيه ألواحهم الصغيرة ، وعليهم أن يعلقوا أدواتهم المناسبة التى سيستعملونها على يمين المنطقة وعلى يسارها ، فعلى الجانب الأيسر توضع الممسحة والمنديل والسكين والمسن ومسمار ومرآة لإشعال النار فى الشمس ، وعلى الجانب الأيمن قمع للإبهام وسوار يلبس على الذراع وإسطوانة توضع فيها آلات الكتابة وحافظة للسكين ومسمار كبير وملقط لالتقاط النار من الخشب · ويجب عليهم أيضا أن يرتدوا عقودهم وأن يحكموا رباط أحذيتهم ·

ومن الملاحظ من استقراء النصوص الموجهة لتربية الصغار والكبار على حد سواء ، أنها لا تحوى أى تصوير عما كانت بعض الشعوب تزعمه لفساد أخلاق الآلهة التى تصوروها ، كما هو الحال فى الآداب اللاتينية لدى الإغريق أو فساد أخلاق الرجال كما هى الحال لدى اليهود · كما أنها لا تتضمن أى مبالغات كما فى أساطير أغلب الشعوب ، بل على العكس تجدها تعمل على بث الفضائل لمجتمع لا يلحقه التغير ولا التقدم ولشعب له وجهة نظر مادية وضيقة نحو هذه الحياة ، وهنا لا نجد تعاليم تلهم الفرد أو يشتم منها عبير المثالية حتى أن ما لديهم من مبادىء خلقية قليلة نراها مؤسسة بحذافيرها على تقاليد غير معقولة ومستندة إلى سلطة مطلقة (٧٤) ·

وكان كونفوشيوس يعتقد أن البعد عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم ، وكان شديد المراعاة للمراسم التى نقصد بها الآن أصول المعاملات الاجتماعية العامة ، ومن هنا قيل بحق أن قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه ، وكان يبذل قصارى جهده للحد من سطوة الغرائز وكبح جماحها ، وذلك بالالتزام الدقيق الحازم

بعقيدته الصارمة . ويبدو أنه كان يزكى نفسه فى بعض الأحيان ، لا عن غرور وعجب بالنفس وإنما عن تقدير حقيقى وثقة بالذات ، ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوما من الأيام مقولة فيها بعض التواضع : " قد يوجد فى كفر من كل عشر أسر رجل مثلى .. نبلى وإخلاصى ، ولكنه لن يكون مولعا بالعلم مثلى " ، وقال مرة أخرى : " قد أكون فى الأدب مساويا لغيرى من الناس ، ولكن " خلق " الرجل الأعلى الذى لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعده " (٧٥) .

ومع هذا فإننا يمكن أن نشير بصفة عامة أن حكيمنا كان على درجة عالية من التواضع ، وهو فى أوج عظمته ، ومن هنا فقد أكد لنا تلاميذه أنه كان يخلو من أربعة عيوب قاتلة قد لا يبرأ منها كثير من الناس ، أولها أنه كان لا يجادل وفى عقله حكم سابق مقرر ، كما أن لم يتعمد التحكم فى الناس لفرض عقائده عليهم ، وأخيرا فإنه كان بعيدا عن العناد وكذلك عن الأنانية . ولعل ما يشير إلى تواضعه قوله عن نفسه أنه كان ناقلا أكثر منه مبدعا ومنشئا . وفى هذا الصدد كان كثيرا ما يردد نصيحة غالية لهؤلاء الذين يتطلعون إلى المناصب العالية بضرورة أن يحرص المرء أكثر على أن تتوافر فيه تلك المهارات والمقومات والصفات التى تؤهله لشغل هذا الموقع أو ذاك ، أما شغله بالفعل ، فلا ينبغى أن يكون هو الهدف ، وليس مهما أن الناس لا يعرفوك ، ولكن المهم أن تكون خليقا بأن يعرفك الناس (٧٦).

وقد كانت الميزة الكبرى لطرق التربية الصينية هى اعتمادها بطريق مباشر على التقليد ، وهى فى مراحلها الأولى ما هى إلا تمرين للذاكرة ، ولذلك أصبحت المدرسة الصينية مدرسة " عالية الصوت " (٧٧) ، فيناول كل طفل النصوص المناسبة ويكرر قراءتها بصوت مرتفع حتى يحفظها عن ظهر قلب ، وعندما يتم النصوص ، يقلب كتابه ، ويحاول استرجاعها ، فيسلم كتابه للمدرس ويعطيه ظهره ويبدأ فى استرجاع ما حفظه بصوت عال وسرعة فائقة دون أن يكون على علم ما بمعنى ما يسترجع .

وكانت كتابة المقالات هى أبرز منتجات هذه التربية مما جعل منها مقياسا يكشف عن مدى كفاءة المتعلم ، لكن هذه الكفاءة كانت تتبدى فقط فى القدرة على التقليد ، فالكاتب الناجح فى الأدب ، من وجهة نظر هذه التربية هو هذا الذى يمكنه تقليد نظم

الشعر ومراعاة قافيته ، ويجيد السجع فى النثر ، فكأن الهدف الأسمى الذى كانت ترمى إليه المدرسة هو تكوين القدرة على كتابة المقالات المتشابهة فى الشكل وفى التركيب والمتقاربة فى الروح والعاطفة والتى تشبه " الأمثال " و " المزامير " (٧٨) .

تنظيـــم التعليـــم :

لم تؤسس الحكومة الصينية فى الزمن القديم مدارس نظامية لتعليم الشعب ، إذ كان من الصعب جدا إدارة مدارس تكفى لأمة بمثل ضخامة الأمة الصينية ، لكن الحكومة رأت أن يكفيها أن تشجع التعليم بألا تقبل فى وظائفها العادية ولا مراكزها السامية إلا من كان متعلما ، وبذا أسست الحكومة لجنة امتحان أعضاؤها هم " هان لن " أو " المجمع العلمى " فى بكين ، فنظم المجمع امتحانات فى مواعيد محددة كل سنة أو مرة كل سنتين بحسب أهمية الامتحان ، وكان باب الامتحان مفتوحا للجميع ما عدا أبناء الحلاقين ومن شاكلهم ، وإن كنا لا نعلم لماذا ؟ (٧٩) .

وكان نظام هذه الامتحانات تاما بمعنى الكلمة سنة ٧٠٠م ، على أن التعليم كان منتشرا فى جميع أنحاء الصين فى زمن كونفوشيوس ، أى فى القرن السادس ق.م ، والأعجب من هذا أن المدارس كانت كثيرة قبل كونفوشيوس بقرون عدة ، وكان للتربية منزلة رفيعة فى أعين المفكرين والحكام . ويذكر أحد المؤرخين أن الصينيين كانوا يهتمون بالتربية منذ سنة ٢٠٠٠ق.م ، فكان الحكام يلاحظون المدارس والكليات بأنفسم وتعلم فى هذه المعاهد أبناء الأشراف فى زمن الإقطاعيات ، أما فى عصر كونفوشيوس ، فقد كان عصر اضمحلال فجاء هذا المصلح ليعيد للتربية الصينية مجدها السابق ، وكان غرضه هو وأتباعه ألا تكون المراكز والوظائف وراثية ، بل يجب أن تكون لمن يظهر تفوقا على إخوانه فى امتحان مسابقة عامة ، وانتشرت امتحانات المسابقة انتشارا عظيما فى القرن الثامن قبل الميلاد (٨٠) .

وعندما قبضت أسرة " تشو " على زمام الحكم سنة ١١١٥ ق.م اعتادت الحكومة أن تمتحن طالبى التوظف ، وكان الصينيون فى ذلك الوقت قد بلغوا درجة عظيمة فى التربية ، ولذا كانوا يمتحنون طالب التوظف فى الفنون الجميلة وهى : الموسيقى والرماية والفروسية والكتابة والحساب ، وكان على الطالب أن يكون ملما إلماما تاما

بالآداب العمومية وآداب المجتمعات ، وعدوا هذا فنا جميلا سادسا ، فهذه التربية السداسية تذكرنا بالمنهج الثلاثى والمنهج الرباعى فى المدارس الأوربية فى القرون الوسطى ٠

وفى القرن الثامن قبل الميلاد كانت تعاليم كونفوشيوس قد انتشرت ، ولذلك تحتم على الطالب أن يبرهن على حسن سلوكه وأمانته ، وكان امتحان التوظيف قسمين :

١ - مهارتهم فى الفنون الجميلة الستة الى سبق ذكرها ٠

٢ - إلمامهم بواحد أو اثنين من العلوم الاتية : القانون المدنى - الأعمال الحربية - الزراعة - جباية وإدارة الأموال - جغرافية الإمبراطورية مع التفات خاص إلى طرق المواصلات المائية (٨١) ٠

وكانت الامتحانات تنقسم إلى أقسام ثلاثة (٨٢) :

١ - امتحانات الدرجة الأولى وتجرى مرة كل ثلاثة أعوام ، ويطلب من الطالب فيها أن ينشيء ثلاث رسائل فى موضوعات مختارة من كتاب كونفوشيوس ، ويوضع فى حجرة خاصة مفصلا عن غيره حيث يمكث ٢٤ ساعة وهو يجهد عقله فى كتابة الموضوعات ونسبة النجاح فى هذه الامتحانات ضئيلة جدا ولا تتجاوز ٤٪٠

٢ - امتحانات الدرجة الثانية ، وتقام بعد مضى أربعة أشهر على امتحانات الدرجة الأولى ، وتجرى مرة كل ثلاثة أعوام أيضا وتدوم ثلاثة أيام وتشبه فى أسلوبها ونهجها الامتحانات الأولية ، إلا أنها أهم منها وأكثر صعوبة ، ونسبة النجاح فيها ضئيلة أيضا لا تتجاوز ١٪ ٠

٣ - امتحانات الدرجة الثالثة ، وتقام فى العاصمة وتدوم ثلاثة عشر يوما ونسبة النجاح فيها أكبر منها من الامتحانات السابقة ، ومن الأمثلة التى يسأل فيها الطلاب :

ا - أن يكون الإنسان مقتدرا ويطلب المعونة من العاجزين ٠ أن يكون الإنسان عالما ويطلب العلم من الجهال ، وأن يكون غنيا ويظهر بمظاهر الفقر ٠

ب - يجب أن يكون الرجل المخلص ذكيا ، ويجب أن يكون الرجل الذكى أمينا ٠٠

وإذا كنا لم نشهد نظاما تعليميا حكوميا إلا أننا نلاحظ انتشار مدارس القرى . وهى معاهد خاصة ساذجة لا تزيد قليلا عن حجرة واحدة فى كوخ صغير . كان يدرس فيها معلم واحد ويتناول أجرة من آباء التلاميذ ، وكان أجرا ضئيلا (٨٣) ، ولم يكن يتجه إلى الالتحاق بهذه المدارس إلا أبناء القادرين ، أما الفقراء فلم تتح لهم فرصة التعليم . وغالبا ما كانت تأخذ المدرسة مكانها فى معبد من المعابد إذا لم تجد كوخا مناسبا أو سقيفة أو ركنا يأوى التلاميذ ، ولم تكن هناك مدارس للبنات ولا تعليم لغالبية التلاميذ بعد سن الخامسة عشر ، ولم يتعد الذين جاوزوا التعليم الابتدائى " الأولى " هذا أكثر من خمسة فى المائة .

على أن الدراسة بهذه المدارس المتواضعة خضعت لنظام صارم فكان الأطفال يأتون مع مطلع الشمس ويدرسون إلى قرب المغيب ، ولهم فترات راحة يتناولون فيها طعامهم ، وفى هذه المدارس كان التلاميذ يتعلمون القراءة والكتابة ومبادىء الحساب وشيئا من كتابات كونفوشيوس وبعض الشعر ، ووصفت اللغة التى استخدمت بالمدارس ، كما سبق أن أشرنا ، بأنها لغة ميتة لا تستخدم خارجها ، ولهذا فإن العمل المدرسى لم يكن يعنى الكثير عند التلاميذ ، خاصة أن المعلم كان يلجأ إلى تحفيظهم عن ظهر قلب ، وإلى استخدام العصا لتأكيد هذا الأسلوب فى التعليم (٨٤) .

وإذا كان غرض التربية فى مراحل التعليم الأولية فى التربية الصينية هو أن يلم الصينى باللغة والآداب المقدسة ، فمعنى هذا أن البنت لم يكن لها أى تقدير ولا منزلة فى تعليمهم الأدبى ، أو فى معاهدهم التربوية ، ونقصد بالإلمام هنا معرفة حرفية مطلقة للآداب بحذافيرها ومقدرة على إنشاء أسلوب شكلى ونمطى فى كتاباتهم (٨٥) .

وإذا كانت مرحلة التعليم الأولى مخصصة لاستذكار أشكال الرموز المختلفة وذلك بحفظ بعض النصوص التى أجمع على اختيارها وحفظ الكتب الدينية التسعة ، فإن المرحلة الثانية كانت مخصصة للترجمة ، أى حل تلك الرموز . وكما أن المرحلة الأولى كانت مخصصة بمجرد استذكار أشكال هذه النصوص والدروس الإنشائية ، فالمرحلة الثانية هى مرحلة قراءة فعلية ، بمعنى ترجمة تلك النصوص . أما المرحلة الثالثة فهى مخصصة لكتابة المقالات الإنشائية حتى يكتسب التلاميذ فى هذا الجانب

مهارة كافية تمكنهم من النجاح فى الامتحانات ، ويتطلب هذا التدريب على تحرير المقالات دراسة لصور الاداب وموادها ، ومن المرحلتين الأخيرتين يتألف التعليم العالى (٨٦) ٠

ولم يكن على المدرسين من حرج ولم يحتاجوا إلى شهادة خاصة فى فن التعليم ، لكن كان للحكومة الحق أن تغلق أى مدرسة وجدت أنها رديئة ٠ وكان الآباء يستعملون منتهى الحذر فى اختيار المعلم الذى يسلمونه أبناءهم ، وكان المدرسون فى الغالب من حملة شهادة الفنون الجميلة ، وأحيانا كانوا أرقى من ذلك ، وكثيرا ما كان العلماء يفضلون مهنة التعليم على وظائف الحكومة ، ولذلك كان المعلم أكثر الناس احتراما بعد حاكم المقاطعة ٠

ومن هنا فإن كونفوشيوس حرص على أن يضع للمعلم أربع قواعد هامة من المفروض أن يلتزم بها حتى يقوم بالواجب المنوط به ، هذه القواعد هى (٨٧) :

١ - يجب على المعلم أن يمنع العادات القبيحة قبل أن يكتسبها الطالب وتصبح سلوكا عاديا ، ذلك أن محاولة القضاء على عادة من العادات ، بعد أن تكون قد تكونت ، محاولة فاشلة فى أغلب الأحيان ٠

٢ - يجب أن يعطى المعلم المعلومات فى السن الملائمة لها ، إذ أن تعليم مادة خاصة بسن معينة بعد فوات السن المناسبة تعليم عديم الجدوى ٠

٣ - يجب التدرج فى إعطاء المعلومات ، بحيث يبدأ المعلم بالسهل وينتهى بالصعب ، فالمعلومات إذا لم تعط فى تدرج وتسلسل فإن هذا من شأنه أن يوجد البلبلة والتشويش فى عقلية الطلاب ومعلوماتهم ٠

٤ - يجب أن تعطى المعلومات للطلاب مجتمعين لا فرادى ، بهدف إثارة التنافس بينهم وتشجيع المجتهدين ٠ ثم إن تعليم طالب وحده منعزلا عن بقية زملائه من شأنه أن يعمل على تضييق أفق تفكيره ويجعل معلوماته ضئيلة ٠

وكان عدد الأطفال الذين يلتفون حول المعلم فى مدرسة القرية يتراوح بين العشرين والأربعين ، وكانت ساعات التعليم من شروق الشمس إلى الساعة العاشرة صباحا ، وبعدها يذهب الأطفال إلى منازلهم للغذاء ، ثم من الساعة الحادية عشر إلى الخامسة

مساء . وكان للمدرس مكتب ومقعد ، وكل تلميذ يجلب من منزله سندا و سعدا لنفسه ، ويدخل التلميذ المدرسة فى سن السابعة تقريبا ، وعندما يدخل الطفل المدرسة ، تقيم أسرته الأفراح احتفالا بذلك ، وأول عمل يعمله الطفل عند التحاقه بمدرسة . هو حرق البخور أمام مذبح كونفوشيوس ، وإذا لم يوجد مذبح ، فكل ورقة عليها اسم ذلك المصلح الكبير تكفى للغرض ، وبعد ذلك يحيى أستاذه بكل احترام ووقار (٨٨) . وعند مجىء التلاميذ ينحنون أمام صورة إله العلم وهى من أقبح الصور . ثم ينحنون للمعلم وبعد ذلك يجلسون !!

وثمة نقطة أخرى تتعلق بطبيعة التربية الصينية ، جدير بنا أن نشير إليها . فبينما يخصص للتعليم معهد خاص ، هو المدرسة ، فإن الأسرة كانت تقوم بتمهيد الأساس له بصفة خاصة ، فغرس الأخلاق لدى الصينيين هو من مهام الأسرة ومحتويات أدبهم المقدس مرتبطة ارتباطا تاما بهذه العلاقات ·· وكانت ديانتهم عبادة السلف وأن تقوى الأبناء هى أعظم فضيلة لديهم ، بل هى سيدة الفضائل ، والأسرة فى الحقيقة هى أساس النظام الاجتماعى ، وذلك لأن خطيئة الآباء قد يعاقب عليها الأبناء . على أن تشريعاتهم وأخلاقهم لا تخرج فى روحها عن الروح والقواعد التى رسمتها العلاقات العائلية ، وبهذا الشكل ، تسيطر الأسرة على المجتمع كما سيطرت نسبة الحياة إلى الجماد على الشعوب البدائية (٨٩) .

ويشهد كثير من الباحثين الموثوق بهم أنه ليس هناك أى مجتمع من المجتمعات ترى فيه التربية شكلية وتغلب عليها الصبغة الأدبية ، ولها من النفوذ العظيم ما للتربية فى الصين ، وبأنه ليس هناك أى مكان آخر كان للتربية فيه نفوذ مباشر ودائم فى صبغ خلق الشعب بصبغة خاصة ، وبأنه ليس هناك أى مكان آخر توجد فيه مظاهر نشاط التربية وعملياتها مثل الصين . وعلى هذا أصبحت بلاد الوحدة المطلقة ، نتيجة لنظم تربيتها ، فهى بلاد العرف والتقاليد المرعية ، وهى البلاد التى لا يسمح فيها بأى تغيير فى الطرق المعهودة فى التفكير والوجدان والعمل ، وإن حدث مثل هذا التغيير فهو نادر ، ومع ذلك فالتربية محدودة فى موادها ، شكلية فى طرقها ، وعلى نمط واحد لا يتغير فى تنظيمها (٩٠) .

الهوامـــــش

١- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، م١ ، ج٤ ، ص١١

٢- كامل سعفان : معتقدات آسيوية ، دار الندى ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ٢٤٥

٣-جوزيف ندهام : موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين ، ترجمة محمد غريب جودة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ، ١٩٩٥ ، ص ٤٨

٤- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٥- المرجع السابق ، ص ٤٩

٦- المرجع السابق ، ص ٥٣

٧- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٤ ، ص ١٣

٨- المرجع السابق ، ص ٢٣

٩- جون كول : الفكر الشرقى القديم ، ترجمة كامل يوسف حسين ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والإعلام ، الكويت ، سلسلة أعلام العرب (١٩٩) ، يوليو ١٩٩٥ ، ص ٣٣١

١٠- المرجع السابق ، ص ٣٣٢

١١- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٤ ، ص ٢٨

١٢- المرجع السابق ، ص ٢٩

١٣- كامل سعفان : معتقدات آسيوية ، مرجع سابق ، ص٢٥٤

١٤- المرجع السابق ، ص ٢٥٥

١٥- هيجل : محاضرات فى فلسفة التاريخ ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ج٢ ، ١٩٨٦ ، ص٦٨

١٦- المرجع السابق ، ص ٧٠

١٧- المرجع السابق ، ص٧١

١٨- المرجع السابق ، ص ٧٢

١٩- كامل سعفان : معتقدات آسيوية ، مرجع سابق ، ص ٢٦٣

٢٠- ا.و.ف. توملين : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبد الحليم سليم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٨١

٢١- المرجع السابق ، ص ٣٨٣

٢٢- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٤ ، ص ٣١

٢٣- المرجع السابق ، ص ٣٤

٢٤- لو تسو : الطريق إلى الفضيلة ، ترجمة علاء الديب ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٤٢

٢٥- المرجع السابق ، ص ٤٨

٢٦- المرجع السابق ، ص ٥٢

٢٧- المرجع السابق ، ص ٧٨

٢٨- المرجع السابق ، ص ٧٨

٢٩- المرجع السابق ، ص ٧٩

٣٠- المرجع السابق ، ص ٨٧

٣١- تاريخ العلم والحضارة فى الصين ، مرجع سابق ، ص ١٤٨

٣٢- المرجع السابق ، ص ١٤٩

٣٣- صلاح بسيونى رسلان : كونفوشيوس رائد الفكر الإنسانى ، دار قباء ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ٤٣

٣٤- المرجع السابق ، ص ٤٤

٣٥- محسن فرجانى (مترجم) : محاورات الرجل الذى اختار الإنسانية ، أخبار الأدب ، مؤسسة أخبار اليوم ، القاهرة ، ٢٢مارس ١٩٩٨

٣٦- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٤ ، ص ٤١

٣٧- المرجع السابق ، ص ٤٢

٣٨- محسن فرجانى ، مرجع سابق ،

٣٩- كامل سعفان ، معتقدات آسيوية ، ص ٢٦٩

٤٠- المرجع السابق ، ص ٢٧٠

٤١- كولر : الفكر الشرقى القديم ، مرجع سابق ، ص ٣٣٤

٤٢- توملين : فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ٢٨٩

٤٣-٥٠فان براج : حكمة الصين ، ترجمة موفق المشنوق ، الأهالى للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٩٩٨ ، ص ٩٧

٤٤- المرجع السابق ، ص ٩٨

٤٥- كولر : الفكر الشرقى القديم ، مرجع سابق ، ص ٣٥٠

٤٦- المرجع السابق ، ص ٣٥١
٤٧- كامل سعفان : معتقدات آسيوية ،مرجع سابق ، ص ٢٧٨
٤٨- صلاح رسلان ، كونفوشيوس ، مرجع سابق ، ص ٧٧
٤٩- المرجع السابق ، ص ٧٨
٥٠-جفرى بارندر(تحرير) : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (١٧٣) ، مايو ١٩٩٣ ، ص ٢٨٨
٥١- كولر : الفكر الشرقى القديم ، مرجع سابق ، ص ٣٥٦
٥٢- المرجع السابق ، ص ٣٥٧
٥٣- صلاح رسلان ، كونفوشيوس ، مرجع سابق ، ص٨٣
٥٤- بارندر : المعتقدات الدينية ، مرجع سابق ، ص ١٩
٥٥- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٤ ، ص ٥٤
٥٦- أنور عبد الملك : كونفوشيوس ، البعيد القريب ، جريدة الأهرام ، فى ١٩٩٧/٨/١٢
٥٧- محسن فرجانى ، أخبار الأدب ، ٢٢ مارس ١٩٩٨
٥٨- المرجع السابق .
٥٩- محسن فرجانى (مترجم) : محاورات كونفوشيوس، أخبار الأدب ، مؤسسة أخبار اليوم ، ١١ أبريل ، ١٩٩٩
٦٠- بارندر : المعتقدات الدينية ، مرجع سابق ، ص ٢٨٨
٦١- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٤ ، ص ٣٣٥
٦٢- بول مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، ترجمة صالح عبد العزيز ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ج١ ، ص ٢٦
٦٣- المرجع السابق ، ص ٢٧
٦٤- ألكسندر ستيبتشيفتش : تاريخ الكتاب ، ترجمة محمد م. الأرناؤوط ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، (١٦٩) ، يناير ١٩٩٣ ، القسم الأول ، ص ٤٧
٦٥- المرجع السابق ، ص ٤٨
٦٦- المرجع السابق ، الصفحة نفسها

٦٧- المرجع السابق ، ص ٤٩

٦٨- المرجع السابق ، ص ٥٠

٦٩- مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٠

٧٠ - صلاح رسلان : كونفوشيوس ، مرجع سابق ، ص ٦٠

٧١- المرجع السابق ، ص ٦٢

٧٢- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٤ ، ص ٤٢

٧٣- مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٠

٧٤- المرجع السابق ، ص ٢١

٧٥- ديورانت ، م١ ، ج٤ ، ٤٤

٧٦- المرجع السابق ، ص ٤٥

٧٧- مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٣٨

٧٨- المرجع السابق ، ص٣٩

٧٩- أحمد فهمى القطان : تاريخ التربية ، ج١ ، التربية قبل الإسلام ، مطبعة مدرسة طنطا الصناعية ، د.ن ، ١٩٢٣، ص ٨٤

٨٠- المرجع السابق ، ص ٨٥

٨١- المرجع السابق ، ص ٨٦

٨٢- عبد الله عبد الدايم : التربية عبر التاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٣٥

٨٣- سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٧٤

٨٤- المرجع السابق ، ص ٧٥

٨٥- مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٦

٨٦- المرجع السابق ، ص ٢٧

٨٧- صلاح رسلان : كونفوشيوس ، مرجع سابق ، ص ٦٦

٨٨- أحمد فهمى القطان : تاريخ التربية ، مرجع سابق ، ص٨٦

٨٩- مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٢

٩٠ - المرجع السابق ، ص ٢٥

الفصل السادس
التربيـــة الفارسيـــة

مقدمـــة :

على عكس ما نرى فى حضارتى وادى النيل والرافدين من حيث توافر مـادة مدونـة تنبؤنا بكثير مما يصور وقائع وأحداث الحضارتين ، فإننـا نـرى شـحا كبيرا فـى بعض الفترات بالنسبة للحضارة الفارسية ، على الرغم مما تشير إلينـا بـه بعض الآثـار مـن وجود مراكز حضارية متطورة إلى حد كبير ، وهذا بحد ذاتـه مـن شأنه أن يقـف حجـر عثرة أمام جهود التأريخ لهذه الحضارة .

لكن الطريق لم يكـن مسدودا تمامـا ، فقـد قضـت مسيرة الأحـداث أن ترتبـط بعض فترات التاريخ الفارسى بتاريخ بعض المراكز الحضارية المجاورة ، مثل بلادا الرافديـن واليونان ، وقد عنيت كتابات يونانية قديمة بذكر كثير عـن الشئون الفارسية بحكـم مـا قام من حروب بين الفـرس واليونـان ، وكذلـك قـامت هنـاك علاقـات بيـن بـلاد الفرس وبلدان أخرى فى مقدمتها بلاد الرومان التى واصلت الحرب معها بين حين وآخر .

ومع ذلك فإن هناك عددا من المؤرخين يتلقى مضمون هذه المدونات الخارجية عـن الشأن الفارسى بقدر من التحفظ ، ويشيرون إلى ملاحظات ، نذكر منـها (١) :

- بحكم نشأة العلاقة بين الفرس وغيرهم ممن أرخوا لهم ، فإننـا لا نجـد شـيئا فيمـا يتصل بتاريخ الفرس القديم ، وإنما نجد المعلومـات تبدأ فـى التوافر منـذ عهـد الدولـة الأخمينية ، ومن العسير تعويض هذه الثغرة الضخمة بالاستعانة بالمصادر المادية .
- أن الكم الأكبر من هذه المصـادر كتبهـا يونـانيون وروسـان وسـريان مسـيحيون أو أرمن وعرب مسلمون ، فإذا تنبهنا إلى أن العلاقات بين الفـرس وكـل هـؤلاء كـانت فـى معظم الأحوال تتسم بالتوتر والعداء ، كان من الطبيعى أن نتوقـع شـهادات تفتقـد العـدل عالى المستوى . كذلك فهؤلاء بحكم أنهم أغراب تفوتهم تفاصيل وتفسـيرات لا تمكنهـم من أن يصلوا إلى أحكام دقيقة علمية ، مما يجعل من هذه الشـهادات مشـوبة ، وليسـت على درجة كبيرة من الثقة (٢) .

– ثم إن هذه المدونات كانت تسلط اهتمامها فيما يهم أصحابها بالدرجة الأولى ، ومن هنا رأينا اهتماما بالتاريخ للحكام والقادة العسكريين ، وأخبار الحروب والتقلبات السياسية ، بل وصل الأمر إلى الاهتمام بمجالس هؤلاء القادة والحكام وما يجرى فيها ، لكن بقية الشرائح الاجتماعية ، فهناك تعتيم كبير عليها ، وأوضاع مظاهر التحضر المختلفة ، خارج دائرة الضوء ، وخاصة فيما يتعلق بحركة الثروة والعلاقات الاجتماعية وحركة الطبقات ٠

وإيران هى أقدم تسمية لبلاد الفرس ، وقد اشتق اسم إيران من المصطلح الجغرافى والسياسى : ارينام خشاثرام امبراطور الآريين الذى اشتق منه اسم المجموعة السكانية إيرانى ٠ ولا تذكر الكتابات الفارسية القديمة هذا الاسم ، ولكن اللقب الإدارى إيران شهر الذى شاع استخدامه لاحقا يذكرنا بالشكل القديم للفظة ، كما أن كتابات الافستا تشير بدورها إلى لفظة Khshathram والتى تعنى امبراطور (٣) ٠

أما عن أول استخدام مصطلح Arania بمدلوله السياسى فقد جاءنا عن الجغرافى إيراتوسثينس خازن مكتبة الإسكندرية ، بحدود منتصف القرن الثالث ق٠م٠وأقدم الإشارات إلى الأقوام الإيرانية تلك التى زودتنا بها الكتابات الأشورية ، فمنذ عهد الملك شليمنصر الثالث (منتصف القرن التاسع ق٠م) يرد من بين القبائل الإيرانية التى حاربها شليمنصر الثالث فى المنطقة المحصورة ما بين بحيرة اورميا (رضائية) وبين السهول العالية لهمدان ، ذكر Amadai-Mada ، وتحدد النصوص الأشورية مناطقهم شرق مياه البحيرة ، وهم الميديون ، ويرد أيضا ذكر Parsuash-parsa ، وكانوا يتمركزون غرب بحيرة أورميا ، وهم الفرس (٤)

الأصول الطبيعية :

يشير إلينا تأمل الخريطة الخاصة بإيران إلى ثلاث نقاط (٥) وهى :

– أنها هضبة تتوسط بين منطقة الأحراش (الاستبس) فى أواسط آسيا وبين سهول غربى آسيا ٠

– أنها أشبه بمثلث رأسه عند جبال زاجروس ويربط منطقة الأحراش أواسط آسيا من ناحية ، وهضبة آسيا الصغرى من ناحية أخرى ٠

- أن هذه الهضبة تقع بين منخفضين أحدهما فى الشمال وهو بحر قزوين ، والثانى فى الجنوب وهو الخليج (العربى) الفارسى ٠

وقد جعل موقع إيران الجغرافى منها معبرا للمواصلات البرية بين منطقة الشرق الأقصى فى آسيا ، ومناطق البحر الأبيض المتوسط وأوربا ٠ وقد حمت كهوفها قبل فجر التاريخ المدون الصيادين الذين كانوا من أقدم من انساحوا جنوبا نحو السهول الواطئة ليستقروا فى القرى ، وليزرعوا الحبوب ، وليربوا الحيوانات الأليفة ، كما أنها تعترض خطوط هجرات قبائل وسط آسيا مما أدى إلى استقرار كثير من القبائل فيها(٦)

وهضبة إيران جبلية تتخللها جبال يصل ارتفاعها فى بعض الحالات إلى ١٧٠٠ مترا عن سطح البحر ، وتوجد وديان خصبة بين تلك الجبال يتراوح طولها بين ٥٠ و ٧٠ كيلومترا وعرضها بين ١٢ و ٢٠ كيلومترا ، وتتوسطها المدن الهامة ٠ وتحت مستوى تلك الوديان تنبت على جوانب الجبال غابات كثيفة من أشجار البلوط والجوز واللوز والفستق ، وفى الوديان التى أقل منها ارتفاعا تنبت الفواكه الكثيرة وبخاصة العنب والتين والرمان ، كما يمكن زراعة بعض الحبوب مثل القمح والشعير والدخان وغير ذلك من الحاصلات ٠ وأكثر جبال إيران ارتفاعا هى قمة جبال دماوند على مقربة من الشاطىء الجنوبى لبحر قزوين (٧)٠

وقد جعل مناخها الجبلى الصحى سكان الجبال من أبنائها قوما شديدى المراس يحبون الحرية ، وساعدتهم طبيعة بلادهم على الوقوف فى وجه المعتدين فى جميع العصور ٠ وإذا كانت الهضبة الإيرانية فقيرة نسبيا فى الأنهار الكبيرة ، ففيها كثير من جداول المياه والبحيرات وينابيع المياه مما يسهل الإقامة فيها ، كما سمحت طبيعة أراضيها بوجود المراعى الكثيرة ، وفى جبالها معادن وفيرة وأحجار جيدة متعددة الأنواع (٨)٠

ومعلوماتنا قليلة عن سكان إيران الأولين - عصر ما قبل التاريخ - وقد سموا حينذاك بالقزوينيين أو القوقازيين ، ومميزاتهم الجسمية والجنسية ليست واضحة تماما رغم أن بين أيدينا مادة دقيقة تتمثل فى شواهد قائمة ، هى النقوش البارزة المنحوتة

فى الصخر فى كورانجون فى جنوب غربى إيران ، والتى يرجع تاريخها إلى حوالى ٢٥٠٠ ق٠م ، وهى تشتمل على نحوت واضحة لوجوه أربعين شخصا تقريبا من هؤلاء السكان (٩) ٠

ويظن أن القزوينيين اكتشفوا الزراعة قبل عام ٥٠٠٠ ق٠م وأنهم بدأوا يزرعون الأرض التى سميت إيران فيما بعد٠وقد أنتجت الزراعة طعاما أمكن الاعتماد عليه أكثر فى التموين وتيسير العيش ، ولابد أن السكان قد زادوا تبعا لذلك وأنهم انساحوا فى الأرض وانتشروا فى مناطق فسيحة منها ٠

وقرب نهاية العصر الحجرى الحديث - عصر الآلات الحجرية المصقولة - تناثرت القرى الكبيرة فوق السهول المنبسطة وكانت مستعمرة سكنية مملوءة ببيوت مزدحمة متقاربة ، ولم يكن هناك نظام منسق للشوارع والطرق ٠ ومن المرجح أن الأسلحة والأدوات البرونزية والأدوات الأخرى قد صنعت بكميات كبيرة بعد عام ٣٠٠٠ ق٠م نظرا لكمية البرونز التى استخرجت من الاكتشافات الأثرية (١٠) ٠

ويختلف المؤرخون فى الأقاليم التى سكنها الآريون ، الذين يمثلون الأصول الجنسية القديمة للإيرانيين ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يقيمون فى القوقاز ، وشمالى سيبريا ، وشمالى أوربا ووسطها ، وشمالى روسيا وشرقها وشمالى الهند ، وفى المنطقة التى تقع بين بحيرة أورال ونهر جيحون ، ثم هاجرت الطوائف الآرية بعد أن كثر عدد أفرادها ، فقد أجبرتها الظروف الاقتصادية على ذلك ٠ ويبدو أن هذه المعجرة كانت قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة ، وقد توجهت كل طائفة إلى ناحية ، واختارت الإقامة فيها ، فأقبلت طائفة من هذه القبائل الآرية من أواسط آسيا واحتلت الهضبة الإيرانية وسكنتها(١١)٠

وليس من السهل تحديد الزمن الذى قدم الآريون فيه إلى إيران ، وإن كان من المرجح أنهم دخلوها منذ أكثر من ألف عام قبل الميلاد ، ثم أخذت كل قبيلة منهم إلى ناحية من إيران وتنزل فيها ، وصارت الوديان تسمى بأسماء القبائل التى نزلتها وكانت أهمها ثلاث قبائل هى : ميديا ، فارس ، وبارز ٠ وقد نزل الميديون فى الأجزاء الغربية

للهضبة الإيرانية ، وفى كردستان والعراق العجمى ، بينما نزل الفرس فى الولايات الجنوبية الغربية التى أصبحت تعرف باسمهم ، ونزل البارزيون فى شرق إيران (١٢)٠

وبالإضافة إلى هذه القبائل الثلاث ، نزلت قبائل أخرى فى أنحاء مختلفة من إيران مثل الجرجانيين فى جرجان ، كما استمرت قبائل أخرى فى سيرها حتى جاوزت حدود إيران ونزلت فى الأنحاء الواقعة خلف نهر " أرس " مثل قبيلة " أران " التى نزلت فى القوقاز ، وتعد هذه القبائل – أيضا من مجموعة القبائل الآرية الإيرانية ، ولو أنها سكنت خارج حدود إيران ٠

التطور الاجتماعى والسياسى :

من المواقع الحضارية الإيرانية التى يرى البعض أنها موغلة فى القدم ، ما تكشف عنه حفائر " سيالك تبه " ، وهى فى الشمال الغربى من إيران ، على مقربة من مدينة قاشان فى الجنوب الشرقى من طهران ، حفرها جيرشمان وكتب عنها مؤلفا من جزئين ، وكان سكانها فى العصور القديمة يعيشون على حافة بحيرة كبيرة ، وكان هناك نهير يجرى إليها بالماء ، كما ساعدت خصوبة أرض تلك الواحة على زرع جزء كبير منها للحصول على الحبوب اللازمة للخبز ، وأحاطت الشجار بالبحيرة وكونت غابة كانت مرتعا لكثير من الطيور والحيوانات التى كانوا يصطادونها للانتفاع بها فى غذائهم(١٣)

وربما يرجع أقدم تاريخ للمنطقة إلى حوالى ٥٠٠٠ق٠م ، عندما كان السكان القدماء يستعملون فخارا أحمر مصقولا خاليا من النقوش ، ولكن فى عصر سيالك الأول نجد أن السكان صنعوا أنواعا مختلفة من الفخار وزخرفوه ، كما عرفوا أيضا نسج القماش ، وكانوا يصنعون لأنفسهم مساكن خفيفة من فروع الأشجار يطلونها بالطين ٠

ولا شك أن وصول سكان " سيالك " إلى معرفة صناعة الغزل ووصولهم إلى صناعة الفخار يشهد لهم بالتفوق ، ولكن تفوقهم الحقيقى كان فى الذوق الفنى فى زخرفة هذه الفخار بالألوان وتنويع أشكاله ، وقد عثر جيرشمان أيضا فى هذه الطبقة على بعض

الأدوات التى كان يستعملها أمثال هؤلاء السكان الذين كانوا ، إلى جانب الزراعة ، ما زالوا يعتمدون أيضا على الصيد (١٤) .

أما بالنسبة لبلاد " عيلام " (نيم بالسومرية ، ومعناها الأرض المرتفعة ، شوشيانا ، بلاد الشوش) السهول الجنوبية والجنوبية الشرقية من إيران (منطقة عربستان أو خوزستان) ، وهى امتداد لسهول العراق الطموية وتعتبر معه وحدة طبيعية وحضارية . ويصعب معرفة أصل العيلاميين والمنطقة التى قدموا منها ، ويمكن تعقب أثر اللغة العيلامية إلى بداية الألف الثالث ق.م عندما كانت تدون بالرموز الصورية (١٥) .

وقد لعب الدين دورا كبيرا فى حياة العيلاميين ، وتميز دينهم بتقديس العنصر الأنثوى والحيات (الذى له ، ربما ، علاقة باعتقادهم بمختلف المخلوقات الغريبة والعفاريت) والتأكيد على السحر والشعوذة (١٦). ولنا أن نعرف بأن الفن العيلامى مثله مثل كثير من أوجه الحضارة العيلامية ، لم يكن أصيلا ، بل اعتمد على الحضارة العراقية القديمة القريبة منه .

وفى المجال الاقتصادى مارس العيلاميون الصيد ، ومن الحيوانات التى اصطادوها ، الوعول والخنازير الوحشية والغزلان الحمر إلخ . كما اصطادوا الأسماك والسلاحف ومارسوا الرعى فساقوا الماشية والماعز إلى المراعى وحفظوها فى زرائب واستفادوا من منتوجاتها ، كما زرعوا مختلف المحاصيل الزراعية والفواكه واستعملوا المناجل والمعازق ذات الثلاث شعب وحفظوا حبوبهم فى مخازن شيدوها من الطين . وعرفوا الكثير من الصناعات كالتجارة وعمل الفخار .. إلخ ، ومارسوا مهنا مختلفة ، وهناك ما يدل على مشاركة المرأة للرجل فى الكثير من الصناعات أمثال الحياكة وصنع الفخار والخبز (١٧).

ومن أهم الدول التى أسسها الآريون القدماء الدولة التى اقامها الميديون فى القرن السابع قبل الميلاد . والحديث عن هذه الدولة ليس محققا كل التحقيق لأنها لم تترك لنا من الآثار ما يساعد على دراستها دراسة دقيقة ومعرفة أحوالها وأخبارها . والمرجح

أن الميديين أقوام من الجنس الآرى ، وقد هاجروا من شواطىء بحر قزوين إلى غربى آسيا قبل الميلاد أكثر من ألف عام تقريبا ، ثم استقروا فى إيران بعد ذلك (١٨).

وقد كانت دولة الميديين قصيرة الأجل ، فلم تساهم بنصيب وافر فى الحضارة . غير أنها مهدت السبيل إلى الحضارة الفارسية ، وقد امتاز الميديون فى أول أمرهم بالبساطة والقوة والنشاط ، وكانوا يحيون حياة طبيعية اقتصادية ، وقد ورث الفرس كثيرا من عاداتهم وتقاليدهم ، كما ورثوا عنهم لغتهم الآرية ، وحروفهم الهجائية ، وطريقة كتابتهم بالأقلام على الجلود والرقائق ، وتعلموا منهم الإكثار من استعمال الأعمدة فى العمارة ، وأخذوا عنهم قوانينهم الأخلاقية التى تدعوا إلى الاقتصاد وحسن التدبير ، والاعتماد على الزراعة فى أثناء السلم ، والشجاعة فى أثناء الحرب ، كما ورثوا عنهم دين زرادشت ، واستعملوا تقاليدهم فى الأسرة ، وهى تدعوا إلى الخضوع لرب الأسرة ، وتبيح تعدد الزوجات .. إلى غير ذلك من قوانين (١٩).

واستقرت طائفة أخرى كانت وثيقة الصلة بالميديين فى إقليم فارس ، وانتشر أفرادها فى سهول عيلام باعتبارهم حكاما من قبل الميديين ، وأصبح رؤساء هذه الطائفة التى تعرف باسم الأخمينيين السادة المسيطرين على هذا الإقليم الذى كان يعرف باسم " أنشان " أو فارس . وفى عام ٥٥٣ ق.م ثار " قورش " نائب الملك فى بارس أو برسيس ، وأسقط الحاكم الميدى أستياجس Astyages ، ثم أعقب ذلك اتحاد وثيق بين الميديين والفرس ، وسرعان ما استخدم جيشا مكونا من هذه الجماعات القبلية الناهضة فى سلسلة من الغزوات الناجحة التى انتهت بتكوين امبراطورية ضخمة تعد من أضخم امبراطوريات العالم القديم ، فقد غزا آسيا الصغرى ، وضم بلدانا يونانية ، واستولى على بابل ، وتوفى عام ٥٢٩ق.م (٢٠).

وكانت أولى القواعد السياسية التى قامت عليها دولة " قورش " أن يترك الشعوب المختلفة التى تتألف منها حرية العبادة والعقيدة الدينية ، لأنه كان عليما كل العلم بالمبدأ الأول الذى يبنى عليه حكم الشعوب ، وهو أن الدين أقوى من الدولة ، ومن أجل ذلك لا نراه ينهب المدن ويخرب المعابد ، بل نراه يبدى كثيرا من الإكبار والمجاملة لآلهة الشعوب المغلوبة ، ويسهم بماله فى المحافظة على أضرحتها ، بل إن

البابليين أنفسهم ، وهم الذين قاوموه طويلا ، قد التفوا حوله وتحمسوا له حين رأوه يحافظ على هياكلهم ويعظم آلهتهم (٢١)٠

وقد خلف قورش ابنه " قمبيز " والذى أنفذ حملة إلى مصر فاحتلها ، وهكذا تضخمت تلك الامبراطورية إلى الدرجة التى نجد فيها أنها ضمت المناطق التالية (٢٢): مصر - فلسطين - سوريا - فينيقيا - ليديا - فريجيا - ايونيا (وهى المدن اليونانية فى السواحل الغربية للأناضول) -- كبدوكيا - كليكيا - ارمينيا - بابل وآشور - بلاد الميديين - فارس - القوقاز - أفغانستان وبلوخستان - الهند - بلاد الصغد - بلاد البخت - مساجيتا - ولاية تضم قبائل التركمان فى أواسط آسيا ٠

وعندما خلف " دارا " قمبيز فى حكم مصر سار على نفس السياسة التى سبق أن وضع أسسها سابقوه من الحكام الفرس ألا وهى احترام الديانة المصرية، ولا نزاع فى أن ذلك قد أرضى المصريين تماما وبخاصة عندما نعلم أن هذه كانت النقطة الحساسة عندهم (٢٣) ٠ ومن ثم نرى فى عهد " دارا " أن الإلهة " نيت " قد حافظت على مكانتها الممتازة بين الآلهة المصريين فى تلك الفترة من تاريخ البلاد ، وقد أعلن الملك أنه ابن هذه الالهة ، ولا نزاع أن الملك " دارا " هو الذى شرع فى بناء معبد للاله " آمون رع " فى الواحة الخارجة (٢٤) ٠ لكن سياسة الفرس فى أواخر عهدهم بمصر تغيرت كثيرا فقد تميزت بالقسوة والاضطهاد وإهانة المصريين فى ديانتهم ومعتقداتهم ٠

وكانت حياة فارس حياة سياسية وحربية أكثر منها اقتصادية ، عماد ثروتها القوة لا الصناعة ،ومن أجل هذا كانت مزعزعة الكيان أشبه ما تكون بجزيرة حاكمة وسط بحر واسع خاضع لسلطانها خضوعا غير قائم على أساس طبيعى ٠ وكان النظام الامبراطورى يمسك هذا الكيان المصطنع من أقدر الأنظمة ، ولا يكاد يوجد له شبيه ، فقد كان على رأسه الملك أو خشترا أى المحارب ، ومنها اسم ملك إيران " الشاه " قبل الثورة الإسلامية ، وهو لقب يدل على منشأ الملكية العسكرى وصبغتها العسكرية (٢٥)

ولم يكن يوجد فى هذه الدولة قانون غير إرادة الملك وقوة الجيش ، ولم تكن فيها حقوق مقدسة تستطيع الوقوف أمام هاتين القوتين ، كما أن التقاليد والسوابق لم تجد

نفعا إلا إذا كانت مستمدة من أمر ملكى سابق ، ذلك أن الفرس كانوا يفخرون بأن قوانينهم لا تبديل لها ، وأن الوعد أو المرسوم الملكى لا ينقض بأى حال من الأحوال ، فقد كان اعتقادهم أن قرارات الملك وأحكامه إنما يوحيها إليه الإله أهورا - مزدا نفسه(٢٦) ٠

وعلى يد الاسكندر الأكبر بدأت قصة النهاية للدولة الاخمينية فى عهد دارا الثالث ٣٣٦-٣٣٠ ق٠م ، فقد نجح الاسكندر فى إقناع اليونانيين عامة والأثينيين خاصة فى محاربة بلاد الفرس ، وكانت أول انتصارات الاسكندر عام ٣٣٤ ق٠م، وكان عمره لا يتجاوز واحدا وعشرين عاما ٠ ثم استطاع أن يقتحم بابل فى عام ٣٣١ ، ثم فتح العاصمة الفارسية برسيبوليس فى عام ٣٣٠ ق٠م (٢٧) ٠

ولم يكن اليونانيون عموما ، ومنهم الاسكندر ، أولئك المتعصبون المتشددون دينيا كما ساد التشدد والتعصب الدينى معظم بلدان الشرق ، وربما كان سبب ذلك ، نزعة اليونان الفلسفية وتحكيمهم العقل والمنطق فى معالجة أمور الحياة والإنسان والكون ، لذلك كانت جميع الظروف مهيأة لامتزاج شعوب العالم القديم ببعضها وتناقل أفكارها ومعطياتها وعناصر حياتها المادية ، وكان من نتيجة هذا الامتزاج النقلة النوعية الكبيرة فى عناصر حضارة الإنسان والتى شملت جميع فروع العلوم والمعرفة والآداب والأفكار وينتقل الاسكندر من معبد آمون فى واحة سيوه إلى معبد كردوخ فى بابل ويأمر بإعادة بنائه مع غيره من المعابد المهدمة ، ويشارك فى الاحتفالات الدينية الوطنية لهذين المركزين الحضاريين القديمين ويمنح سكانهم الحرية فى إجراء طقوسهم الدينية ويدعم كهنتهم ، ويولى زعمائهم المناصب الإدارية (عدا العسكرية) والوظيفية (٢٨) ٠

وزاد الاسكندر من تبنيه للشرقيين وعاداتهم واحترام آلهتهم والمشاركة بطقوسهم الدينية ، عندما أمر جنوده وضباطه من اليونان بأن يقبلوا الأرض بين يديه على عادة الفرس عند مقابلة ملوكهم على الرغم من معرفته الأكيدة بأن هذا الرسم الشرقى يتنافى مع أبسط مقومات أفكار الإغريقى ، ولكنه كان جادا فى مسعاه وكانت خيرات الشرق وثرواته تجلب إليه بمزيد من الحماس (٢٩)٠

وعندما توفى الاسكندر عام ٣٢٣ ق٠م ، قسمت تركته بين قواده فكان أن قامت فى إيران الدولة السلوقية ، ثم استطاع قوم آخرون أن يؤسسوا دولة على أنقاضها ، هؤلاء هم البارثيون ، الذين يعرفون فى التاريخ أيضا باسم الأرشكيين Arsacids نسبة إلى ملوكهم الأول – كانوا فى الأصل قبيلة من قبائل الساكا Saka تنتقل فى منطقة تقع شرقى بحر قزوين ، ثم سيطرت بعد ذلك على إقليم بارثوا Parthava الذى كان تابعا للدولة الاخمينية (٣٠) ٠

وقد اعتبر البارثيون أنفسهم وارثين للأخمينيين فى الناحية السياسية ، فاستبدلوا حضارتهم الضحلة بحضارة مستعارة هى فى أعلى صورها مزيج من الحضارة الإيرانية والإغريقية (الهيلينية) وقد سمى أحد الملوك نفسه فيلهيلين (أى محب للإغريق) ، واختيرت الأساليب اليونانية فى الحياة ، كما اختيرت اللغة اليونانية – فى البداية – لغة رسمية (٣١)٠

ثم استطاع " أردشير " فى حوالى عام ٢٢٤م أن يؤسس لدولة جديدة عرفت باسم الدولة الساسانية ٠ ويتميز قيام هذه الدولة فى إيران ببروز روح جديدة تتمثل فى إعادة خلق الفكر الشرقى مقابل الهيلينية ، وكان النظام الإدارى ووحدة الأقاليم وتوحيد البلاد تحت لواء فكر دينى رسمى هى الأسس المتينة لهذا البناء الذى استمر قائما إلى نهاية الدولة الساسانية ، وواصل تأثيره للفترات اللاحقة (٣٢)٠

وكان المجتمع الإيرانى مقسما إلى أربع طبقات : رجال الدين ، ورجال الجيش ، والكتاب ، والعوام ، وهم يشملون الفلاحين والتجار وأصحاب الحرف ٠ وكان أفراد الجماعات الثلاث الأولى يكونون طبقة الأشراف ، وهى مقسمة إلى أربع درجات لكل واحدة منها شعارها وألقابها الخاصة بها (٣٣) ٠

وكانت عاصمة الدولة هى مدينة شابور فى إقليم فارس ، وظلت الفارسية الوسيطة – المكتوبة بحروف بهلوية معقدة مضطربة – لغة العصر الساسانى ، غير أن هذه اللغة سرعان ما فقدت جزءا كبيرا من تعقيداتها النحوية ، وأخذت تقترب من صورتها الأخيرة التى تسمى الفارسية الحديثة (٣٤) ٠

ومن المهم أن نعلم أن الجاه الذى كان يتمتع به طبقة الكتاب (دبيران) فى إيران واضح غاية الوضوح ، فإن الإيرانيين كانوا دائما يعنون بالشكل ، فالوثائق الرسمية ومراسلات الأفراد ينبغى أن تصاغ صوغا أنيقا ، فتختلط بنبذ من أقوال الحكماء ، والحكم الخلقية والدينية والأشعار والألغاز ، لكى تكون الرسالة أو الوثيقة جميلة ، كما أن الطريقة التى يصاغ بها الكتاب ويوجه ، يراعى فيها الفوارق بين رتبتى المرسل والمرسل إليه مراعاة دقيقة (٣٥).

وكان الكتاب دبلوماسيين حقيقيين ، فقد كانوا يملون كل أنواع الوثائق ، ويسيطرون على مراسلات الدولة ، ويصيغون جميع الأوامر الملكية ، وينظمون قوائم الضرائب ومحاسبات الدولة ، وكان عليهم فى الكتابة للأعداء وخصوم الملك أن يقسطوا فى كتابتهم ويراعون الظروف التى يكتبون فيها ، فيطبعوا كتابتهم بالمسالمة أو التهديد والوعيد . ولكن إذا كانت للعدو الغلبة ، عرضت حياة الكاتب للتلف ، وهكذا قتل سابور بن أردشير الأول بيده بنداد كاتب آخر ملوك ألبرت ، لأنه كتب رسالة مهينة باسم ملكه إلى الملك أردشير (٣٦) .

التربيـــــة الدينيـــة :

كررنا فى مواقع سابقة متعددة أن الدين بالنسبة لأهل الشرق بصفة خاصة له منزلة لا تدانيها منزلة ، من حيث قوة التوجيه وعمق التأثير وقدم التشكيل السلوكى ، مما يجعل من الحديث عن الفكر الدينى والممارسات الدينية فى حضارة شرقية حديثا فى التربية الدينية .

وهنا نجد أن الفرس كانوا قديما يعبدون الحيوانات والأجداد والأرض والشمس ، وكان هذا الدين يتفق مع دين الهندوس فى كثير من عناصره وآلهته .وكان أكبر الآلهة عندهم " ميثرا " إله الشمس و " أنا هيتا " إله الأرض والخصب والنماء . و " هوما " الثور المقدس الذى زعموا أنه مات ثم بعث حيا ، ووهب الجنس البشرى دمه شرابا ، ليسبغ عليه نعمة الخلود (٣٧).

وكانوا ، علاوة على ذلك ، يقسمون الموجودات إلى قسمين : القسم الأول ، يشمل الموجودات الخيرة التى تصدر عن قوى الخير وتبعث على السعادة ، ومن مظاهرها : النهار والخصب والصحة والجمال والاستقامة ، وما شابهها · والقسم الثانى ، يشمل الموجودات الشريرة التى تصدر عن قوى الشر ، وتبعث على البؤس والشقاء ، ومن مظاهرها : الليل والشتاء والجفاف والقحط ، والأمراض ، والقبح ، والكذب ، وأمثالها كما سبق ·

ولم يعجب هذا " زرادشت " (٦٢٨-٥٥١ ق·م) – أو " زورآستر Zoroaster (وهو الإسم الذى شاع أكثر عند اليونان) الذى أخذ ينادى بجملة من الأفكار ويدعو إلى سلوكيات ، ويبشر بمجموعة من القيم والاتجاهات مما عرف فى جملته باسم :" الزرادشتية " ، والتى تحولت إلى ديانة رسمية لإيران قبل الإسلام · والواقع أنه ربما عاش فى فترة مبكرة عن ذلك التاريخ ، ونحن لا نعرف عن تفاصيل حياته إلا أقل القليل ، رغم أن التقوى – وهذا شىء لا مفر منه – قد جملت الحكايات التى تروى عنه بعاطفة الحب (٣٨)·

وكان الكتاب المقدس للدين الجديد هو مجموعة الكتب التى جمع فيها أصحاب النبى الجديد ومريدوه أقواله وأدعيته ، وسمى أتباعه المتأخرون هذه الكتب الأبستا (الأبستاق) · ومما يدهش القارىء أن يعلم أن ما تبقى من هذا الكتاب إن هو إلا جزء صغير للغاية من الكتاب الأصلى ، ويمكن تقسيم هذا الذى تبقى إلى خمسة أجزاء(٣٩):

١ – اليزنا ، وتتألف من خمسة وأربعين فصلا من الطقوس الدينية التى كان الكهنة الزرادشتيون يترنمون بها ، ومن سبعة وعشرين فصلا (من الفصل الثامن والعشرين إلى الرابع والخمسين) وتسمى الجتها ، وتشتمل على أحاديث زرادشت ، وما أوحى إليه مصوغة فى عبارات موزونة كما يظهر ·

٢ – الوسبرد ، ويشتمل على أربعة وعشرين فصلا أخرى من الطقوس الدينية ·

٣ – الونديداد ، ويشتمل على اثنين وعشرين فصلا أو فرجودا ، وهى تشرح فقه الزرادشتيين وقوانينهم الأخلاقية ، وهى التى تتألف منها – فى العصر الحديث – شريعة البارسيين الكهنوتية (فى الهند)·

٤ – اليشت ، أى التسبيحات الغنائية ، وهى واحد وعشرون نشيدا فى الثناء على الملائكة تتخللها أقاصيص تاريخية ونبوءة عن آخر العالم .

٥ – وآخرها الخرد أبستاق ، أى الأبستاق الصغيرة ، وهى صلوات تتلى فى مناسبات فى الحياة المختلفة .

وقد أراد زرادشت أن يعيد عقيدة الناس فى ذلك العصر إلى صفائها وطهرها الأول ، لكن المشكلة فى شرح هذه الديانة الوضعية أن هناك تباينا فى الشروح قد يذهب بها عند البعض إلى مجال القول بالتعدد فى الآلهة ، وإن كان هناك من هذه الآلهة من هو أقوى ، والبعض قد يحشرها ضمن الديانات القائلة بالتوحيد . وربما يكون أصحاب المنحى الأخير متأثرين ببعض المؤرخين من ذوى الأصول الفارسية ممن دخلوا الإسلام ، فمالوا إلى تقديم الزرادشتية فى صورة قريبة من الإسلام .

ومن الشروح الأولى ، هذا الذى يذهب إلى أن خلاصة هذه الديانة هى : أن العالم ناشىء من أصلين هما النور والظلمة ، وهذان الأصلين فى نزاع معا ، ويتناوب الإثنان الانتصار والهزيمة فيما بينهما ، ولهذا قسم العالم إلى قسمين : جيش النور أو الخير وجيش الظلمة أو الشر ، وعلى رأس قوى قسم الخير أهورا مزدا ، ويرأس قوى الشر أهريمن ، ويساعد أهورا مزدا ستة كائنات مجردة هى التى تعرف باسم (أمش سبنتان) ، أى القوى الخالدة المقدسة وهى تقف أمام عرش أهورا مزدا وتنفذ أوامره ، ويدير أهورا مزدا العالم بواسطتهم (٤٠) .

وقد أكدت مصادر أخرى أن دين زرادشت كان دين توحيد ، يحرم الشرك بالله وعبادة الأصنام (٤١) . وقد أبطل زرادشت جميع معتقدات (موغوش) ، أى المجوس القدماء ، قائلا : ليس هناك قوى روحية كثيرة للخير ، ولا عفاريت كثيرة للشر ، إنما هو إله واحد ، اسمه (أهورامزدا) الذى ليس كمثله شىء ، وهو الواحد ، الأحد ، القدوس ، الصمد ، وهو الحق والنور ، وهو الحكيم القادر الذى لا يشاركه فى ملكه وربوبيته شىء ، وإن القوى الروحية التى زعموها خالقة للخير ليست بخالقة ، بل هى نفسها من خلق أهورامزدا ، وكذلك صرح زرادشت بأنه ليس للشر إله ، بل الذى يأمر بالشر هو الشيطان (أنغراس ينوش) الذى حرف إلى (أهرمن) .

وإن من العناصر الأساسية للدين الزرادشتى ، الاعتقاد بالحياة الأخروية ، فهو يقول : لا تنتهى حياة الإنسان بموته فى هذا العالم المادى ، بل له حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، فالذين عملوا الصالحات فى حياتهم الدنيا يدخلون عالم السعادة ، والذين دنسوا نفوسهم بالشرور يدخلون عالم الشقاء . والاعتقاد ببقاء الروح من معتقدات هذا الدين الأساسية ، فهو يقول بفناء الجسم ، أما الروح فيبقى ويلاقى جزاءه (٤٢) .

ولكن أكبر فخر لزرادشت أن الصورة التى تصورها لإلهه هى أنه يسمو على كل شىء ، وأنه عبر عن هذه الفكرة بعبارات لا تقل إجلالا عما جاء فى سفر أيوب (٤٣):

هذا ما أسألك عنه فأصدقنى الخبر يا أهورا مزدا : منذا الذى رسم مسار الشموس والنجوم ؟

ومنذا الذى يجعل القمر يتزايد ويتضاءل ؟

ومنذا الذى رفع الأرض والسماء من تحتها وأمسك السماء أن تقع ؟

منذا الذى حفظ المياه والنباتات ؟

ومنذا الذى سخر للرياح والسحاب سرعتها ؟

ومنذا الذى أخرج العقل الخير يأهورا مزدا ؟

وعلى الرغم من أن زرادشت أدان معظم التراث القديم ، فإنه لم يتخلص منه تماما ، فهو بوصفه كاهنا قد وضع عددا من ترنيماته فى الشكل التقليدى المأثور ، ورأى أن طقوس النار القديمة هى رمز النور والقانون الكونى لله ، فاستخدمها فى صلواته ، كما أن بعض صفات الإله – على أقل تقدير – هى تعديلات للأفكار الآرية القديمة كفكرة الحق مثلا . ولقد كان على استعداد ، كذلك ، لاستخدام الصورة المعتادة لمحاسبة الفرد بعد الموت . لكن ما أخذ من أفكاره قد عدله وشكله من جديد بطريقة فريدة ، فحبه لله تطلب منه أن يعمل من أجل العدالة ، والوفاق الاجتماعى ، وأن يعارض الأعمال المدمرة التى يقوم بها الغزاة من البدو لاعتقاده بأن الحياة الريفية المستقرة هى نموذج للسلام والحق (٤٤) .

وليس هناك شك بالنسبة لتعاليم مؤسس أى دين وضعى بصفة خاصة من أن تتطور وأن تتعدل عن طريق أتباعه ، ولم تكن الزرادشتية استثناء من هذه القاعدة ، فأفكار

زرادشت قد قننت وعدلت وتلاءمت مع أفكار العصر وحاجاته . ولم يفسد أتباعه تعاليمه عمدا ، ولكن يبدو أنه حدث " تلاق والتحام " بين تعاليمه وبين الإيمان التقليدى فى التراث ، وكانت النتيجة إيمانا عميقا يعبر عنه بطريقة أسطورية .

ثم ظهر فى عهد الدولة الساسانية مبشر آخر بديانة جديدة " معدلة " قال بها " مانى " الذى قيل أنه قد أوحى إليه مرتين لكى ينشر الدين الحقيقى بين الناس ، خلال عهد سابور الأول الذى تولى الملك عام ٢٤٢م. ومثل زرادشت رأى أن العالم قائم على أصلين هما الخير والشر ، أو النور والظلمة، والله هو الملك الأول ، والشيطان هو الملك الثانى ومملكتهما بلا نهاية (٤٥).

ورأى مانى أن الشر كان موجودا على الدوام ، وسيظل موجودا إلى الأبد ، أما بالنسبة للإنسان وسائر المخلوقات فقد كان يرى أن الخير والشر ممتزجان معا فيه ، لأن الإنسان له روح الخير والشر . ويوجد فى مقابل عقل الخير ووجدانه وشعوره عقل الشر ووجدانه وشعوره . وقد خلقت الروح الخيرة الرحمة والأصل الطيب والصبر والحكمة . وخلقت الروح الشريرة الحقد والغضب والشهوة والحماقة . وفى عقيدة مانى أن التناقض يكون فقط بين النور والظلمة فلن ينتهى أحدهما ولن يتصل بالثانى ، وكانا موجودين دائما وسيبقيان (٤٦) .

ولعله يكون من المناسب أن نتوقف أمام بعض ترانيم زرادشت كأمثلة تشير إلى ما كان يدعو إليه من قيم مربية (٤٧) :

بالنسبة للشرير والرجل المستقيم ..
وهذا الذى يجمع بين الخطأ والصواب ..
ستكون المحاكمة بالنظام القائم ...
تبعا لقوانين هذا الوجود ..

من بالكلمة أو الفكر الأبدى ..
يلحق الأذى برجل الشر ..

أو هذا الذى يحول ابن عشيرته إلى الخير ..
كلاهما يسعدان الرب وينفذان مشيئته ..

هذا الذى ينتمى إلى الأسرة أو القرية أو القبيلة أيها الرب
ويصنع نعمة لرجل الصلاح أو يكد فى رعاية القطيع ،
سيصير فى مرعى " الحق " و " العقل الخير " ..

فى هذه الترنيمة ثلاثة مقاطع تتناول الصالح والشرير بوجه عام والأعمال التى تحدد صفة كل منهما ، والمعاملة التى سيجدانها فى هذا الوجود أى الوجود الأرضى ، يلى ذلك أحد عشر مقطعا تناول " زرادشت " نفسه كرجل صلاح وخير (٤٨) .

المقطع الأول يستهل بالعقاب الذى يناله الخير والشرير ، والذى يجمع بينهما طبقا لقوانين المجتمع كتنظيم كائن .والمقطع الثانى يوضح أن معاقبة الشرير سواء بالفكر أو الكلمة أو الفعل نوع من العمل الصالح كما هو الشأن بالنسبة لمن يحول أحدا من أسرته أو قبيلته أو قريته إلى طريق الخير ، فكلا الأمرين يتفقان مع إرادة الرب . أما المقطع الثالث فيضيف إلى العمل الطيب الخير الذى يقدمه الإنسان إلى الاخرين وأيضا العناية بتربية الثيران مصدر الرزق ، بهذا يكون المرء فى انسجام مع الثالوث ويستحق الهناء .

حركة الثقافة :

إذا رجعنا إلى عهود حركة الثقافة الإيرانية الأولى فسوف نجد فقرا واضحا ، فمثلا ، ليست لدينا معلومات كافية عن حضارة الميديين ، ولعل من أسباب ذلك أن النقوش التى دونت إبان عصور الميديين لم يكشف النقاب عنها بعد مما ييسر معرفة لغتها وخطها ومعتقداتها وصناعاتها وأشياء أخرى تتيح لنا كثيرا من المعرفة ، كما أنه لم يبق من الآثار شىء من الأبنية والعمارات وإن اكتشفت فقط أشياء منها جزئية فى بعض الأماكن من إيران ، يعتقد المختصون أنها تتعلق بلغة الميديين وترتبط بها ، ولا نعلم شيئا عن نظم تلك سوى النزر اليسير ، وأن بعض الملوك الميديين قلدوا كثيرا من

النظم المتبعة فى بلاط الأشوريين ، وزادوا عليها ، ولكن الاحتمال القوى يتجه إلى الاعتقاد بأن الميديين كانوا على درجة كبيرة من الرقى والحضارة (٤٩) ٠

أما فى عهد الأشكانيين ، فلم يعثر على آثار معمارية ونقوش للملوك الأشكانيين باستثناء فقرة أو فقرتين ، ولم تكتشف كذلك نقوش حجرية باللغة البهلوية ترجع إلى عهد الأشكانيين (٥٠)٠

وتعتبر الفنون الحربية من فنون هذا العصر التى لا شبهة فيها ، وكانت رائجة عند البارثيين جدا ، وخاصة الفروسية والرماية التى وجب على الشباب تعلمها ٠ وشاع أسلوب حربى واحد لدى الفرسان البارثيين يعرف بحرب الكر والفر ، ولم يكن لديهم خبرة بفن الحصار واستعمال آلاته وأدواته ، إذ كانوا يحطمون آلات الحصار وأدوات الاستيلاء على القلاع التى يملكها الروم بعد الاستيلاء عليها ، ولم يكن جنود المشاة يقدرون قيمتها (٥١) ٠

أما بالنسبة لعلوم العصر الأشكانى ، فلا يمكننا ذكر شىء فى هذا الصدد ، إذ أنه لم تصلنا آثار بشأنها ، ولكن ، لما كانت هناك أشياء كثيرة معتادة فى عصر الأشكانيين وبقيت كما هى فى عصر الساسانيين أيضا ، فمن هنا يمكن استنباط أن رجال الدين كانوا يعلمون الناس القراءة والكتابة والحساب كما هو الحال بالنسبة للعصر الساسانى (٥٢) ٠

لكن هذا لا يجعلنا نغفل الإقرار بأن الفرس ، وفقا لعديد من الشواهد والقرائن الأخرى ، قد أصبحوا ، بجدارة أصحاب ملك قديم وحضارة عريقة ، ومعرفة بالعلوم ، فهم ورثوا الآشوريين والبابليين فى الرياضيات والطبيعيات ، ونقلوا إلى لغتهم كثيرا من اليونان علوما شتى منذ بعث سابور بن أردشير إلى بلاد اليونان يستجلب كتبا ويأمر بنقلها إلى الفارسية ، وقد حفظها فى خزائنه وشجع على نسخها ودراستها (٥٣)٠

ثم فر إلى فارس طائفة من الفلاسفة الوثنيين حينما اضطهد جوستنيان الوثنية فى دولة الروم وأغلق هياكلها ومدارسها ، فاستقبلهم كسرى أنوشروان ورحب بهم ، وأقاموا عنده ينقلون الكتب اليونانية إلى الفارسية ، ويؤلفون كتبا فى الفلسفة والعلوم ، ويدرسون فى معهد الدراسات الطبية والفلسفية الذى أنشأه كسرى أنوشروان بمدرسة جنديسابور (٥٢١-٥٧٦ م) ، فشاعت العلوم اليونانية بفارس كما شاعت من قبل علوم الهند والصين .

وقد احتل الكتاب منزلة رفيعة فى المجتمع الفارسى وخاصة فى العهد الساسانى ، وقد ذكر الخوارزمى فى كتابه مفاتيح العلوم سبع وظائف لكتاب الدواوين فى العصر الساسانى هى (٥٤) :

١ - داد دفيره (أى كتابة الأحكام) .
٢ - شهرهمار دفيره (أى كتابة البلد للخراج) .
٣ - كده همار دفيره (أى كتابة حساب دار الملك) .
٤ - كنج همار دفيره (أى كتابة الخزائن) .
٥ - آهو همار دفيره (أى كتابة الاصطبلات) .
٦ - آتش همار دفيره (أى كتابة حسابات بيوت النار للوقود) .
٧ - روانكان دفيره (أى كتابة الأوقاف) .

ولم تكن هذه هى كل الوظائف الكتابية التى يؤديها كتاب العصر الساسانى ، فقد كان ثمة أعمال كتابية أخرى ، تتناول الموضوعات الفلسفية والطبية ، وكتابة العهود والمواثيق ، والكتابات الموسوعية ، والمترجمات ، تلك التى نوهت بها المصادر الأدبية والتارخية العربية .

ولعلنا ندرك منزلة الصدق التى أحلها أرباب القلم فى العصر الساسانى حين نتذكر أن كسرى أنوشروان قد أمر بإعفائهم من الضرائب والجزية . ويقال فى هذا المقام إن سبعين كاتبا كانوا ملازمين لديوان كسرى أنوشروان ، وذلك ما عدا بزرجمهر وزيره الأعظم ، وشاهبور موبذ موبذان - الزعيم الدينى للمجوس -، ويزدجرد رئيس الديوان الملكى . ويحدثنا القلقشندى عن منزلة الكتاب فى العصر الساسانى فى قوله : " وكانت

ملوك الفرس – لرفعة الكتابة عندهم – تجمع أحداث الكتاب ونواشئهم المعترضين لأعمال الملك ، ويأمرون رؤساء الكتابة بامتحانهم ، فمن رضى أقر بالباب ، ليستعان به ، ثم يأمر الملك بضمهم إلى العمال واستعمالهم فى الأعمال ، وينقلهم فى الخدم على قدر طبقاتهم من حال إلى حال ، حتى ينتهى الواحد منهم إلى ما يستحقه من منزلة " (٥٥) .

كذلك تتجلى لنا المكانة الرفيعة التى حظى بها كتاب العصر الساسانى فيما ذكره ابن قتيبة من أنه قرأ فى بعض كتب العجم أن موبذان موبذ – قاضى المجوس – وصف الكتاب فقال : " كتاب الملوك رعيتهم المصونة عندهم ، وآذانهم الواعية ، وألسنتهم الشاهدة ، لأنه ليس أحد أعظم سعادة من وزراء الملوك إذا صارت نصائحهم للملوك نصائحهم لأنفسهم وتعظم الثقة بهم حين صار اجتهادهم للملوك اجتهادهم لأنفسهم ، فلا يتهم روح على جسده ، ولا يتهم جسد على روحه ، لأن زوال ألفتهما زوال نعمتهما ، وأن التئام ألفتهما صلاح خاصتهما " (٥٦) .

وقد حوت الكتب الدينية التى دونت وجمعت فى العصر الساسانى قصصا وروايات عديدة اكتسبت قداسة عن الإيرانيين لورودها فى كتبهم الدينية ، كما دونت كتب وروايات كثيرة غير دينية فى الأدب البهلوى ، وقد ترجم كثير منها إلى العربية وأشارت إليها ونقلت عنها مصادرنا العربية مثل عيون الأخبار وكتاب المعارف لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هجرية – ٨٨٩م ، والأخبار الطوال للدينورى المتوفى سنة ٣١٠ هجرية – ٩٢٢ م ، ومروج الذهب ، والتنبيه والإشراف للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هجرية – ٩٥٧ م ، وغيرها من المراجع الإسلامية عربية وفارسية (٥٧) .

ويستفاد من الإشارات الواردة بالتوراة أنه كان للفرس منذ أيام الميديين والأخمينيين كتب دونت فيها أخبار أسلافهم كما هو مفصل بالإصحاح الرابع من سفر عزرا بالآيات من ١١ إلى ١٥ ، والآيات من ١٧ إلى ٢٤ ، وآخر الإصحاح الثانى من سفر أستير بالآيتين ٢١ ، ٢٢ ، والإصحاح السادس بالآيات من ١ إلى ٣ ، والآيتين ١ ، ٢ وأول الإصحاح العاشر بالآيتين ١ ، ٢ . ومما لا شك فيه أن هذه الكتب كانت تشكل مصادر

للتعليم والتعليم ، فكثرتها تشير إلى كثرة طالبيها ، وأنها كانت تحقق وظيفة تعليمية مهمة ، مهما قيل عن بعضها أنه إنما ألف بأمر هذا الحاكم أو ذاك .

وعرفت الثقافة الفارسية عددا من الكتب التى ترجمت إلى العربية فيما بعد ، وإن تصرف المترجمون فى بعض الأحوال فيما ترجموه ، وكأن هذه الترجمة كانت إعادة صياغة ، من هذه الكتب كتاب " سندبانامه " أى كتاب سندباد ، وهو كتاب من كتب الأسمار المنقولة عن البهلوية ، وقد ألف قبل الإسلام بعدة قرون ، وينسب تأليفه إلى حكيم هندى يسمى " سندباد " ، وقد ذكره المسعودى فى كتابه " مروج الذهب " فى باب أخبار الهند وملوكها (٥٨) .

ومن كتب المتقدمين التى صاغها من جديد من جاء بعدهم على غرار كتاب سندباد الكتاب المعروف باسم " بختيارنامه " ، أى كتاب بختيار ، وهو شبيه بكتاب سندباد فى مبناه ، مما جعل المستشرق " هرمان إته Hermann Ethe " يذهب إلى أنه كتب فى العصر الإسلامى تقليدا له ، غير أن عنوان هذا الكتاب ومقدمته فى الطبعة التى أخرجتها مجلة أرمغان الفارسية فى طهران سنة ١٣١٠هجرية /١٩٣٢م يفيدان أن الكتاب من آثار العصر الساسانى ، وقد ترجمه من البهلوية إلى الفارسية ، شمس الدين محمد الدقائقى المروزى فى حدود القرن السادس الهجرى (٥٩) .

ونرى فى الفارسية كتابا آخر لا خلاف فى نسبته إلى الفرس ، أصابه ما أصاب " بختيارنامه " من تغيير الإسم والرسم ، وقد ألف هذا الكتاب باللهجة الطبرية فى خلال القرن الرابع الهجرى على ألسنة الوحوش والطيور والإنس والجن والشياطين ، ومؤلفه هو الأصفهبذ بن رستم بن شروين بن بريم أحد ملوك طبرستان من آل باوند ، ومن هنا عرف فى الفارسية باسم " مرزبان نامه " ، أى كتاب مرزبان (٦٠) .

وإن مزيدا من القراءة والتحليل للأدب الفارسى يظهرنا على أنه موفور المادة إلى حد فيه الكفاية ، إذا ما قصدنا منه جانبه الأخلاقى ، وهو الأمر الذى يعنى مؤرخ التربية بصفة خاصة ، فلم يكن أدبا للتسلية وقضاء وقت الفراغ ، ولا هو مما يندرج تحت باب " الأدب للأدب " ، ولا حتى " الأدب للحياة " أو للمجتمع وإنما كان أدبا للتربية

بحكم ما كان يحتويه من مواعظ أخلاقية ، لتضمنه تعاليم خاصة بتوجيه السلوك ، والدعوة للتى هى أقوم ، والنصح بما تصلح بـه الحال ، والحض على ما تستقيم بـه الحياة (٦١)٠

ويشير مؤرخو الثقافتين العربية والفارسية إلى ترجمة العرب لعدد آخرغير قليل من الكتب الفارسية ، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على أن العرب أخذوا عن الفرس ما أخذوا وعرفوا عنهم ما عرفوا من تراثهم القديم الذى نقل إلى لغتهم ، وبذلك ازدهرت الحضارة الإسلامية ، وربما يكون من الضرورى الإشارة هنا إلى كتاب " كليلة ودمنة " الذى تضاربت فيه الأقوال ، ولسنا فى حاجة إلى الخوض فى هذا الخلاف ، وحسبنا أن نخرج منه إلى المتعارف المشهور ، ونوجز القول مبينين أن الكتاب من وضع حكيم لدبشليم ملك الهند ، ولما أراد الملك أن يجزل صلته عفت نفسه عن قبولها، وجعل البديل من الصلة أن يأمر الملك بتدوين الكتاب والمحافظة عليه فكان للحكيم ما طلب ، وصدر أمر الملك بحفظ الكتاب فى خزانة ٠ ومرت ثمانية قرون وعرف كسرى أنوشروان خبر هذا الكتاب وسمع عنه الأعاجيب ، وهو المشغوف بالعلم والحكمة ، فأوفد كبير أطبائه الذى عاد حاملا إياه وترجم إلى الفارسية ، ثم ترجمه عبد الله ابن المقفع إلى العربية (٦٢) ٠

وقد عرف العرب بعض أخبار الفرس وقصصهم ، كقصة رستم وإسفنديار ، وقد ذكر ابن هشام أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ، وممن يؤذون النبى عليه الصلاة والسلام ، وكان قد شخص إلى الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وقصة رستم وإسفنديار ٠ وذكر ابن ابى أصيبعة أن النضر رحل إلى فارس وتعلم بها ، فكان الرسول إذا جلس مجلسا وذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب الطغاة من قبلهم ، خلفه النضر فى مجلسه إذا قام ، وقال يا معشر قريش إنا والله أحسن منه حديثا ، فهلم إلى ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وعن رستم وإسفنديار ، وهو الذى قال : سأنزل مثل ما أنزل الله (٦٣) ، وفيه نزلت ثمانى آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : " إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين " ، وروى أنه اشترى كتب الفرس ليحدث منها ، وأنه المقصود بقوله تعالى : " ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين " ٠

وقد عرفت كتب الروايات والملاحم فى الثقافة الفارسية بالشاهنامات ، أى كتب الملوك ، ولا غرابة فى هذا ، لأن أبطالهم الأسطوريين كما تصورهم هذه الكتب ، كانوا ملوكا ذوى عروش وتيجان يدينون لملك الملوك (شاهنشاه) بالإخلاص والولاء ، يتفانون فى خدمته ويحاربون تحت رايته ويستمدون وجودهم من التفافهم حول عرشه وتفديته بالمهج والأرواح ، له الأمر وعليهم الطاعة ، ولكن الحديث عن هذه الشاهنامات ينصرف بالأذهان قصدا إلى ملحمة الفرس الكبرى التى استكملت كل مقومات الملاحم الحية الخالدة واستوعبت شتى مواضيع الحياة ، إلى " شاهنامة " الفردوسى ، فهى بحق ملحمة أمة وحياة شعب وقلب شاعر (٦٤) .

ففى القرن الرابع الهجرى ، قام فى نفس السلطان محمود الغزنوى أن يبعث القومية الفارسية بعد أن تم القضاء عليها بما كان من تقويض العرب أركانها ، وشاء أن يكون لمآثر الفرس ومناقبهم فى سمع الدنيا دوى يوقظها من سبات غفلتها عما لا يسعها أن تنساه أو تتناساه (٦٥) ، فأمر الفردوسى الشاعر بحمل الأمانة على بصيرة وتحقيق الأمل بحيث يصبح ملء العين والقلب ، فأمره بنظم الشاهنامه ، بمعنى كتاب الملوك ، وفيه سرد لتاريخ فارس منذ أول التاريخ إلى الفتح الإسلامى ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن الفرس ، إلى يومنا هذا ، يعتبرون الشاهنامه أهم وأعظم ما فاضت به قريحة شاعر فارسى ، وذلك من وجوه ، أهمها أنها تتضمن مفاخر الفرس فى سرد تاريخى على نحو أدبى ، مما يكفل دوام استقرار تلك التاريخ فى الخواطر على خلود الزمن(٦٦) .

ومع ذلك فلابد من القول بأن الفرس لما كانوا قد وهبوا أنفسهم لإقامة صرح الامبراطورية ، فإن وقتهم لم يتسع لغير الحرب والقتال ، ولذلك كان جل اعتمادهم فى الفنون على ما يأتيهم من البلاد الأجنبية ، شأنهم فى هذا الشأن الرومان سواء بسواء . نعم إنهم كانوا يتذوقون جمال الأشياء ، ولكنهم كانوا يكلون إلى الفنانين الأجانب أو إلى من فى بلادهم من الفنانين أبناء الأجانب صنع هذه الأشياء ويحصلون من الولايات التابعة لهم على المال الذى يؤدون منه أجور أولئك الفنانين ، وكانت لهم بيوت جميلة وحدائق غناء ، تستحيل فى بعض الأحيان بساتين للصيد ومسارح للحيوان ، وكان لهم أثاث قيم غالى الثمن : من نضد مصفحة برقائق الفضة والذهب أو مطعمة بها ، وسرر

فرشت عليها أغطية جاءوا بها من غير بلادهم ، وطنافس لينة جمعت كل ألوان الأرض والسماء يفرشون بها أرض حجراتهم (٦٧) . وكانوا يشربون فى كؤوس من الذهب ويزينون موالدهم ورفوفهم بمزهريات من صنع الأجانب ، وكانوا مولعين بالعزف والغناء وبأنغام الناى والقيثار والنقر على الطبول والدفوف .

وهكذا لم يحتل الفن إلا منزلة محدودة فى الحضارة الفارسية . إننا لا نجد تماثيل للالهة ، أو هياكل ، إذ اكتفت الآلهة بالمذابح ، لا بل زهدت بهذه الأخيرة مرارا ، ولا نجد أيضا قبورا ، للأفراد أقله . وحسب علمنا لم يشيد الشخص لنفسه بيتا كبيرا ولم يأت بأى ابتكار فى هذا المجال من حيث الهندسة أو الزينة ، ومع ذلك يوجد فن فارسى ، إذ وجد ملوك فرس لم يستطيعوا التخلى عن التقاليد التى تربطهم بالملوك الشرقيين ، ولأنهم فاقوهم قوة وغنى ، وقد أعلنوا أنفسهم " الما ـك الكبار ، ملوك الملوك " ، أرادوا أقله مساواتهم بما خلدوا من آثار ، لا بل فرض عليهم مثل هذا السلوك مقامهم فى أعين رعاياهم الإيرانيين الذين اعتقدوا بأن ما ينتخبه الأهارمازدا هو من جوهر سام جدا (٦٨) . ومن هنا أصبح يمكن القول أن الفن الفارسى غلب عليه أن يكون " فنا ملكيا " .

وإذا كانت حروب الشاهنامه حافلة بفنون التعبئة ومكايد الحرب وآداب المبارزة والقتال وطرق المحاصرة ، ودق القلاع بالمجانيق والاستيلاء عليها بالحيلة أو بالنقب فى أصولها أو بتسلق أسوارها ..وهكذا ، فإن سير الملوك والأبطال خارج نطاق الحروب حافلة كذلك بأنماط من التقاليد والعادات يضيق المقام باستقصائها ، وربما يمكن الاكتفاء بإشارة موجزة إلى بعض من عاداتهم فى الزواج حيث تبدأ الحياة بكل مقوماتها ومقتضياتها (٦٩) .

لقد كان من عادة الإيرانيين الزواج بالمحارم والجمع بين الأخوات ومصاهر غيرهم من الأمم ، ولكنهم – فيما يبدو – كانوا يأنفون من تزويج نسائهم من الشعو الأخرى . ولم تتزوج الإيرانيات من الأجانب إلا فى حالة الهزيمة ، فكان زواجهن أش ما يكون بالسباء . وكان على الأبطال إذا أرادوا التزوج أن يحصلوا على موافقة الم لإتمام مراسم الخطبة والزواج . ولم يكن الزواج ليتم دون موافقة المرأة كذلك(٧٠)

التربيـــــة العامــــة :

ونقصد بالتربية العامة هنا مستويين ، أولهما بعض الممارسات المجتمعية العامة المشيرة إلى أساليب وقيم تربوية شائعة بين الناس ، ورد بعض منها فيما أوردناه في صفحات سابقة ، ونزيد عليه في فقرات تالية ، وهذا الجزء بناء على هذا لن نستفيض فيه ، وثانيهما مجموعة من الكتابات المصورة لقيم تربوية تصلح أن ترشد الناس في سلوكهم إلى ما هو كفيل باستقامة الطريق وسواء السبيل ،

فمن حيث المستوى الأول ، نجد أن الجمهرة الكبرى من الفرس ، كانوا يتحلون بالصراحة والكرم وحفظ الود وسخاء اليد ، يراعون آداب المجالس ويحرصون عليها حرصا لا يكاد يقل عن حرص الصينيين ، وكانوا إذا تقابل منهم شخصان متساويان في المرتبة تعانقا وقبل كل منهما الآخر في شفتيه ، فإذا قابل الواحد منهم من هو أعلى منه منزلة انحنى له انحناءة كبيرة تشعر بالخشوع والاحترام ، وإذا التقى بمن هو أقل منه قدم له خده ليقبله ، فإذا قابل أحد السوقة اكتفى بانحناء رأسه ، وكانوا يستنكرون تناول شيء من الطعام أو الشراب على قارعة الطريق (٧١) ،

وكان الفرس يعدون النظافة أكبر النعم التي لا تفضلها إلا الحياة نفسها ، وأن الأعمال الطيبة إذا صدرت عن أيد قذرة كانت لا قيمة لها ، لأن الإنسان إذا لم يقض على الفساد (وربما يكون المقصود " الجراثيم ") ، فإن الملائكة لا تسكن في جسمه ، وكان يسوؤهم أن أن يبصق الإنسان أو يتمخط أمام الناس ، وكانوا يفرضون أشد العقوبات على من يتسببون في نشر الأمراض المعدية ، وكانت الشريعة الأبستاقية كالشريعتين البرهمية والموسوية مليئة بمراسيم التطهير والحذر من القذارة ، وفي كتاب الزرادشتيين فقرات طويلة خصت كلها بشرح القواعد الواجب اتباعها لطهارة الجسد والروح ، وقد جاء فيها أن قلامة الظفار وقصاصات الشعر ، وإخراج النفس من الفم ، كلها أقذار يجب على الفارسي العاقل أن يتجنبها إلا إذا كانت قد طهرت من قبل(٧٢) ،

وكان الأبناء ، كما كان الزواج ، من الشروط الأساسية للإجلال والإكبار ، فالذكور منهم ذوو فائدة اقتصادية لآبائهم وحربية لملوكهم ، أما البنات فلم يكن يرغبن فيهن

لأنهن كن ينشأن لغير بيوتهن وليستفيد منهن غير آبائهن . ومن أقوال الفرس في هذا المعنى : " إن الرجال لا يدعون الله أن يرزقهم بنات ، والملائكة لا تحسبهن من النعم التى أنعم بها على بنى الإنسان (٧٣) . وكان الملك فى كل عام يرسل الهدايا إلى الآباء الكثيرى الأبناء ، كأن هذه الهدايا ثمنا لدمائهم يدفع مقدما .

وحفلت الآثار المدونة الفارسية بكثير مما يشير إلى مدى اهتمام بعض حكام الفرس بأمر التكوين التربوى ، فمن ذلك ما جاء فى الشاهنامه عن أردشير بالنسبة لتربية جنوده العسكريين ، فقد أحب أن تتكاثر جنوده وتتضاعف جيوشه ، فألزم كل من رزق ابنا أن يعلمه آداب الفروسية ومراسمها ، حتى إذا استكمل أسباب ذلك وأحكمها واستوفى أقسامها واستوعبها صار إلى باب الملك فكتب العارض فى جريدة الجيش اسمه ويعطيه من المعيشة رسمه ، فإذا عرض حرب أو حدث خطب ، سار تحت راية قائد عسكرى ، ووكل على كل ألف منهم موبذا (رجل دين) خبيرا بالأمور ، عارفا بأحوال الجمهور ، وجعله عليهم كالرقيب يخبره بما يرى من غنائهم ، ويطلعه على شجاعهم وجبانهم ، فيأمر الملك حينئذ بإكرام الشجاع وإثباته فى ديوان الجيش ، وبإسقاط الجبان وتعريضه لما يتأتى منه من الحرف والأشغال (٧٤).

كذلك كان أردشير لا يستخدم فى ديوانه جاهلا ولا يستعمل فيه إلا من كان عالما ، وكان ذا عناية بمن يكون حسن الخط فصيح القلم بارعا فى البلاغة ، فمن كان حظه من الأدب أوفر كان أحرى بنيل أفضاله وأجدر . وكان يعظم الكتبة ويكرمهم ويقول ، إنهم خزنة سرى وأنسباء روحى . وكان إذا أنفذ منهم واحدا إلى طرف من أطراف المملكة أوصاه وقال : لا تبع جواهر الرجال بأعراض الأموال ، ولا يكن لك مطلوب سوى الصلاح والسداد ، وتجنب عن مظان الحرص والفساد ، ولا تستصحب من أولادك وأقاربك أحدا ، وحسبك بمن نضم إليك عونا وملتحدا ، واجعل عليك للفقراء كل شهر راتبا لا تخل به ، ومن يحسدك فاحرمه معروفك ولا تعتن بأمره (٧٥).

وفى الشاهنامه أيضا أن يزدجرد لما ولد له ولد وسماه " بهرام " ، نصحه المحيطون به أن يعهد به إلى من يحسن تنشئته وتربيته ، خوفا منهم ، إن ظل فى كنف أبيه الذى كان فظا فى حكمه ، أن ينشأ مثله ، وبالفعل أسلمه إلى حاكم الإمارة العربية :" المنذر

بن النعمان " ، باعتبار – حسب ما قال المنذر " ما خصصنا به من آداب الفروسية ، وعندنا جماعة من المتبحرين فى العلوم النجومية والهندسية " (٧٦) ٠ وقد أسلمه المنذر إلى أربع نسوة ذوات أجسام صحيحة وأنساب صريحة وأذهان ذكية وآداب مرضية مدة أربع سنوات ، ثم إذا بالمنذر يفاجأ بالصبى ذى السنوات السبع يقول له : لا تعدنى صبيا رضيعا ، وسلمنى إلى من يعلمنى الأدب والعلم ، ولا تتركنى منهمكا فى البطالة والكسل ٠

لم يعجب المنذر هذا الطلب ، فكان رده على الصبى أنه ما زال بعد صغيرا ، ولم يأن ذلك ، ووعده بأنه إذا بلغ سنا يطيق فيه التعلم والتأدب أحضر له من يعلمه ذلك ، فإذ بالصبى يقول له : أيها الرجل ، لا تستصغرنى ، وانظر إلى بعين الكبر ، فالذنب للعين لا للنجم الصغير ، فإنى وإن كنت صغير السن فعقلى وافر ، وأنت وإن كنت طاعنا فى السن فعقلك ناقص ، وغريزتى مباينة لغريزتك ، فلا تنظر إلى نظرك إلى نفسك ، وإنك إذا انتظرت زمانا آخر لتعلمنى وتؤدبنى فات الوقت ولم يثمر عند ذلك الجد والجهد فعلمنى ما يليق بالملوك من الآداب ، فإن التعلم رأس مال ذوى الألباب ، وطوبى لمن عنى بخاتمة أمره فى ريعان عمره (٧٧)٠

وبالطبع فقد أثار هذا الحديث دهشة المنذر البالغة، وبالفعل أتى للصبى بأربعة من الموابذة : أحدهم ليعلمه الخط والكتابة ، والثانى ليعلمه الصيد والطرد ، والثالث من يعلمه الرماية واللعب بالكرة والصولجان ومطاردة الأقران فى الضراب والطعان ، والرابع من يسرد عليه سير الملوك وتواريخهم ويخبره عن أفعالهم الحميدة وأقوالهم السديدة (٧٨) ٠

وقد عرف التراث الفارسى جملة من أدب النصائح والحكم التى هى فى حقيقتها مثل وقيم تربوية ، كان لها موقعها الهام على خريطة هذا التراث ، ويمكن تحديد المطالب التى ابتغتها الحكم والنصائح والوصايا من الإنسان فى ثلاث قضايا : حيث " يطلب من الفرد أن يعمل عملا طيبا ، وأن يقول قولا طيبا ، وأن يفكر إذا خلا إلى نفسه فكرا طيبا " (٧٩) ٠ وما يجعل لهذه الحكم والآداب فاعلية وتأثيرا إيجابيا هو أنها واقعية ، موضوعة لتطبق فى أوساط المعتقدين ، تتجافى عن الخيال والتهويم فى عوالم خارجة

عن قدرة الإنسان ، حيث تؤكد " الأبستا " أو الأوفستا أن على الإنسان واجبات ثلاثة : أن يجعل العدو صديقا ، وأن يجعل الخبيث طيبا ، وأن يجعل الجاهل عالما (٨٠) .

وقد ظل هذا الإحساس بجدوى الحكم والنصائح يساير النفس الفارسية حتى غدا جزءا من كيانها ، يحدد تصرفاتها ونظراتها إلى قضايا الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وفق مسارات ومرتكزات تضمن لها حسن المعاد والمعاش على حد سواء . ومن هنا فإنه من الطبيعى أن يكون لملوك فارس القدامى قدر كبير من هذه الحكم والنصائح والعهود حفظته لنا المصادر الأدبية والتاريخية . وقد بلغ من احتفاء ملوك فارس بهذه الحكم والنصائح أن أحدهم كان " إذا خلف عهدا يعهده إلى الموك من بعده كان واجبا على من يخلفه من الملوك أن يدمنوا قراءته ويكثروا تدبره ، وألا تحدث لهم قوة السلطان وحميته أنفة منه ولا زهادة فيه . وكان حفظ آخرهم عهد أولهم رأس الأمور التى أصلحوا ، وكان تضييع ذلك رأس الأمور التى بها هلكوا " (٨١).

وليس هناك شك فى أن أمر الاهتمام بالحكم والنصائح قد جاوز أعتاب الملوك بلاطاتهم ، ليكون أبرز خاصية التصقت بالنفس الفارسية وتركت فيها آثارها ، فثمة قصص وحكايات أخلاقية لا حصر لها منتشرة فى إيران ، وكانت تقصد إلى أخذ العبرة والعظة (٨٢) . وقد وصل إلينا من العصر الساسانى جملة من الكتب ترمى إلى غايات تعليمية وتهذيبية وخلقية عرفت عندهم باسم " أندرزنامها " أو " بندنامها " ، ولفت صاحب (تراث فارس) الانتباه إلى هذه النوعية من الكتب ، فذكر : " وهى التى تعرف بأدب " النصح " (أندرز) . ولا تزال لدينا نماذج من هذا الأدب ، هذا النوع الأخير من الكتابات الذى يعتبر " بندنامه بزرجمهر " (نصائح بزرجمهر) الوزير الحكيم لكسرى أنوشروان – أشهر مثال له – لونا من الإنتاج تميزت به العبقرية الإيرانية، وكان له أكبر الأثر على آداب الإسلام التى ظهرت من بعده " (٨٣) .

ونقل " عبد السلام " عن الجاحظ فى كتابه " المحاسن والأضداد " قوله : " إنه فى تاريخ الإيرانيين حودث عظيمة وأيضا مواعظ وحكم عامة المنفعة وأيضا فى الأمور التى تشير إلى علومهم وعظمتهم " . كذلك ورد فى كتب الجغرافيين والسائحين الأوائل

ضمن مشاهداتهم أنهم رأوا بعض الآثار الإيرانية فى عصور ما قبل الإسلام وكتبوا عن مشاهداتهم وما جمعوه من أخبار(٨٤).

وهذا دليل على أن كتاب العصر الساسانى كانوا يهتمون بالتراث الأخلاقى ، وباعثا على أن يدونوا عبارات تشتمل على نصائح وحكم بدلا من تزيينها بالصور والرسوم على أغلب أطرزة الملابس أو أطراف السجاجيد أو الموائد أو فى وسط بعض الكئوس أو على الخاتم ، مثلما كان منقوشا على خاتم كسرى أنوشروان " به مه نه مه مه " ، ومعنى ذلك " الأجود هو الأكبر وليس الأكبر هو الأجود " (٨٥) .

ومن دلالات الاهتمام غير العادى بالأدب الأخلاقى أن " ابن النديم " قد أثبت فى " الفهرست " خمسة عشر كتابا فارسيا محورها الأساسى هو مواعظ وحكم ونصائح ، مما يشكل مضمون التربية الأخلاقية المنشودة (٨٦) :

١ - كتاب زاد الفروخ فى تأديب ولده .

٢ - كتاب مهراد وجسيس الموبدان إلى بزرجمهر بن البختكان .

٣ - كتاب كسرى إلى ابنه هرمز يوصيه حين اصطفاه الملك وجواب هرمز إياه .

٤ - كتاب ملك من الملوك الخالية إلى ابنه فى التأديب .

٥ - كتاب عهد كسرى إلى من أدرك التعليم من بيته .

٦ - كتاب عهد أردشير بابكان إلى ابنه سابور .

٧ - كتاب موبذان موبذ فى الحكم والجوامع الآداب .

٨ - كتاب عهد كسرى إلى المرزبان وإجابته إياه .

٩ - كتاب ما كتب به كسرى إلى المرزبان وإجابته إياه .

١٠ - كتاب إرسال ملك الروم الفلاسفة إلى ملك الفرس يسأله عن أشياء من الحكمة

١١ - كتاب ما أمر به أردشير باستخراجه من خزائن الكتب التى وصفها الحكماء فى التدبير .

١٢ - كتاب سكر بيرى بن مرديود لهرمز بن كسرى ورسالة كسرى إلى جواسب وجوابها .

١٣ - كتاب كسرى إلى زعماء الرعية فى الشكر .

١٤ - كتاب سيرت نامه تأليف حدا هود بن فرخزاد .

١٥ - كتاب علي بن زين الأنصارى فى الآداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب .

ويذكر " عبد السلام " أن الكتاب الأول غير موجود حاليا (٨٧) .

ويذهب كثيرون إلى أن ابن المقفع قد ترجم (الأدب الكبير) و (الأدب الصغير) عن الفارسية ، مما يدفعنا إلى أن نتوقف عند بعض ما ورد به من أفكار وآراء تربوية ، فمن ذلك بيانه (فى الحث على تعرف أهل العلم وفضله) (٨٨) ، جاء فيه مخاطبا طالب العلم بأنه إن كان يريد العلم فعليه أن يعرف الأصول (القوانين والقواعد) ، و الفصول (الفروع) ، على أساس أن هناك من الناس من ينفقون جهدهم فى الفروع ، فتضيع منهم الأصول ، فيصبح تعلمهم غير مجد ، لكن الذين يركزون الجهد فى تحصيل الأصول ، يستطيعون أن يستغنوا بها عن الفروع ، وأمر مثل هذا مما نقول عنه فى فكرنا المعاصر من أهمية التركيز فى التعليم على " الأساسيات " ، فوعى الطالب بها إما أن يغنيه عن التفاصيل ، وإما أن ييسر له سرعة الإلمام بها .

ويسوق كاتبنا أمثلة فى بعض المجالات لما يمكن أن يشكل أصولا تستحق من المتعلم أن يوجه إليها جهده :

- ففى الدين ، تدور الأصول والأساسيات حول صحة الاعتقاد ، وتجنب الكبائر ، وتأدية الفرائض ، ثم إذا استطاع طالب العلم أن يجاوز ذلك إلى التفقه فى الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل .

- وفيما يتصل بالشأن الجسدى ، فإن صلاح الجسد إنما يكون بالاعتدال فى المأكل والمشرب والممارسة الجنسية ، ومن الأفضل العلم بما ينفع الجسد ويضره .

- ومن حيث البأس والشجاعة ، فمن المفروض ألا تفكر فى الفرار بينما الأصحاب فى اشتباك مع العدو ، بل إن استطعت أن تكون أول من يبادر بالاشتباك وآخر من ينتهى منه ، فهذا يعد عملا فاضلا .

- ومن حيث الجود والكرم ، فألا يضن الإنسان بالحقوق على أهلها ، بل من الأفضل أن نزيد ذا الحق على حقه ، ونعطى من لا حق له (٨٩) .

ويسوق ابن المقفع فى الأدب الكبير العديد من المواعظ الأخلاقية التى يوجهها بطريق مباشر إلى القارىء الراغب فى مزيد من الاتسام بالأخلاق الفاضلة ، فمن ذلك(٩٠) :

- ابذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفدك (عطاءك) ، ومحضرك (مشهدك) ، وللعامة بشرك وتحننك ، ولعدوك عدلك وإنصافك ، واضنن بدينك وعرضك على كل أحد

- ويسوق ابن المقفع فى النصيحة التالية ما يقع مباشرة فى الفئة التى نسميها " الأمانة العلمية " من حيث ضرورة أن ننسب كل رأى وكل فكرة مما نستعين به إلى صاحبه ، فيقول :

إن سمعت من صاحبك كلاما أو رأيت منه رأيا يعجبك فلا تنتحله (تنسبه لنفسك) تزينا به عند الناس ، واكتف من التزين بأن تجتنى الصواب إذا سمعته وتنسبه إلى صاحبه ، واعلم أن انتحالك ذلك مسخطة لصاحبك ، وأن فيه مع ذلك عارا وسخفا .

- .. ولا تخلطن بالجد هزلا ، ولا بالهزل جدا ، فإنك إن خلطت بالجد هزلا هجنته (قبحته) ، وإن خلطت بالهزل جدا كدرته .

لكن هناك موقفا يمكن أن يكون خلط الجد بالهزل محمودا ، وهو أن يقابلنا سفيه بسفه قول وسىء لفظ " فتجيبه إجابة الهازل المداعب .. وطلاقة وجه وثبات من المنطق " (٩١) .

ومن المعروف أن التربية الخاصة بالحكام والملوك احتلت مكانة مهمة فى دائرة التربية الأخلاقية الفارسية ، كما تدلنا الجمهرة الكبرى من الكتابات الأدبية الفارسية ، وكذلك تلك الكتابات العربية التى رددت ما كان لدى الفرس ، فمن ذلك ما أشار إليه " الجاحظ " فى الكتاب المنسوب إليه (التاج فى أخلاق الملوك) ، فمن الأمثلة التى يحتويها مما يظهرنا على لون من النظم والتربية الأخلاقية الخاصة بالحكام وذوى السلطة (٩٢) :

- من حق الملك ألا يحدث على طعامه بحديث جد ولا هزل ، وإن ابتدأ بحديث فليس من حقه أن يعارض بمثله . وليس فيه أكثر من الاستماع لحديثه والأبصار خاشعة ، ولشىء ما كانت ملوك ساسان إذا قدمت موائدهم زمزموا عليها ، فلم ينطق ناطق

بحرف حتى ترفع ، فإن اضطروا إلى الكلام كان مكانه إشارة وإيماء يدل على الغرض الذى أرادوا والمعنى الذى قصدوا ٠

– ومن حق الملك أن يكتم أسراره عن الأب والأم والأخ والزوجة والصديق ، فإن الملك يحتمل كل منقوص ومأنوف (الرجل المكروه) ، ولا يحتمل ثلاثة : صفة أحدهم أن يطعن فى ملكه ، وصفة الآخر أن يذيع أسراره ، وصفة الآخر أن يخونه فى حرمه ٠٠ وكان كسرى أبرويز يقول : يجب على الملك السعيد أن يجعل همه كله فى امتحان أهل هذه الصفات ، إذ كانت أركان الملك ودعائمه ٠

وفى كتاب (سندبادنامه) نجد أن الملك " كورديس " لما ولد له ولد وسلمه إلى أحد المربين ليعلمه ثقافة وآداب الملوك ، ولم يتعلم شيئا مدة عشر سنين ، أمر فأحضروا الفلاسفة ، وعقد محفلا ، وقال لهم بطريق الاستشارة والاستخارة : لابد للملوك من معرفة شروط الرياسة ، والإلمام بلوازم السياسة ، وفيض الفضل وبسط العدل ، والفكرة الصحيحة ، والرأى النجيح ، وحل وعقد أولياء الدولة ، وخفض ورفع أعداء المملكة ، وقمع الأعداء وقهر الحاسدين ، وتربية الأولياء وتخويف الأعداء ، وحل المشكلات ، ودفع المعضلات ، وآيين (نظام) الملك على سنن العظمة ، وشرائع الفتوة ، ولوازم المروة ، واستمالة الأصدقاء ، واستقالة عثرة الخدم ، لأن مناصب الملك لا يمكن ضبطها بغير الفراسة الكاملة ، والسياسة الشاملة وإحراز الآراء ، وإفاضة الآلاء ، (فيجب أن يختار) من جملة الفلاسفة من يهتم بإتمام هذا المهم ، ويقوم بمواجب هذه الخدمة ، ويؤدى شرائط الشفقة ولوازم النصيحة ، ويعلمه ويلقنه دقائق العلم والحكمة ، ويصيره محتظيا ومتوافرا بالعدل ، بحيث يصير – بإمداد العلم والحكمة – مستعدا لسرير المملكة والسلطنة ٠٠(٩٣) ٠

وعندما اتفق الحكماء على أن " سندباد " هو أصلح من يتولى مهمة تربية ابن الملك وتعليمه ، قال له الملك : ٠٠ فيجب أن تفهمه وتقدم له مكارم الأخلاق ، ومحامد الأوصاف ، ومقاييس السياسة ، وقوانين الرياسة ، وآداب السلطنة ، ودقائق الشريعة ، وحقائق الطريقة ، ليصير مجربا ومهذبا ، والثقة والاعتماد بعد فضل أكرم الأكرمين ،

وفيض أرحم الراحمين ، على كفايتك وشهامتك ، وعندما تظهر آثار ذلك على صفحات أحواله ، وحواشى أعماله ، تؤدى حقوق المناصحة ..(٩٤) .

ويورد " العكوب " فى دراسته المتميزة عددا وفيرا من القيم الخلقية التى وردت فى الحكم الفارسية مما له دوره فى تنشئة الشخصية ذات السلوك المستقيم ، فمن ذلك :

– العقل والعلم (٩٥) : إذ ترفع الحكمة الفارسية العقل إلى مرتبة عالية جدا فى سلم الفضائل لا يضاهيها فى السمو والرفعة إلا العلم ، ويذكر أنه قيل لأنوشروان : ما بزر جميع الفضائل ؟ قال : العقل والعلم . قيل : هل فوق العقل والعلم شىء ؟ قال : التوفيق يزينهما ، والخذلان يشينهما . وتلح حكم الفرس على طلب العلم ، الذى هوسبيل لصلاح الدين والدنيا ، فقد قال أحدهم : لسنا بالكد فى طلب المتاع الذى نلتمس به دفع الضر والعيلة بأحق منا بالكد فى طلب العلم الذى نلتمس به صلاح الدين والدنيا .وتحدد حكم الفرس أفضل أنواع العلم ، إذ العلم عندهم على الأربعة أوجه : أن تعلم أصل الحق ، الذى لا يقوم إلا به ، وفروعه التى لابد منها ، وقصده الذى لا يقع إلا فيه ، وضده الذى لا يفسده إلا هو .

– المشورة (٩٦) : فتعلق الحكم الفارسية كبير اهتمام على موضوع التشاور والتناصح ، لما يمثله من اجتماع الآراء لينتخب سدادا وصوابا . وينسب إلى أوشهنج قوله : " المستشير متحصن عن السقط والمستبد متهور فى الغلط " . وتشير الحكم الفارسية بجرأة إلى ضرورة المشورة ، إذ يقال إنه قيل لقباذ : أى شىء أنفع للعاقل ؟ وأى شىء أضر له ؟ قال : أنفع الأشياء له مشاورة العلماء ، والتجربة ، والتؤدة ، وأضرها له الكسل ، واتباع الهوى ، والعجلة فى الأمور .

– القناعة والتواضع (٩٧) : فلهذه القيمة محل فسيح فى الحكمة الفارسية ، وتحدد لنا هذه الحكمة معنى القناعة ومعنى التواضع ، فيذكر أنه قيل لأنوشروان : ما القناعة ؟ وما التواضع ؟ قال : أما القناعة فالرضا بالقسم ، وسخاء النفس عما لا ينبغى الرغبة فيه . وأما التواضع ، فاحتمال الأذى من كل أحد ، ولين الجانب لمن هو دونك

• وقيل له : ما ثمرة القناعة ، وما ثمرة التواضع ؟ قال : ثمرة القناعة الراحة ، وثمرة التواضع المحبة •

اللغـــة والكتابـــة :

فى العهد العيلامى كانت اللغة الأنزانية هى أقدم لغات الأهالى ، وقد تلاشت تلك اللغة فى الألف الثالث قبل الميلاد ، ثم راجت بعد ذلك اللغة السومرية واللغة السامية • وفى عام ١٥٠٠ ق•م تم إحياء اللغة الأنزانية فجأة ، وبدأ انتشارها واستعمالها ، وهذا يشير إلى أن اللغة الأنزانية لم تكن قد تلاشت نهائيا ، وإنما كانت مستخدمة بين الأهالى ، ولكن النقوش كانت تكتب باللغتين السومرية والسامية ، لأن اللغة إذا ماتت لا تحيا من جديد • والخط العيلامى هو خط مسمارى (٩٨) •

ومما يجدر ملاحظته أن سكان إيران القدماء كانوا يتكلمون بلغات متعددة ، هذه اللغات ما هى إلا لهجات أصلها من مجموعة اللغات الهندية الأوربية • وإذا نظرنا إلى الولايات التى كانت تتكون منها الدولة الأخمينية (٥٥٠-٣٣١ق•م) فسوف نجد أن كل ولاية كانت لها لغة خاصة بها• وبسبب عدم وجود آثار مكتوبة أو مدونة على نقوش ، أصبح من العسير ذكر معلومات وافية عنها •

واللغة الفارسية القديمة هى إحدى لغات جنوب غرب إيران ، وكانت لغة البلاط الأخمينى ، وإحدى اللغات الرسمية للدولة الأخمينية ، وأيضا لغة العديد من النقوش الأخمينية ، وتكتب من اليسار إلى اليمين • وقد دون الملوك الأخمينيون من قورش الكبير مؤسس الأسرة الأخمينية (٥٥٩-٥٥٢ق•م) حتى أردشير الثالث (٣٥٩-٣٣٨ق•م) شروحا لحروبهم وانتصاراتهم بهذه اللغة وبخط مسمارى أخمينى محفور على الصخور والآثار المبنية والقبور والألواح الذهبية والفضية والحجرية والطينية والأوانى والكئوس والأختام (٩٩) •

وحينما تعلم الفرس الكتابة ، استعملوا اللغة الآرامية فى كتابة وثائقهم كما استعملوا الخط المسمارى البابلى فى نقوشهم ، وقد بسطوا المقاطع البابلية الكثيرة ، وأنقصوها من ثلاثمائة مقطع إلى ستة وثلاثين مقطعا ظلت تتطور حتى صارت حروفا اشتمل

عليها هجاؤهم المسمارى . وكانت اللغة الآرية ، وطريقة رسم خطها شائعتين فى أسواق بابل ومراكز التجارة الهامة ، لأنها – لسهولتها – تناسب المعاملات التجارية من أخذ وعطاء ، فكانت الأوراق والأسانيد التجارية تكتسب بهذه اللغة ، بالقلم والحبر على أوراق البردى ، لأن الكتابة بهذه الطريقة أيسر من الكتابة على القوالب الطينية ، واستطاع الناس بذلك التعامل فى المسائل التجارية فى سهولة ويسر ، وتمكنوا من نقل الأسانيد التجارية من مكان إلى مكان ، وحفظها حتى لا يتطرق إليها التلف (١٠٠).

أما فيما يختص بكنه اللغة الفارسية القديمة ، فيجب أن يكون واضحا أنها مثل اللغة السنسكريتية – أى لغة الكتب الهندية المقدسة – واللغة الأوستائية ، أى اللغة التى كتبت بها الأوبستا ، كتاب زرادشت المقدس ، وأنهما قد نشآ عن اللغة الآرية المشتركة ، أى أن هذه اللغات الثلاثة أشقاء من صلب واحد . أما عن معلوماتنا عن تلك اللغة المشتركة التى هى أصل اللغة الحالية ، فليس بين أيدينا شىء عنها لأن تلك اللغة المشتركة كان يستخدمها الآريون قبل ثلاثة آلاف سنة على الأقل قبل الميلاد ، وتاريخ الكتابات التى خلفها الجنس الآرى لا ترجع إلى أكثر من ألف وأربعمائة سنة قبل الميلاد (١٠١) .

ويبرهن ديورانت على الأصل المشترك للفارسية القديمة والسنسكريتية وبعض اللغات الأوربية من خلال القائمة التالية لبعض الكلمات (١٠٢) :

الفارسية القديمة	السنسكريتية	اليونانية	الألمانية	الإنجليزية	اللاتينية
Nama	Nama	Anoma	Nahm	Name	Nomen
Matar	Matar	Meter	Mutter	Mother	Mater
Bratar	Bhratar	Phrater	Bruder	Brother	Frater

وعندما سقطت مدينة بابل فى يدى قورش الكبير سنة ٥٣٨ق.م كانت اللغة الآرامية فى تلك الفترة شائعة فى الشرق كله . وكان تعامله مع سكان بابل باللغة الآرامية وليس بالفارسية ، وهذا فى حد ذاته دليل على أن اللغة الارامية كانت اللغة السائدة والمتعارف عليها رسميا فى الدولتين الأخمينية والبابلية (١٠٣) ، كما شجع

قورش على اتخاذ اللغة الآرامية لغة رسمية لدولته ، كما هى اللغة الرسمية والشعبية الأجزاء الغربية من الإمبراطورية الأخمينية والتى تشمل بابل وسورية .

وبعد سقوط الدولة الأخمينية على يد الأسكندر المقدونى ، انتشرت اللغة اليونانية فى الأراضى المفتوحة ، ومنها إيران ، واستمر تواجد اللغة الآرامية بين الإيرانيين . وفى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد قل عدد الأشخاص الذين كانوا يعرفون الآرامية ويستطيعون الكتابة بها ، وبعد فترة تركت الكتابة الآرامية تماما ، وأصبحت لغة العوام فى غرب إيران ليس أكثر ، وبذلك فقدت مكانتها التى احتلتها فى عصر الدولة الأخمينية كلغة دولة ولغة عالمية ، إلا أن الكتاب الإيرانيين استمروا فى استخدام كلمات آرامية فى كتاباتهم ، وهذا ما أطلقوا عليه " الهزوارش " (١٠٤).

وقد اتسعت معارفنا باللغات الإيرانية المتوسطة اتساعا بينا بالاكتشافات التى تمت فى تركستان الصينية ، فقد أوضحت أفواج من البعثات العلمية عددا كبيرا من النصوص الأدبية الدينية ، ووثائق من أنواع أخرى مكتوبة بلغات مختلفة كان بعضها ، حتى ذلك الوقت معروفا معرفة قليلة وبعضها الآخر مجهولا جهلا تاما (١٠٥) .

وتعتبر اللغة الفارسية المتوسطة أو البهلوية الساسانية أو البارسيك امتدادا مباشرا للغة الفارسية القديمة ، وتعد من مجموعة غرب إيران ، وكانت اللغة الرسمية فى العصر الساسانى فى الفترة من أوائل القرن الثالث الميلادى حتى القرن السابع ، أى قرابة خمسة قرون هى عمر الدولة الساسانية (١٠٦) .

وإذا كانت اللغة الفارسية المتوسطة قد عاشت هذا العمر ، إلا أنها تلقت ضربة قاضية عندما دخل العرب دولة الفرس وانضوت منطقتها تحت مظلة الإسلام متحدثة باللغة العربية . وعلى الرغم من انتصار اللغة العربية ، إلا أنها لم تسلم من بعض غزو داخلى من الفارسية ، تجلى فى بعض الكلمات التى دخلت العربية . ومن الأمثلة التى يمكن أن تساق فى هذا السبيل شعر الشاعر العربى المعروف " الأعشى " ، إذ نجد فى شعره كلمات فارسية ، سواء أكان بعضها معروفا من قبله أم غير معروف ، منها أسماء فارسية للأزهار ، ذكرها فى وصفه لمجلس من مجالس الشرب واللهو (١٠٧).

ومن الكلمات الفارسية التى شاعت فى العربية كلمة " سمسار " ، وكلمة " بستان " ، و " الأباريق " و " التاج " و " الطراز " و " قابوس " و " زنجبيل " و " مهرجان " (١٠٨).

التعليم النظامى :

شحيحة هى تلك المصادر التى نستطيع من خلالها أن ندرس ما كان عليه التعليم النظامى فى الحضارة الفارسية إلى الدرجة التى دفعت البعض إلى أن يقرر بأن لم يكن هناك نظام للتعليم . ونظرا لإيماننا الراسخ بأنه ما من حضارة كبرى من الحضارات التى قامت فى التاريخ إلا واستندت إلى نظام للتربية والتعليم قوى ومنتج ، فمن الصعب أن نثنى على هذا القول بانتفاء وجود نظام للتعليم عند الفرس ، كل ما هنالك فإننا نعلق الحكم ، فلربما لم تتوافر المصادر والمعلومات فى الوقت الحاضر ، لكنها ، ربما ، قد تتوافر فيما بعد .ولعل هذا ما جعلنا نفصل القول أكثر بالنسبة لما أسميناه بالتربية العامة فى الجزء السابق .

وفى إطار الشك فى وجود نظام للتعليم ، ذكر " هيون تسيانج " أن الإيرانيين لا يعنون بالتعليم كثيرا ، ولكنهم يهتمون بأعمالهم . وليس من شك فى أن التعليم الأولى وجزءا من التعليم العالى ، على الأقل كانا محصورين فى رجال الدين ، وكان طابعهما ظاهرا ، أما تعليم الأطفال وشباب طبقات المجتمع العالية ، فلربما كانت المعلومات أكثر دقة ، فقد كان أبناء الأشراف يتلقون جزءا من تعليمهم مع أمراء البيت المالك فى القصر ، كما كان الحال أيام الأخمينيين ، تحت إشراف معلم خاص ، وكانوا يتعلمون القراءة والحساب ورمى القرص والشطرنج وركوب الخيل والصيد ، ومما لا يحتاج إلى بيان أن النبلاء الشبان كانوا يلقنون فن الحرب قبل كل شيء (١٠٩).

وذكر نص بهلوى زرادشتى إنه يجب على الشاب فى هذا السن أن يعرف أصول الدين كما جاءت فى الأوستا والزند ، وأن يعرف تاريخ الرجال وواجباتهم . وفى العشرين يمتحنه الحكماء والهرابذة والدساتير . ويصف خادم صغير فى بلاط كسرى الأول تفاصيل التعليم الذى تلقاه ، ففى السن المعين ألحق بالمدرسة حيث حفظ عن ظهر قلب الأجزاء الرئيسية فى الأوستا مع شروحها ، ثم فى التعليم المتوسط اهتم بدراسة

الأدب والتاريخ والفصاحة والفروسية ورمى السهام وتسديد الرمح ، ثم عزف الموسيقى والغناء ، وعلم النجوم وأتقن الشطرنج وأنواع الألعاب الأخرى ، وأخيرا عرض على الملك معرفته بأنواع المأكولات وفن اللبس (١١٠)٠

وكان الوليد يبقى فى حضانة أمه حتى سن الخامسة من عمره ، ثم يحتضنه أبوه حتى السابعة ، وفى هذه السن كان يمكن أن يدخل المدرسة ٠ وكان التعليم قاصرا على أبناء الأغنياء ويتولاه الكهنة عادة ، فكان التلاميذ يجتمعون فى الهيكل أو بيت الكاهن ، وكان من المبادىء المقررة ألا تقوم مدرسة بالقرب من السوق حتى لا يكون ما يسودها من كذب وسباب وغش سببا فى إفساد الصغار ، أما طريقة التدريس فكانت الحفظ عن ظهر قلب ، وتكرار الفقرات الطويلة غيبا (١١١) ٠

وكان الواجب الوحيد المفروض على الطفل هو الطاعة ، وخطأوا كل من ضرب طفلا قبل السابعة من عمره ٠ والظاهر أن تربية الأسرة لأبنائها كانت مشفوعة باللين والشفقة ٠ وكان هناك حرص ، فى تعليم أبناء الأغنياء المجالات السابق الإشارة إليها ، من جانب المعلمين ، على الالتفات التفاتا خاصا لتعويدهم الصدق وضبط النفس ، ويسردون عليهم قصصا تشف عن شجاعة وشهامة أجدادهم الأبطال ، وأصبح أولئك المتعلمون ، وخاصة عندما يصلون إلى مرحلة الشباب ، أشداء أقوياء بفضل مثابرتهم على الرياضة البدنية ، فكانت مدارسهم أساسا لمدارس الفروسية التى أسسها الأوربيون فى العصور الوسطى (١١٢)٠

ولقد قال اكزنيوفون Xenophon الفيلسوف اليونانى إن أبناء الأشراف يرون فى القصور تمجيد الملك لكل من قام بعمل مجيد للوطن وتحقيره لمن يقصر فى ذلك الواجب فشجعهم ذلك على خدمة بلادهم وعرفوا طريقة سياسة الملك ٠ وقال أفلاطون إن أبناء الملوك تعلموا حكمة زرادشت والعدل والشجاعة والاعتدال فى المأكل والمشرب ٠

وكانوا يستظهرون الأدعية والصلوات من الكهنة شفويا من غير الاستعانة بالمكتوبات شفويا ، وعندما يبلغون سن الخامسة عشر يتنمنطقون الحزام المقدس فى

حفلة شالقة ، وكان ذلك الحزام مجدولا من اثنين وسبعين خيطا من شعر الجمال أو الصوف ، ولا يخلعه الصبى عن جسمه ليلا ولا نهارا لأنه فى اعتقادهم يحمى الأطفال من تأثير الشياطين ، وعند تقلد الصبى ذلك الحزام كان يتلو قطعة من الأوستا (الأبستاق) ويقسم أنه سيحافظ على قوانين ومبادىء زرادشت (١١٣) .

أما تعليم البنات فإن مصادرنا لا تمدنا بشىء منه ، وهناك من يظن أن تعليم البنات كان مقصورا على التدبير المنزلى . وتحدث مصدر آخر صراحة عن تعليم النساء أصول التدبير المنزلى . ونستطيع من أحد النصوص أن نستنتج أن نساء الطبقات العالية كن يلقن أحيانا درسا عميقا فى العلوم ، وكان أحد القضاة ذاهبا ذات يوم إلى المحكمة فأحاط به خمس سيدات فسألته إحداهن أسئلة عن بعض حالات خاصة فى الكفالة ، فلما بلغ السؤال الأخير لم يحر جوابا ، فقالت له إحداهن : أيها القاضى ، لا تكدن ذهنك وقل فى صراحة : لا أعلم ..!!(١١٤) .

وفى النهاية فإننا نلاحظ حقا أن الإمبراطوريات بطبيعة تكوينها سريعة الانحلال ، وأن الذين يرثونها تعوزهم جهود الذين ينشئونها ، ذلك فى الوقت الذى تهب فيه الشعوب الخاضعة لسلطانها وتستجمع قواها لتناضل فى سبيل ما فقدته من حريتها . ولم يعمل الفرس فى عهد ابمراطوريتهم الذى دام مائتى عام شيئا يخفف ما بين الشعوب الخاضعة لحكمهم من تباين ، أو يضعف من أثر القوى الطاردة التى تعمل على تفكك دولتهم ، بل قنعت هذه الإمبراطورية بأن تحكم خليطا من الأمم ، ولم تفكر فى يوم من الأيام فى أن تنشىء دولة حقيقية ، لذلك أخذت أسباب التفكك والاضمحلال تتسرب إلى جسدها شيئا فشيئا (١١٦) .

الهوامـــــش

١- سامى سعيد أحمد و رضا جواد الهاشمى : تاريخ الشرق الأدنى القديم ، إيران والأناضول ، وزارة التعليم العالى ، بغداد ، د.ت ، ص ٢٣
٢- المرجع السابق ، ص ٢٤
٣- المرجع السابق ، ص ٨٢
٤- المرجع السابق ، ص ٨٣
٥- أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ١٨٩
٦- دونالد ولبر : إيران ، ماضيها وحاضرها ، ترجمة عبد المنعم محمد حسنين وإبراهيم أمين الشواربى ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٠
٧- أحمد فخرى ، مرجع سابق ، ص ١٨٩
٨- المرجع السابق ، ص ١٩٠
٩- دونالد ولبر ، مرجع سابق ، ص ٢٢
١٠- المرجع السابق ، ص ٢٣
١١- إبراهيم رزقانة وآخرون : حضارة مصر والشرق القديم ، مكتبة مصر ، القاهرة ، د.ت ، ص ٤١١
١٢- المرجع السابق ، ص ٤١٢
١٣- أحمد فخرى ، مرجع سابق ، ص ١٩١
١٤- المرجع السابق ، ص ١٩٢
١٥- سامى سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمى ، مرجع سابق ، ص ٥١
١٦- المرجع السابق ، ص ٦٣
١٧- المرجع السابق ، ص ٧١
١٨- أحمد فخرى ، مرجع سابق ، ص ٤١٣
١٩- المرجع السابق ، ص ٤١٦
٢٠- دونالد ولبر ، مرجع سابق ، ص٢٨
٢١- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١ ، م١ ، ج٢ ، ص ٤٠٤

٢٢- أحمد فخرى ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦

٢٣- سليم حسن : مصر القديمة ، مطابع دار الكتاب العربى ، القاهرة ، د.ت ، ج١٣ ، ص ٩٧

٢٤- المرجع السابق ، ص ٩٨

٢٥-ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص ٤١٥

٢٦- المرجع السابق ، ص ٤١٨

٢٧- سامى سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمى ، مرجع سابق ، ص ١٢٩

٢٨- المرجع السابق ، ص ١٣٥

٢٩- المرجع السابق ، ص١٣٦

٣٠- دونالد ولبر ، مرجع سابق ، ص ٣٨

٣١- المرجع السابق ، ص ٣٩

٣٢- سامى سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمى ، مرجع سابق ، ص ١٥٣

٣٣- دونلد ولبر ، مرجع سابق ، ص ٤٣

٣٤- المرجع السابق ، ص ٤٤

٣٥- آرثر كريستنسن : إيران فى عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٢٠

٣٦- المرجع السابق ، ص ١٢٣

٣٧- إبراهيم رزقانة وآخرون ، مرجع سابق ، ص ٤٤٣

٣٨- جفرى بارندر (تحرير) : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (١٧٣) / نايو ١٩٩٣ ، ص ١١٦

٣٩- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص ٤٢٦

٤٠- حسن برنيا : تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساسانى ، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم ، والسباعى محمد السباعى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٣١٤

٤١- كامل سعفان : معتقدات آسيوية ، دار الندى ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ١٠٧

٤٢- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٤٣- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص ٤٢٨

٤٤- جفرى بارندر ، مرجع سابق ، ص ١١٦

٤٥- حسن برنيا ، مرجع سابق ، ص ٣١٧

٤٦- المرجع السابق ، ص ٣١٨

٤٧- فيليب عطية (مترجم) : تعاليم زرادشت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٥٥

٤٨- المرجع السابق ، ص ٥٩

٤٩- حسن برنيا ، مرجع سابق ، ص ٦٨

٥٠- المرجع السابق ، ص ٢١٤

٥١- المرجع السابق ، ص ٢١٥

٥٢- المرجع السابق ، ص ٢١٦

٥٣- أحمد محمد الحوفى : تيارات ثقافية بين العرب والفرس ، نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٧٧

٥٤- عيسى العاكوب : تأثير الحكم الفارسية فى الأدب العربى المعاصر ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٨٩ ، ص ٣٨

٥٥- المرجع السابق ، ص ٣٩

٥٦- المرجع السابق ، الصفحة نفسها

٥٧- أمين عبد المجيد بدوى : جولة فى شاهنامة الفردوسى ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٦

٥٨- أمين عبد المجيد بدوى (تعريب) : سندباد الحكيم " سندبادنامه " ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٥

٥٩- المرجع السابق ، ص ٩

٦٠- المرجع السابق ، ص ١١

٦١- باول هورن : الأدب الفارسى القديم ، ترجمة حسين مجيب المصرى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٢٥

٦٢- المرجع السابق ، ص ٣٢

٦٣- أحمد محمد الحوفى ، مرجع سابق ، ص ٥٦

٦٤ أمين عبد المجيد ، جولة فى شاهنامة الفردوسى ، مرجع سابق ، ص ٦٠

٦٥ باول هورن ، مرجع سابق ، ص ٤٤

٦٦- المرجع السابق ، ص ٤٥
٦٧- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٤٤٦
٦٨- أندريه غيمار ، و جانين أوبايه : تاريخ الحضارات العام ، الشرق واليونان القديمة ، ترجمة : فريد م. داغر، و فؤاد ج. أبو ريحان ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ص ٢٢٦
٦٩- أمين عبد المجيد ، جولة فى شاهنمه الفردوسى ، ص ٦٠
٧٠- المرجع السابق ، ص ص٦١
٧١- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٤٣٩
٧٢- المرجع السابق ، ص ٤٤٠
٧٣- المرجع السابق ، ص ٤٤٢
٧٤- أبو القاسم الفردوسي : الشاهنامه ، ترجمة الفتح بن على البندارى ، تحقيق عبد الوهاب عزام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ج٢ ، ص ٥٤
٧٥- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
٧٦- المرجع السابق ، ص ٧٥
٧٧- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
٧٨- المرجع السابق ، ص ٧٦
٧٩-عيسى العاكوب ، مرجع سابق ، ص٥٦
٨٠- المرجع السابق ، الصفحة نفسها
٨١- المرجع السابق ، ص ٥٧
٨٢- المرجع السابق ، ص ٥٨
٨٣- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
٨٤- عبد السلام عبد العزيز فهمى : كتب الأخلاق والحكمة العلمية الساسانية وتأثيرها فى الأدب الأخلاقى الإسلامى ، دار الفردوس للطباعة ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص٣٥
٨٥- المرجع السابق ، ص ٣٦
٨٦- ابن النديم : الفهرست ، طبع مصر ، القاهرة ، ١٣٥٦ هجرية ، ص ٤٣٨
٨٧- عبد السلام عبد العزيز ، مرجع سابق ، ص ٤٣
٨٨ - ابن المقفع :الأدب الكبير والأدب الصغير ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص١٠
٨٩ - المرجع السابق ، ص ١١

٩٠ - المرجع السابق ، ص ٥٦

٩١- المرجع السابق ، ص ٦٨

٩٢- أحمد محمد الحوفى : مرجع سابق ، ص ١٨٩

٩٣- أمين عبد المجيد ، سندباد الحكيم ، مرجع سابق ، ص ٧٨

٩٤- المرجع السابق ، ص ٨٤

٩٥- عيسى العاكوب ، مرجع سابق ، ص ١١١

٩٦- المرجع السابق ، ص ١٠٨

٩٧- المرجع السابق ، ص١١٢

٩٨- حسن برنيا ، مرجع سابق ، ص ٢٧

٩٩- عبد السلام عبد العزيز فهمى : الحياة اللغوية فى إيران قبل الإسلام ، دار النيل للطباعة ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ١٩

١٠٠- إبراهيم رزقانة ، مرجع سابق ، ص ٤٢٩

١٠١- حسن برنيا ن مرجع سابق ، ص ٥٥

١٠٢- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٤١١

١٠٣- الحياة اللغوية فى إيران قبل الإسلام ، ص ٥٤

١٠٤- المرجع السابق ، ص ٥٦

١٠٥- أرثر كريستنسن ، مرجع سابق ، ص ٣١

١٠٦- الحياة اللغوية فى إيران قبل الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٠١

١٠٧- أحمد محمد الحوفى ، مرجع سابق ، ص ٤٨

١٠٩- المرجع السابق ، ص ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١

١١٠- آرثر كريستنسن ، مرجع سابق ، ص ٤٠٠

١١١- المرجع السابق ، ص ٤٠٢

١١٢- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ٤٤٣

١١٣- أحمد فهمى القطان : تاريخ التربية ، ج١ ، التربية قبل الإسلام ، مطبعة مدرسة طنطا الصناعية ، مصر ، ١٩٢٣ ، ص ١١٤

١١٤- المرجع السابق ، ص ١١٥

١١٥ - ارثر كريستنسن ، مرجع سابق ، ص ٤٠٢

١١٦ ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٢ ، ص ص ٤٥٦

للمؤلف

١- الفلسفة ، للصف الثالث الثانوى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٢- المجتمع المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٣- دراسات فى التربية والفلسفة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٤- تدريس المواد الفلسفية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٥- قضايا التعليم فى عهد الاحتلال ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

٦- الأزهر على مسرح السياسة المصرية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، صدر فى طبعة أخرى فى سلسلة كتاب الهلال ، دار الهلال ١٩٨٦ بعنوان " دور الأزهر فى السياسة المصرية " ، مع حذف الفصل الأول ، وزيادة فصل فى اخره .

٧- التربية اليهودية الصهيونية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

٨- أصول التربية الإسلامية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، أعيد طبعه ، مع بعض التغييرات ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

٩- التصور النبوى للشخصية السوية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٠- أوضاع المربين العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١١- التعليم الثانوى ، الواقع والمستقبل ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٢- نشأة التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٣- دراسات عن التعليم فى المملكة العربية السعودية (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

١٤- دراسات فى اجتماعيات التربية (بالاشتراك) دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، وكان قد صدر بالاشتراك مع آخرين بعنوان " التربية ومشكلات المجتمع " ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

١٥- دراسات فى فلسفة التربية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ .

١٦- المدخل إلى العلوم التربوية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ .

١٧- دراسات فى التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

١٨- ديموقراطية التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ (صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٤ فى دار نشر الثقافة ، القاهرة) .

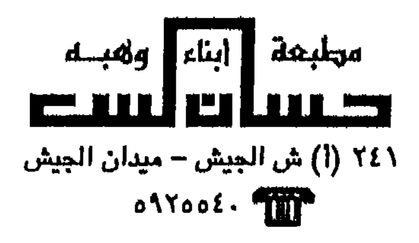
١٩- تجربة ثورة ٢٣ يوليو فى التعليم (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٢٠- الأصول السياسية للتربية (بالاشتراك) ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ ، ثم صدرت طبعة منفردة مختلفة تماما ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧) .

٢١- النبات والفلاحة والرى عند العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

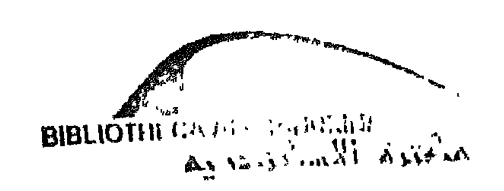
٢٢- تطور إعداد معلم المرحلة الأولى فى مصر (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
٢٣- محنة التعليم فى مصر ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
٢٤- تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
٢٥- معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، وكانت قد صدرت طبعة أولى منه ، مختصرة ، عن دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٨).
٢٦- إنهم يخربون التعليم ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
٢٧- الفكر التربوى العربى الحديث ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٧ .
٢٨- بحوث فى التربية الإسلامية ، مركز تنمية الموارد البشرية ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
٢٩- تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
٣٠- الأمن التربوى العربى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
٣١- هموم التعليم المصرى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
٣٢- هوامش فى السياسة المصرية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٩٠ .
٣٣ - اتجاهات الفكر التربوى الإسلامى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩١ .
٣٤- تعميم التعليم الابتدائى فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١ .
٣٥ - محو الأمية وتعليم الكبار فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١ .
٣٦- الأصول الإسلامية للتربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
٣٧- دراسات فلسفية (بالاشتراك) ،للصف الثالث الثانوى (مستوى رفيع) ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
٣٨- مستقبل التعليم فى الوطن العربى فى القرن الحادى والعشرين (بالاشتراك) ، التقرير النهائى ، منتدى الفكر العربى ، عمان ، ١٩٩٢ .
٣٩- نظرات فى الفكر التربوى ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
٤٠- رؤية إسلامية لقضايا تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣ .
٤١- التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٤ ،وقد أعيد طبعه عام ١٩٩٩ بعنوان " التربية فى حضارات الشرق القديم " مع تغييرات جوهرية .
٤٢- مقدمة فى التأريخ للتربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ثم أعيد طبعه ، مع إضافات كثيرة ، عام ١٩٩٩ ، نفس الناشر .
٤٣ التربية فى الحضارة اليونانية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

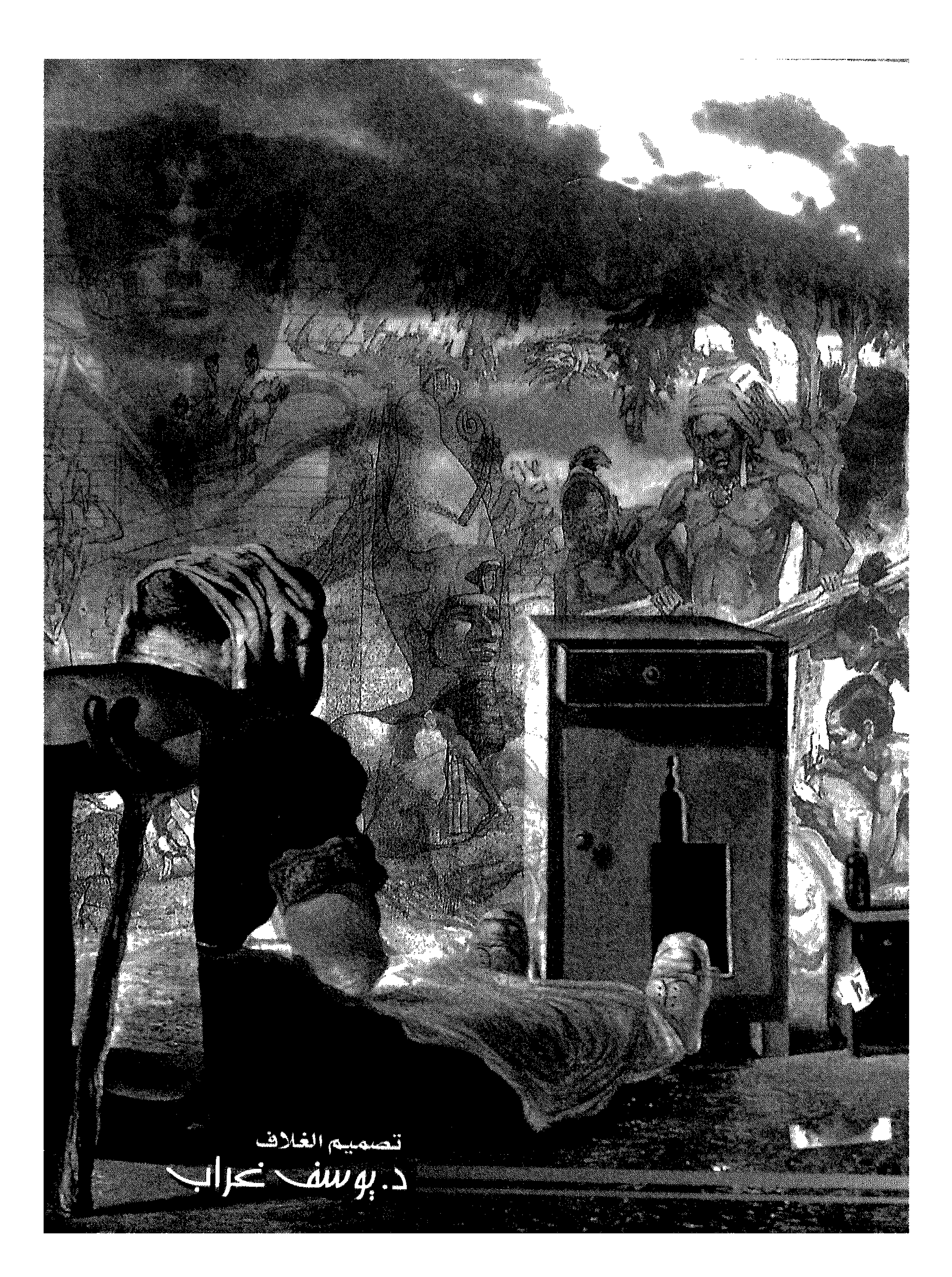
٤٤ - سقوط تربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
٤٥- فلسفات تربوية معاصرة ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٩٥ .
٤٦ - التربية علم له أصول ، دار أخبار اليوم ، سلسلة كتاب اليوم الطبى ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
٤٧ التعليم فى مصر ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٩٥ .
٤٨ التربية فى الحضارة المصرية القديمة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٤٩ سياسة التعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٥٠ التربية العربية فى العصر الجاهلى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، (كانت الطبعة الأولى المختصرة منه بعنوان " تمهيد لتاريخ التربية الإسلامية " ، نفس الناشر ، ١٩٧٩) .
٥١ التعليم والخصخصة ، كتاب الأهرام الاقتصادى ، الأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٥٢ التربية عند بنى إسرائيل ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
٥٣ التربية التحليلية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
٥٤ البناء القيمى فى مجتمع الكويت (تحرير) ، الديوان الأميرى ، مكتب الإنماء الاجتماعى ، الكويت ، ١٩٩٧ .
٥٥ استراتيجية تعليم الكبار فى الوطن العربى ، (تحت الطبع) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، ١٩٩٨ .
٥٦ التربية (بالاشتراك) لمعلمى التعليم الفنى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
٥٧ التعليم على أبواب القرن الحادى والعشرين ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
٥٨ عرب فى قاع الزمن ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
٥٩ - دفتر أحوال التعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
٦٠ شجون جامعية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
٦١- رؤية سياسية للتعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ .



مطبعة ابناء وهبه
حسان
٢٤١ (أ) ش الجيش - ميدان الجيش
٥٩٢٥٥٤٠

رقم الإيـداع بدار الكتب ١١٤٣٩ لسنة ١٩٩٩
الترقيـم الدولـي I.S.B.N. 977-232-192-0




تصميم الغلاف
د. يوسف غراب